في علم الجمال وفلسفة الفن :

الوجه الآخر للفنان
أو
العلاقة بين الأثر الفني وحياة الفنان

د. عبدالكريم اليافي

بعض الجواهر يبدو بلون واحد مهما تقلّب النظر فيه . وبعضها يبدو بلونين أو أكثر اذا نظر اليه من وجوه شتّى .

ويذكر البدْريّ في كتابه الجميل « نزهة الأنام في محاسن الشام » أنه رأى بالشام الكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسودوالأحمر ، ورأى بوادي النيربين شجرة توت تطرح التوت الأبيض والأسود . (ص ٣٦٠) .

أما الانسان فهو على خلاف الجمادوالنبات يتمتع تمتعاً طبيعياً بالحرّية . فهو أشد تلوناً من الجواهر وأكثر عطاءً من الكرمة . وآثاره الفنيّة أشهى من العنب وأدهى من بنت العنب كما أنهاأعلى قيمة أحياناً من الجوهر .

في الأدب العربي القديم نقرأ هذاالبيت المتشائم لدعبل الخزاعي :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت انسان فكدت أطير

ونرى فيه بعداً فلسفياً عميقاً . انالخوف من الانسان آت من حرية الانسان بالمعنى الواسع للحرية . ذلك أنه اذاعرفنا ردّ فعل الحيوان ازاء شيء ما فلسنا نعلم بالضبط ردّ فعل الانسان تلقاء واقعمعيّن . ذلك أن انفكاك القول عن العمل وتفاوت الظاهر والباطن منالأمور المكنةالمتعارفة . ولعل أكثر التفاوت بين الأثر الفنّي وحياة الفنان يقع في العهودالمضطربة المتقلبة . ولعل أبلغ مثال نورده

ما حصل للشاعر الألماني شيلر والموسيقي الكبير بتهوفن في العهد الرومنسي وكيف اختلفت ثمرات انتاجهما الفني عما عانياه من تباريح وعايناه من محن ·

أصبح شيلر سنة ١٧٨٥ بمدينة مَنْهايم يعيش في بؤس أسود ، ويكابد قلقاً نفسياً عميقاً مبرّحاً · قد ناله الاخفاق من كل وجه وأطبق عليه الشقاء · يرتطم أول عدد من الصحيفة التي يحاول أن يصدرها بعقبات لا تذلل ، ويثور به الرأي العام فيضطره الى مغادرة تلك المدينة · وهو يذعن لهذا الاضطرار من دون كره شديد لأنه بذلك يبتعد عن أسرة فونكالب اذ بدأ منذ عشرة أشهر بينه وبين الزوجة شارلوت غرام قد يعرّضها للأراجيف ولسوء القالة · ها هو ذا اذن يُجمع أمره فيسافر الى ليبزيغ أول آذار · وهنالك يفكر في أن يترك حرفة الأدب وأن يرجع الى دراسة الحقوق التي بدأها في الأكاديمية الحربية التي لم يحفظ منها الا ذكرى أشبه ما تكون بذكرى السجن · بَيْدَ أنه لا يستطيع متابعة هذه الدراسة لأنها لم تُرْضِه · لذلك يبدأ دراسة الطب · ولكنها لا ترضيه أيضاً · ويسعى أن يَتَخَلَّصَ من هذا القلق بأن يخطب مرغريت بنت صاحب المطبعة الذي يطبع له منشوراته · غير أن هذا الأب المتبصّر يضنّ بكريمته على هذا الفقير التاعس الذي كان فوق تعاسته مريضاً ضعيف البنية ·

كتب شيلر قبل أن يترك مَنْهايم الى أصدقائه في ليبزيغ رسالة يبوح فيها ببؤسه وشقائه جاء فيها :

« أكتب اليكم يا أخلائي من قلب ضيّق لا يوصف ضيقه · أصبحت لا أطيق المقام ههنا. لقد عزمت منذ اثني عشر يوماً في سريرة نفسي أن أقول لهذه الدنيا وداعاً. ان البشر وعلاقاتي والأرض والسماء كل ذلك يبدو لي بغيضاً ممقوتاً · لست أجد هنا نفساً تملأ فراغ قلبي ، ولا لي من صديقة أو صديق · حتى من كان عزيزاً عليّ تبعدني عنه دواعي التحفظ والصيانة ··· لقد برد وريد الشعر فيّ وجفّ قلبي فلا أخفُّ الى الأندية التي كنت أختلف اليها · لم أعرف قط يوماً من أيام السعادة · ابكوا عليّ ولأبُحْ بذلك · لم أعرف قطُّ يوماً من أيام السعادة لأن الشهرة والاعجاب وكل ما يغري بحرفة الأدب لا تَعْدِلُ لحظة من لحظات الحب والصداقة · »

كتب بتهوفن في سنة ١٨١٨ ما يلي :« أراني في عُدْم شديد أخشى أن يضطرني الى التسآل . ومع ذلك ينبغي أن أتظاهر بالكفاف .» ثم كتب الى بعض الرجال البارزين في عصره أمثال المؤلف الموسيقي شيروبيني والشاعر غوتي يسترفدهم قليلا من مال أو بُلْغَة من كفاف فلم يرسلا اليه شيئاً ، بل لم يتنزلا الى كتابة جواب له .

راودته فكرة الانتحار فهل يفعل ؟

ولكنه قال في حين سالف : « سأمسك بالقدر من شدقه فلن يستطيع أن يحنيني تماماً . » فهو يصرف اهتمامه عن الحياة وينغمس في الفن ويحاول أن يحلّق في جوائه البعيدة وأن يستشف فيها أنوار الفرح الخيالية . كتب في ذلك العهد : « هذا خريف العمر يقبل وأريد أن أشبه تلك الأشجار الخصيبة التي اذا هُزّتْ ساقطت بثمراتها الناضجة الشهية . »

ولكن داءً ما زال شبحه يخيفه منذ أمد ويقترب منه شيئاً فشيئاً حتى أصاب رميته . فقد أطبق عليه الصمم وحرمه حتى مُتْعَتَه الوحيدة وهي تلك الأصوات التي كان يجد فيها عزاءه وسلواه ونعيمه . فَلْيَصْدحْ اذن وقد بلغ القنوطُ منه مبلغه بالفرح الناس وليُعْجِزْ تلك الرغبة القديمة الدفينة فَلْيُغَنِّ أنشودة الفرح وليسكب تلك المعاني التي تَغَنَّى بها قبله شيلر موسيقى خالدة ، ولْيَكْتب آخر سمفونية له . بيد أن الآلات جميعها كأنها لا تكاد تكفيه لتصوير الفرح الذي تذوقه في حياته وتجسيم السعادة التي سبر أغوارها في سالف أوقاته . لذلك يلجأ في آخر السمفونية الى الأصوات البشرية فيجعلها تواكب الأنغام لعلها تستنفد الالهام :

« أيها الفرح ! أيها النور الالهي ! يا وليد الجنة المحبوب ! ندخل في محرابك أيها الملاك السماوي ونحن سكارى من سناك ! »

لجأ بتهوفن وشيلر الى جوّ خيالي حين ضاقا ذرعاً بواقعيهما لعله يضمن لهما ولو بالوهم نصيباً من الرّوْح وتسكين التباريح فصوّرا بالموسيقى وبالشعر غير ما عاشاه وما كابداه . ومن هنا يستبين لنا بعض وظائف الفن ، فهو بلسم يُجْدي وان كان لا يشفي ، يسكّن ولكنه لا يُبْرِىءُ . انه ضرب من التنفيس عن الكرب أحياناً ولجوء الى عالم لاواقعي .

كان شيلر اذ ذاك سادراً حزيناً ضاقت عليه الدنيا وأحاط به الحزن حتى تخايل له الموت • أليس هذا الوقت مناسباً للشاعر كي يغنّي ألمه ، وينفث شجاه ، ويرتل أنشودة الحزن ؟ كلاّ ! ان شيلر وقد أطبق عليه الحزن سيصوغ للسرور نغمة خالصة • فهو يؤلف في تموز قصيدته المشهورة « أنشودة الفرح » • وقد اتفق في ذلك الوقت أن لقي طالباً يدرس اللاهوت شقياً يهمّ أن ينتحر ، فهو يصلي قبل أن يلقي بنفسه في النهر خلاصاً من الشقاء •

لقد اشتبكت تعاسة شيلر من جهة ومرارة هذه الحادثة المؤلمة من جهة أخرى فخرج من هذا الاشتباك ترتيل الفرح وتمجيده ، ترتيل الفرح الغائب يتلامح في الخيال بين حنادس الشقاء :

« أيها الفرح ! أيها النور الآلهي ! يا وليد الجنّة المحبوب ! ندخل في محرابك أيها الملاك السماوي ونحن سكارى من سناك ! أيها الفرح ! أيها الحافز القوي للطبيعة السرمدية ! نرى أعلامك تتموّج من خلال النعوش المنفرجة • الحزن والفقر هاهما ذان قد أقبلا الينا ليفرحا مع الفرحين • »

استلهم بتهوفن أنشودة الفرح هذه وصاغها في الموسيقى سنة ١٨٢٣ فكانت موضوع السمفونية التاسعة •

وتدل الوثائق على أن بتهوفن حاول أن يصوغ أنشودة الفرح هذه في الموسيقي منذ ثلاثين سنة حين كان فتى في الثانية والعشرين من عمره • فبقيت تلك الرغبة تعمر قلبه حتى سنة ١٨٢٣ حين بلغ من العمر اثنتين وخمسين سنة • أفمعنى ذلك أن الفتى انتظر أن يتذوق أفاويق السعادة ويكتحل بأنوار السرور ويتعرّف أعماق الفرح حتى يسكب في موسيقاه خوالج تلك السعادة التي تذوّقها ويصور ألوان الفرح المزهوّة التي تعرّفها ؟ وهل كانت تلك السنة ١٨٢٣ أوجاً للسعادة والفرح عنده ؟

لقد عاش بتهوفن شقياً بائساً في أغلب حياته ولو انحنى أمامه الملوك • أحبّ أو خطب أربع مرات فلم تحفل الفتيات حبّه وآثر بعضهن عليه الشيوخ المتموّلين • ثم مات له أخ وكان له ابن فكفل بتهوفن ابن أخيه • ولكن هذا الولد كان طائشاً شديد الطيش زاد شجون عمّه وأفنى ما عنده من بلغ المعاش •

ولكنه أيضاً صناعة قد تعود على صاحبها بالكسب كغيرها من الصناعات ، انه حرفة ، كما سنرى . تسوّغ للفنان أن يعالج موضوعات تعود عليه بالربح وتَكْفُل له بُلَغ المعاش . فالتفاوت بين حياة الشعراء والفنانين وشخصياتهم وآثارهم الفنية ممكن بل هو كثير الاحتمال .

هذا الاحتمال ووجوهه درسها المفكر الفرنسي شارل لالو الذي كان أستاذاً لمادة علم الجمال في السوربون (باريس) دراسة مستفيضة في كتبه . فبعضها يحمل عنوان «الفن بعيداً من الحياة» . وبعضها يحمل عنوان « الفن قريباً من الحياة » . وهو يحصر وجوه الاحتمال هذه في خمسة ضروب من العلاقات يدعوها بالعقد النفسية الفنيّة اذ هو متأثر ببحوث التحليل النفساني وهي **عقدة الهروب ، وعقدة الصناعة ، وعقدة الاقتصاد ، وعقدة التداوي بالمثل ، وعقدة الذاتية .**

لفظ العقد لا يتضمن خفضاً ولا تقريظاً ولا اشارة الى مرض نفسي أو غيره وانما هو عبارة تقصد الى التصنيف لأن صاحبها تأثر ببحوث فرويد كما تأثر بمدرسة دركايم الاجتماعية التي تدرس الظواهر من «الخارج» دراسة موضوعية. ويجوز أن نقول في مكان العقد « نموذجات» وهذا لفظ أحدث لأنه يقابل في الوقت الحاضر ما يدعى في علم الاجتماع «موديلات» . ولكن نتابع هنا تعبير لالو بعض المتابعة .

في مثال شيلر وبتهوفن تتضح **عقدة الهروب** والانطلاق من إسار الواقع . أما **عقدة الصناعة** فهي تحمل الأديب والشاعر والفنان أياً كان على توخّي الاجادة مترسماً مراعاة الأحوال واقتضاء الصروف واتجاه الأرزاق دون الاهتمام بالواقع أو التقيّد بالصدق .

حدّث بعض الكوفيين قال : « مررت ببشّار وهو متبطّح في دهليزه كأنه جاموس . فقلت : يا أبا معاذ ! من القائل

في حُلّتيِ جسم فتى ناحل لو هبّتِ الريح به طاحا ؟

قال : أنا . قلت : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لأرى أن لو بعث الله الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك . فقال بشار : من أيّ البلاد أنت ؟ قلت : من أهل الكوفة . فقال: يا أهل الكوفة لا تدعون ثقلكم ومقتكم

على كل حال . (الأغاني) . في أسرار البلاغة للجرجاني : « فكم جواد بخّله الشعر ، وبخيل سخّاه ، وشجاع وسمه بالجبن ، وجبان ساوى به الليث ، وذي ضعة أوطأه قِمّةَ العيّوق، وغبيّ قضى له بالفهم ، وطائش ادّعى له طبيعة الحكم . »

قال ابن سلام : « كان كثيّر مدّعياً ولم يكن عاشقاً ، وكان جميل صادق الصبابة والعشق» . وروي عن أبي عبيدة أنه قال : « كان جميل يصدق في حبه وكان كثير يكذب . »

وجاء في « العمدة » : « وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم . فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً نحو ليلى وهند وسلمى ودعد ولبنى وعفراء وأروى وريّا وفاطمة ومية وعلوة وعائشة والرباب وجُمْل وزينب ونعم وأشباههنّ . ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلي أنشده الأصمعي :

وما طبّني حبّها غير أنه يقام بسلمى للقوافي صدورها

وأما عزة وبثينة فقد حماهما كثيّر وجميل حتى كأنما حرما على الشعراء . وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة اقامة للوزن وتحلية للنسيب . » (ج ٢ ص ١٦٥) .

وقال الشاعر :

كلٌّ يغنّي على ليلاه متخذاً ليلى من الناس أو ليلى من الخشب

اذ تغزّل بقوسه التي كانت مصنوعة من الخشب .

يقول قدامة بن جعفر في كتابه « نقد الشعر » :

« ان الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقاً بل انما يراد منه اذا أخذ في معنى من المعاني كائناً ما كان أن يجيده في وقته الحاضر . »

يروي أبو هلال العسكري في « كتاب الصناعتين » : النكتة التالية : « قيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام والصدق من الأنبياء . »

يقول بول فاليري : « لست مجنوناً بالأدب . ولكن الانسان اذا اشتغل به فلا ينبغي أن يتمدح بالصدق . الحرفة قبل كل شيء . »

كان ألكسندر دوما الكاتب الروائي الفرنسي يسمي آثاره بضاعة . وكان يعلن مرات أنه يصرف مائتي ألف فرنك في السنة (لعهده) فهو مضطر الى أن يكسب هذا المبلغ مهما كلف الأمر .

يقول المفكر الفرنسي هنري دولاكروا : « الأثر الفني هو صناعة وشغل . لا يبدع الانسان الا اذا اشتغل . »

أوجين دولاكروا رسّام فرنسي مشهور . آثاره تصور مذابح وحرائق وكوارث وضحايا وأستاراً مهتوكة وأطفالاً تدوسهم الخيل . ولكن كان لطيف المعشر أنيقاً رقيق الحواشي من نوع « الجنتلمان » . ولذلك قيل فيه : « طاقة ريحان على فوّهة بركان . »

جاء في مذكراته اليومية : « يوم شغل دون انقطاع . حس كبير وعذب بالعزلة والاطمئنان والسعادة العميقة . »

كتب أيضاً : « ما أغرب حياتي . لا أفكر الا في روبنس وفي موتزارت . شغلي الشاغل خلال الأسبوع ذكرى لحن أو صورة . أخف الى الشغل كما يخفّ غيري الى أحبابهم . »

سأل الكاتب الفرنسي آلان نحاتاً : هل يعشق الفن ؟ هل يعشق الجمال ؟ فأجاب النحات : انما تعشق الحرفة .

على أن ثمة مثالاً غريباً على التناقض بين الأثر الفني وشخصية الفنان لا بد لنا من الالمام به وهو يوضح عقدة الصناعة وابتغاء الكسب .

الحسين بن أحمد أبو عبدالله بن حجّاج شاعر كاتب مطبوع كطبع أستاذه ابن الرومي ، مجيد كاجادته . ولكنه أشد فحشاً واقذاعاً منه . صرف جلّ شعره الى المجون والسخف . وليس في تاريخ الأدب العربي على سعته من يباريه في هذا المجال مع علو شأنه في الشعر حتى قيل انه في درجة امرىء القيس . يقول صاحب معجم الأدباء فيه : « يدخل شعره في عشر مجلدات أكثره هزل مشوب بألفاظ المكدّين

والخُلْديين والشطار . ولكنه يسمعه أهل الأدب على علاته ويتفكهون بثمراته ويستملحون بنات صدره المتهتكات ولا يستثقلون حركاتهن لخفتها وان بلغت في الخفة غاية الغايات » . ويقول فيه أيضاً : « لقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء فلم يُخْلِ شعره فيهم مع هيبة المقام من هزل وخلاعة ، ولم يعدّوه مع ذلك من الشناعة . وكان عندهم مقبولاً مسموعاً غالي المهر والسعر وكان يتحكم على الأكابر والرؤساء بخلاعته ولا يحجب عن الأمراء والوزراء مع سخافته يستقبلونه بالبشاشة والاكرام، ويقابلون اساءته بالاحسان والانعام . وناهيك برجل يصف نفسه بمثل قوله :

رجل يدّعي النبوّة في السخـ ـف ومنذا يشك في الأنبياء

جاء بالمعجزات يدعو اليها فأجيبوا يا معشر السخفاء

خاطر يصفع الفرزدق في الشعـ ـر ونحو (ينال) أم الكسائي

لقد عاش في عصر المتنبي ولكن المتنبي كسفه وأخمل ذكره وأخمد ناره كما كسف غيره وأخملهم وأخمد نيرانهم . ولذلك لا بد له ولأمثاله من سلوك طرق أخر يمتازون في سلوكها أياً كانت . يعلل هو سخفه ومجونه وهزله في قوله يصف شعره :

وانما هزله مجون يمشي به في المعاش أمري

ويقول الثعالبي فيه : « وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبي على أهله ، ويعيش في أكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ، وديوان شعره أسير في الآفاق من الأمثال وأسرى من الخيال » كان ديوان شعره يباع بخمسين الى سبعين ديناراً . كان شيعياً مات ببغداد عام ٣٩١ هـ = ١٠٠١ م وأوصى أن يدفن في مشهد الكاظم بن جعفر الصادق عند رجليه ويكتب على قبره : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » . الفكاهة لم يرد أن تفارقه حتى بعد الموت . وكان معاصره الشاعر ابن سكرة وهو مثله في الهزل والمجون والاضحاك . وكان يقال في بغداد: « ان زماناً جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جداً » وهذا يدل على مكانة الاضحاك في زمن اشتد العبوس فيه وكثرت الحوادث السياسية والفتن الداخلية والاضطرابات الدينية .

لقد حقق له هذا الهزل مكانة مرموقة لدى الملوك البويهيين عز الدولة وعضد الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ووزرائهم جميعاً • وكانت له كما سلف آنفاً دالّة عليهم •

كم رغبنا حين كتبنا هذه السطور أن نستشهد بشيء لاذع من هزله ومجونه • ولكن حرارة فكاهته وفحشها يمنعان من ذلك •

قد يعنّ لنا أن نتصور شخصية ابن حجاج من شعره فنراها ضاحكة متهتكة متبذلة • ولكن رويداً • يسعفنا أبو حيان التوحيدي في كتاب « الامتاع والمؤانسة » بنص يستبين لنا منه كماله وهدوؤه ووقاره وسمته ورزانته بحيث تتجاوز شخصيته شخصية قائد مجرب محنك مثل ذي الكفايتين وذلك على خلاف شعره تماماً • كتب أبو حيان بقلمه البليغ :

« وأما ابن حجّاج فليس من هذه الزمرة بشيء ، لأنه سخيف الطريقة ، بعيد من الجد ، قريع في الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له في قرضه مثال ، على أنه قويم اللفظ ، سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار عن عادته الجارية في الخسار ، وهو شريك ابن سكّرة في هذه الغرامة ، واذا جد أقعى واذا هزل حكى الأفعى •

وله مع ذي الكفايتين مناظرة طيبة • قال (الوزير) : ما هي ؟ قلت : لما ورد ذو الكفايتين سنة أربع وستين (أي بعد الثلاثمائة) وهزم الأتراك مع أفتكين ، وكان من الحديث ما هو مشهور ، سأل عن ابن حجاج ، وكان متشوقاً له لما كان يقرأ عليه من قوافيه ، فأحب أن يلقاه ، لأنه ليس الخبر كالمعاينة ، والمسموع والمبصر كالأنثى والذكر ينزع كل واحد منهما الى تمامه ، فلما حضره أبو عبدالله احتبسه للطعام ، وسمع كلامه ، وشاهد سَمْته ، واستحلى شمائله ، فقام من مجلسه ، فلما خلا به قال : يا أبا عبد الله ، لقد والله قد تهت عَجَباً منك ، فأما عُجْبي بك فقد تقدم ، لقد كنت أفْلي ديوانك ، فأتمنى لقاءك ، وأقول : من صاحب هذا الكلام ؟ أطيش طائش ، وأخف خفيف ، وأغرم غارم ، وكيف يجالس من يكون في هذا الاهاب ؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب ؟ حتى شاهدتك الآن ، فتهالكت على وقارك وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك ،

وتناسب حركاتك ، وفرط حيائك ،وناضر ماء وجهك ، وتعادل كُلك وبعضك • وانك لمن عجائب خلق اللهوطُرَف عباده؛ والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ،مع هذا التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدك • فقال أبو عبد الله : أيها الأستاذ ،(وهل) كان عجبي منك دون عجبك مني ! لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجبمنك ، قال : لأني قلت اذا ورد الأستاذ فسألقى منه خلقاً جافياً ، وفظاً غليظاً ،وصاحب دواسر[1] ، وآكل كوامخ، وجبلياً ديلمياً متكابئاً متعاظماً ، حتى رأيتكالآن ، وأنت ألطف من الهواء ، وأرق من الماء ، وأغزل من جميل بن معمر ، وأعذبمن الحياة ، وأرزن من الطود ، وأغزر من البحر ، وأبهى من القمر ، وأندى منالغيث ، وأشجع من الليث ، وأنطق من سحبان ، وأندى من الغمام ، وأنفذ منالسهام ، وأكبر من جميع الأنام • فقال أبو الفتح وتبسم : هذا أيضاً من ودائعفضلك وبواعث تفضلك ، ووصله

لقد وعى ابن حجاج هو نفسه هذاالتناقض بين سمته ووقاره وهندامه من جهة ومضمون شعره من جهة مقابلة • وهوالقائل :

ترانـي ساكنـاً حانوت عطـر ۔۔۔ فان أنشـدت ثار لـك الكنيف

من كل هذا يتضح حرج الناقد أوالمفكر حين يريد أن يستخلص صورة لشخصية شاعر أو فنان من شعره أو آثاره الفنية • في تراثنا الأدبي الفكري الواسع أمثلة عديدة تنبّه على وجوبالاحتراز من ذلك تجعلنا لا ننساق الى الأحكام الحتمية عند دراسة الأدباءوالشعراء والمفكرين والفنانين مثلما انساق زعيم الأدب العربي طه حسين وراءطائفة من النقاد الفرنسيين أمثال تين وسانت بوف[2] حين كتب في حديث الأربعاء :

« الام تقصد اذا عرضت لشاعر منالشعراء وأردت أن تقرأ شعره وتفهمه ثم تنقده ؟ تقصد فيما أظن الى أشياء :الأول أن تصل الى شخصية الشاعر

---

١ ـ اللفظة غامض ؛ والأصل في الكتاب رواسر ؟ واذا لم يكنمحرفا فهو فارسي يتالف من روا بمعنى يليق ، وسير بمعنى شبعان ، ويكون مؤدى معناه صاحب نهم • والأرجح انـهدواسر جمع دوسر بمعنى الكتيبة •

٢ ـ ساد مبدأ الحتمية التفكير العلمي في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين • وهو أن جميع الظواهر علمية وحيوية تخضع لنسق ثابت ودائم • وتاثرت اذ ذاكبحوث النقد الغربية بهذا التفكير • وقد أصبح العلماء في الوقت الحاضر ينظرون الى تلك الحتمية على أنها احصائية ،وحل محلها في الفيزياء الحديثة مبدأ اللاحتمية (انظر كتابينا : الفيزياء الحديثة والفلسفة ، وتقدم العلم) •

فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعت فتعرف كيف أحس ما أحس وكيف شعر بما شعر ثم كيف وصف احساسه وأعرب عن شعوره . الثاني أن تتخذ هذه الشخصية وما يؤلفها من عواطف وميول وأهواء وسيلة الى فهم العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر والبيئة التي خضع لها هذا الشاعر والجنسية التي نجم منها هذا الشاعر . »

ان زعيم الأدب الحديث يريد أيضاً أن يَخْرُجَ الناقد من دراسة شعر الشاعر الى الحكم على المجتمع وعلى الجنسية أو القومية التي ينتسب اليها الشاعر وفي هذا من المبالغة ما فيه كما سنرى .

لقد أدرك عبد الله بن المعتز قبل طه حسين بقرون الوجه الآخر للشاعر . روي أنه كان يقول : «أربعة من الشعراء سارت أسماؤهم بخلاف أفعالهم فأبو العتاهية سار شعره بالزهد وكان على الالحاد ، وأبو نواس باللواط وكان أزنى من قرد ، وأبو حكيمة سار شعره بالعُنَّة وكان أهبَّ من تيس ، ومحمد بن حازم سار شعره بالقناعة وكان أحرص من كلب . »(ترجمة ابن المعتز في وفيات الأعيان) .

نعود الى حديث الأربعاء والى الأحكام الحتمية التي أطلقها مؤلفه على الحسن بن هانىء : « ان أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين يتغزل بالنساء وانما كان مازحاً أو بعبارة أصح كان مخادعاً وكان كذاباً ، كان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ومنها الغزل بالنساء . فتغزّل بهنّ حتى لا يفوته هذا الفن . » ثم يقول : « لم يكن أبو نواس يحب النساء وكان ينفر منهنّ نفوراً شديداً . » هذا ولا غرو أن ابن المعتز كان أقرب عهداً وأصدق حكماً وأنفذ فهماً لطبيعة الفن وهو من أربابه الكبار .

هنالك في تاريخ الفن ما يدعو الى تبيّن فجوات أخرى بين الفنان وفنّه ، اذ يكتفي الفنان بأن يصور في فنه أموراً وأحوالاً وأفعالاً لم يعملها ولا زاولها . ليس ذلك هروباً من الواقع وانما هو تحقيق في الفن لرغبات لم ينجزها الفنان ، بل اكتفى بتصويرها وعرضها . وهو ما يدعوه لالو **عقدة الاقتصاد** كأن الفنان اقتصد فاقتصر على القول أو الوصف دون الفعل .

كتاب « الفضيلة » أو بول وفرجيني الذي ترجمه المنفلوطي ترجمة فاقت

الأصل مؤلفه برناردان دوسان بيير • الرواية قلت أمثالها في تصوير البساطة والصفاء والحب البريء والطيب والطهارة • ولكن المؤلف الفرنسي كان في حياته قاسياً وعر الجانب مزعجاً عاش في نزاع دائم مع أصحابه ومع أهل بيته •

ايميلي برونتي كتبت رواية من أعظم الروايات في الأدب الانكليزي تصور عنف الحب وتحلل أغواره النفسية • ومع ذلك عاشت عيشة مطرّدة فارغة لم تحب أحداً ولم يحبها أحد • ماتت عذراء في التاسعة والعشرين من عمرها في بيت أبيها • ومثلها أختها شارلوت برونتي •

وعلى العكس جورج ايليوت عاشت عيشة حرّة وهي مع ذلك تنوّه في كتبها بقيمة الدين الذي لم تلتزم بتعاليمه وبقيمة الزواج الذي استغنت عنه •

في الأدب العربي نورد مثالين بارزين أولهما أبو العتاهية وثانيهما الشريف الرضي.

أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم كان الى جانب ما مر من تهمة الحاده في كلام ابن المعتز من أشد الناس بخلاً وامساكاً • أخباره منثورة في كتاب الأغاني[٣] •

حدث محمد بن عيسى الخزيمي ،وكان جار أبي العتاهية ، قال :

« كان لأبي العتاهية جار يلتقط النوى ضعيف سيء الحال متجمل عليه ثياب ، فكان يمر بأبي العتاهية طرَفي النهار ،فيقول أبو العتاهية : اللهم أغْنِه عما هو بسبيله ، شيخ ضعيف سيء الحال عليه ثياب مُتَجمِّل ، اللهم أعِنْه ، اصنع له ، بارك فيه • فبقي على هذا الى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة • ووالله إنْ تصدّق عليه بدرهم ولا دانق قط ، وما زاد على الدعاء شيئاً •

فقلت له يوماً : يا أبا اسحاق : اني أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقلّ ، فلم لا تتصدق عليه بشيء؟ فقال : أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وان في الدعاء لخيراً كثيراً •

قال محمد بن عيسى الخزيمي هذا :وكان لأبي العتاهية خادم أسود طويل كأنه مِحْراك أتّون • وكان يجري عليه في كل يوم رغيفين • فجاءني الخادم يوماً فقال لي : والله ما أشبع • فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : لأني ما أفتر من الكدّ ، وهو

٣ ـ قال ابن المعتز ايضا : « فيما تزندق فيه أبو العتاهية قوله :
اذا ما استجزت الشك في بعض ما ترى ... فما لا تراه العين أمضى وأجوز »
(البصائر والذخائر ج ٤ ص ٦٧١)

يجري عليّ رغيفين بغير ادام • فان رأيت أن تكلّمه حتى يزيدني رغيفاً فتؤجر • فوعدته بذلك • فلما جلست معه مرّ بنا الخادم فكرهت اعلامه أنه شكا اليّ ذلك • فقلت له : يا أبا اسحق ! كم تُجْري على هذا الخادم في كل يوم ؟ قال : رغيفين • فقلت له : لا يكفيانه • قال : من لم يكفه القليل لم يكفه الكثير • وكل من أعطى نفسه شهوتها هلك • وهذا خادم يدخل الى حُرَمي وبناتي فان لم أعوّده القناعة والاقتصاد أهلكني وأهلك عيالي ومالي • فمات الخادم بعد ذلك ، فكفّنه في إزار وفراش له خَلَق • فقلت له سبحان الله ! خادم قديم الحرمة طويل الخدمة واجب الحق تكفّنه في خَلَق ! وانما يكفيك له كفن بدينار • فقال : انه يصير الى البلى • والحيّ أولى بالجديد من الميت • فقلت له : يرحمك الله أبا اسحاق! فلقد عوّدته الاقتصاد حيّاً وميتاً • »

قال محمد بن عيسى هذا أيضا : « وقلت لأبي العتاهية : أتزكي مالك ؟ فقال : والله ما أنفق على عيالي الا من زكاة مالي • فقلت : سبحان الله ! انما ينبغي أن تخرج زكاة مالك الى الفقراء والمساكين • فقال : لو انقطعت عن عيالي زكاة مالي لم يكن في الأرض أفقر منهم • »

هذه القصة تشير أيضاً الى بخله على أهل بيته • بل كان بخيلاً على نفسه •

« قال الجاحظ حدثني ثمامة قال :دخلت يوماً الي أبي العتاهية ، فاذا هو يأكل خبزاً بلا شيء • فقلت : كأنك رأيته يأكل خبزاً وحده • قال : لا، ولكني رأيته يتأدم بلا شيء • فقلت : وكيف ذلك ؟فقال : رأيت قدّامه خبزاً يابساً من رقاق فطير وقدحاً فيه لبن حليب • فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها من اللبن ويخرجها ولم تتعلق منه بقليل ولا كثير • فقلت له : كأنك اشتهيت أن تتأدم بلا شيء ، وما رأيت أحداً قبلك تأدم بلا شيء • » (الأغاني)

ديوانه حافل بالزهد والحث على انفاق المال والتحرر من رقّ المال :

ان القناعة بالكفاف هي الغنى   والفقر كل الفقر في الأموال

★ ★ ★

أبقيت مالك ميراثاً لمالكه   فليت شعري ما أبقى لك المال

★ ★ ★

يا طالب الدنيـا يثقّل نفسـه	ان المُخِفَّ غـداً لأحسن حـالا
إنّا لفي دار نـرى الاكثـار لا	يبقى لصـاحبـه ولا الاقـلالا
أأخَـيَّ ان المـال ان قدمتـه	لـك ليس ان أخرتـه لك مـالا

قال ثمامة بن أشرس : أنشـدني أبوالعتاهية :

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه	تملكـه المال الذي هو مالكـه
ألا انمـا مالي الذي أنا منفـق	وليس لِيَ المال الذي أنا تاركه
اذا كنت ذا مال فبادر بـه الذي	يحـقّ والاّ استهلكته مهالكـه

فقلت : من أين قضيت بهذا ؟ فقال : من قول رسول الله صلى الله عليـه وسلم : انمـا لك من مالـك ما أكلـت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له : أتؤمن بأن هذا قول رسول ﷺ وأنه الحق ؟ قال : نعم . قلت : فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة في دارك ولا تأكل منها ولاتشرب ولا تزكّي ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبـامعن ! والله انّ ما قلت لهو الحق ، ولكني أخاف الفقر والحاجة الى الناس . فقلت: وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح عـلى نفسك ، لا تشتري اللحم الاّ من عيد الى عيد ؟ فترك جواب كلامي كله . ثم قـال لي : والله لقـد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم . فلما قال لي هذا القـول أضحكنـي حتى أذهلني عن جوابـه ومعاتبتـه . فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للاسـلام .

قال صاحب الأغاني فيه : وكان أبخل الناس مع يسـاره وكثـرة ما جمعـه من الأمـوال .

وهـو لا يكتفـي ببخـله وحرصـه ويصمت بل كان ينعى على غيره الحـرص والبخل . قال أبو العتاهية :

سأقنـع ما بقيت بقـوت يـوم	ولا أبغـي مكـاثـرة بمـال
تعالى الله يا سـلم بن عمـرو	أذلّ الحرص أعنـاق الرجـال
هب الدنيـا تساق اليك عفواً	أليس مصـير ذاك الـى الزوال

فلما بلغت الأبيات سلماً قال : ويلي عليه كنز البدور ويزعم أني حريص وأنا في ثوبيّ هذين • ثم قال :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهّد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقاً ... أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى ... يناله الأبيض والأسود

أما ثاني المثالين فهو الشريف الرضي يطمح الى سدة الخلافة ويجد في نفسه وفي نسبه مزايا تخوّله اياها • وهو يبحث في كل ما حوله ومن حوله لاستعانته في في الوصول الى هدفه دون أن يفعل شيئاً • بل هو في طموحه لا يستند الى التنديد بالاضطراب المتفشي في الدولة العباسية ولا الى المناداة بالاصلاح أو العدالة الاجتماعية الا لَفاءً ولا يبدأ بمجابهة الواقع والدعوة الى التغيير والتبديل والثورة بل يكتفي بأن يشنّ غارات شعرية بليغة في شعره يتوهم فيها النجاح أو يرجوه فيقتصر على الأحلام :

نَبَّهْتُهُمْ مثل عوالي الرماح ... الى الوغى قبل نموم الصباح
فوارس نالوا المنى بالقنا ... وصافحوا أعراضهم بالصفاح
لغارةٍ سامعُ أنبائها ... يغصّ منها بالزلال القَراح
ليس على مضرمها سبَّةٌ ... ولا على المُجلب منها جناح
دونكمُ فابتدروا غُنْمها ... دمى مباحاتٌ ومالٌ مباح

ثم يقول :

فارم بعينيك مليّاً ترى ... وقع غباري في عيون الطلاح
وارق على ظلعك هيهات أن ... يزعزع الطود بمر الرياح
لا همَّ قلبي بركوب العلا ... يوماً ولا بلَّ يديّ السماح
ان لم أنلها باشتراط كما ... شئت على بيض الظُبى واقتراح
أفوز منها باللباب الذي ... يُغْنِي الأماني نيله والصُراح

ويقول أيضاً في قصيدة جميلة :

ولولا الجوى لم أبْغِ الا مدامة　　بطعن القنا ابريقها الودجان
اذا سكر العَسّال من قطراتها　　سقيت حميّاها أغرَّ يماني
ولي أملٌ لا بدَّ أحمل عبئه　　على الجرد من خيفانةٍ وحصان
وكل رعود الشفرتين كأنه　　سنا البرق إما جدَّ في اللمعان
وأسمر هزهاز الكعوب كأنه　　قرا الذئب مجبول على العسلان
فان أنا لم أركب عظيماً فلامضى　　حسامي ولاروّى الطعان سناني

* * *

ما سلف ذكره من العقد النفسية الثلاث يجعل الأثر الفنّي بعيداً من حياة الفنان . أما العقدتان الباقيتان وهما التداوي بالمثل والذاتية فتصوران حياة الفنان أو تقرّبان منها . وهنا نستشف الوجه الحقيقي للفنان سافراً أو من وراء التحليل النفساني .

وما ان نذكر التداوي بالمثل حتى يبتدر الذهن البيت المعروف :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى　　كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وبيت الأعشى :

وكأس شربت على لذة　　وأخرى تداويت منها بها

ومطلع قصيدة أبي نواس :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء　　وداوني بالتي كانت هي الداء

كما يبتدر الذهن العلاج العربي القديم : آخر الدواء الكي .

لفظ التداوي يضعنا في ميدان مشترك بين الطب النفسي والطب الجسمي وهما في واقع الأمر صنوان حتى ان هنالك ما يدعى بالطب الجسمي النفسي .

يكاد تاريخ المداواة كله يتلخص في طريقتين : المداواة بالضد وهو أن يُوفَّر للمريض ما يعوزه وأن يُعدّل مزاجه المنحرف بما يردّه الى السواء على حد تعبير الأقدمين • فالمصاب بالبرد يُدفّأ والسيء التغذية أو السَّغِل تُحسَّن تغذيته وهلم جرا ••• والمداواة بالمثل وهي متنوعة تشتمل على الوقاية والعلاج • وما اللقاحات التي تعطى الإشكال لهذا النوع اذ هي مصول لمفرزات بعض الجراثيم أو هي جراثيم مضعفة الصولة تزرق حيناً بعد حين وبكميات متدرجة الزيادة أحياناً لتنبيه خلايا الجسم واستحداث الأجسام الضدية أو الدواحر وتكوين المناعة •

ويمكن أن نلحق به الطريقة الصينية وهو الاَبْر،أي الوخز بالابر •

على أن مجال التداوي بالمثل يفيض عن نطاق الطب ليفضي الى نطاق التأثير مطلقاً • لقد كان السحرة عند الأقوام البدائية والكهان اذا أرادوا أن يؤذوا عدوهم صوروه وطعنوا الصورة بالحراب ، وهم اذا أرادوا استكثار طريدة من الصيد أكثروا من صورها على جدران كهوفهم •

أما في الفن فقد انتبه أرسطو منذ القديم الى وظيفة المسرح وهي تصفية النفس من شوائب الأهواء التي تُضِرُّ بها ودعا ذلك بالتطهير وشاع اللفظ اليوناني الدالّ عليه وهو :« كترسيس » • فاذا شهد المرء مسرحية أو فلماً سينمائياً في العصر الحاضر يعالج مشكلة نفسية أو مأساة خَفَّفت المشاهدة ما يعتلج في نفسه من هموم كما يخفف « المُسهل » الطبي ما بالجسد من سموم اذ يفيد اللفظ اليوناني الأصلي معنى المُسْهِل •

كان أرسطو راضياً عن وظيفة المسرح هذه • ولكن بعد قرون جاء الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو وحكم على المسرح حكماً قاسياً فقد لاحظ ملاحظة حصيفة ، وهي أن المسرح يصفّي الأهواء التي ليس لها بذور في النفوس ويستثير الأهواء التي لها في النفوس بذور • فتمثيل الجريمة أو الفحش ينهى عنهما نفوساً نقية ولكنه يثيرهما في النفوس المستعدة الغافية •

على أن المداواة بالتمثيل المسرحي دخلت في العصر الحاضر في علم الاجتماع الأمريكي بأسلوبين أصبحا متعارفين وهما السيكودراما والسوسيودراما يعالج

الأول الأحوال والعلاقات الناشزة المنحرفةوالثاني قضايا زيادة الانتاج وحسن التعاون في الأعمال (انظر كتابنا تمهيد فيعلم الاجتماع) • ولا شك أن مسرح الدمى والصور المتحركة يمكن في بعضالأحيان الحاقهما بهما •

لقد عرف مجنون ليلى طريقة المداواة بالمثل هذه فكان يبث لواعجه الشعر :

فما أشرف الأيفاع الا صبابة ولا أنشد الأشعار الا تداويا

ولكن هيهاتللشعر أن يشفيه مماهوفيه• قصته قصة المحبين الذين يحبون الحب للحب صدقاً وعهداً ووفاء • هنا يأتي ذكرالعالم الكاتب الشاعر الألماني غوتي من كبار الدولة البروسية • وهو من سنالعشرين الى الخامسة والسبعين لم ينصرف عن قضايا الحب • كان يعرفكيف ينهي مغامراته بلباقة وتوفيق دون أن تؤدي الى نتائج وخيمة تقع تبعتهاعليه • كانت تلك المغامرات من جميع الأنواع • أحب مرة عاملة بسيطة وعاشمعها ثم اضطر الى تزوّجها اعترافاً منه بفضلها اذ أنقذته من خصام وقع بينهوبين جنديين كادا يطلقان النار عليه • كان غالباً بعد أن يقطع علائقه الغراميةيؤلف قصيدة أو يكتب رواية فيسكّن عاطفته وينسى الماضي • ومن مغامراتهأنه صاحب حين كان طالباً « لوتّي » خطيبة صديقه « كستنر » • ثم أحس أنه يحبها حباً شديداً • وهو يريد أن يضع حداً لهذا الحب فيسافر فجاءة • يحاولالنسيان والسلوان فيلهو ويتسلّى ولكنه لا يفلح ويبقى سادراً بعض الوقت حتىتقع حادثتان تنهيان حيرته • وذلك أن موظفاً دبلوماسياً ينتحر من حبّ مخفق ثميطلب اليه صاحب الثويّ الذي كانيسكن فيه أن يغادر بيته • وعندئذ تجلّى لهموضوع رواية فرتر رأساً فكتبها دفعة واحدة • وبعد ذلك وجد نفسه قد شفيمن حبه •

لقد استجرّت روايته هذه التيتفضي ببطلها الى الانتحار حوادث انتحار متعددة •

قال لراهب انكليزي : «تحكمون علىكتاب أساءت فهمه عقول ضعيفة فخلص العالم من بقية رؤوس بليدة لا قيمة لهاولا تستطيع أن تعمل شيئاً خيراً من اطفاء ما بقي من ذبالتها الضعيفة • لقدحسبتُني بذلك خدمت الانسانية واستحققت شكرها • »

وقال أيضاً لكاتب : « ان النتائج لا تهمني . اذا كان ثمة مجانين تضرّ بهم قراءة كتاب فرتر فللميدين وللفم . »

بيد أن ثمة شعراء وكتّاباً مفتونين بأنفسهم تملّكهم حب الذات فهم فيما ينظمون أو يكتبون انما يتحدثون عن أنفسهم اما تقوية لما يشعرون ودعماً لما يحسون وإما اعجاباً بذواتهم كما أعجب نرجس بنفسه على الشكل الذي تتحدث عنه الأسطورة اليونانية .

يقول أبو نواس :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر — ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهر
فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى — فلا خير في اللذات من دونها ستر

كأن هذا الفاسق الضالّ كان قبل توبته يريد أن يؤكّد لذته في الشراب بالقول وبالشعر وبالاعلان .

أما النرجسية فهي صفة من صفات عمر بن أبي ربيعة الذي يدّعي أنه وكل بالجمال يتبعه ولكنه كان مفتوناً بصباه يشبب بنفسه حين يشبب بالغواني :

بينما ينعتنني أبصرنني — دون قيد الميل يعدو بي الأغر
قالت الكبرى أما تعرفنه — قالت الوسطى بلى هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها — قد عرفناه وهل يخفى القمر

لقد تداول طائفة من المفكرين والشعراء تلك الأسطورة أسطورة نرجس. هل نذكر هنا بول فاليري حين نوه في قصيدة له أن الانسان لا يحب شيئاً غير ذاته :

انما أنا نرجساً الحبيب — مشغوف بماهيتي وحدها
كل ما عداها لديّ دون قلبه حجاب — كل ما عداها ان هو الا غياب
أُحِبُ ... أُحِبّ ... ومن ذا الذي يمكنه أن يحب شيئاً غير ذاته .

الا أن الفيلسوف الفرنسي لويس لافيل في كتابه الصغير الممتع « ضلال نرجس » يشير الى أن الفتى اليافع لما رأى صورته في صفحة الماء وعشقها أراد أن يعانقها فكلما اقترب ولامس الماء اضطربت الصفحة واضطربت صورته معها وهذا يدل على أنه لا معنى ولا امكان لمحبة الانسان نفسه . وفي « الفتوحات المكية » لمحيي الدين بن عربي تحليل بارع لحب الانسان نفسه وحبه غيره .

الكاتب الفرنسي القديم «مونتيني» لا يتحدث في كتابه « بحوث » الا عن ذاته · يقول فيه : أنا ذاتي التي أصورها · أنا نفسي مادة كتابي ··· لا أجرؤ فقط في الكلام على نفسي وانما أتكلم على نفسي ليس غير · أضلّ حين أكتب شيئاً غير ذلك · »

في تاريخ الفكر العربي كتب وفصول من السير الذاتية · نذكر منها « المنقذ من الضلال » للغزالي ، ونذكر منها « التعريف برحلة ابن خلدون شرقاً وغرباً » لابن خلدون نفسه ، كما نذكر ما دبّجته يراعة ابن سينا عن نشأته ودراسته وأتمّه تلميذه الجوزجاني · وكل هذه السير صادقة ودقيقة ومتوازنة توازن أصحابها ·

ولكنا هنا ننوه بمذكرات كان لكتابتها أثر بليغ في نفس مؤلفها وهي ما كتبه جان جاك روسّو في كتابيه « أحلام متنزه منفرد » و « اعترافاتي » نعرض منها ما تتبعه شارل لالو تتبعاً فيه شيء كثير من النقد والسخرية ·

يقول في كتابه أحلام متنزه : « أستأنف تتمة الفحص الصادق والدقيق الذي دعوته سابقاً اعترافاتي وأقصر أيامي الأواخر على دراستي لنفسي وعلى ابتداري اعداد محاسبتي لنفسي وهي التي أتأخر في تقديمها » · المرحلة الأولى في هذه الاعترافات هي الصدق. يقول روسو: « ينبغي ألا يبقى شيء من نفسي غامضاً أو خفياً للملأ الذي أحاول أن أبدوَ له تماماً فيتعقبَني في ضلالات قلبي كلها · » ثم يقول : « أود لو أستطيع بشكل ما أن أجعلني شفافاً في عيني القارىء · » ثم يقول : « تلك ضلالات صباي وخطاياه سردت قصتها سرداً أميناً يرضى عنه قلبي · »

المرحلة الثانية هي أن روسو بعدئذ ينظر الى ماضيه فيرتفع به الى جو سام · كل شيء فعله روسو جيد وجميل ولو كان في حد ذاته سيئاً وقبيحاً · لا يصدر عن الطيب الا الطيب · من المعلوم أنه كان في صباه متروك العنان على الغارب ، لم يُعْنَ به أبوه ولا سهر على تربيته. ضيَّع جزءاً طويلاً من طفولته سدى وهو الذي يذكر ذلك · فهل يأسف على الزمن الضائع · هيهات ! بل يتمدح ويفتخر · نقرأ فيما كتب : «قلت وأعيد وربما أعيد أيضاً مرة جديدة أمراً أزداد كل يوم يقيناً به ، وهو أنه ان كان فتى تلقى تربية سليمة ومعقولة فهو أنا · »

ولقد عاش مدة مع خادمة هي تيريزوكان عيشه معها في خصام • كانت أمية تكاد تعرف القراءة ولا تحسن الكتابة ولاتستطيع تمييز الآيام بعضها من بعض ولا معرفة الساعة • أتى له منها خمسة أولاد • واضطر الى ترك هؤلاء الخمسة فجعلهم في ملجأ لعدم استطاعة أمهم العناية بهم • ومع ذلك حين يستشيره أمير ورتنبرغ في صفات مربية لبنته ينصح لهأن تكون المربية جاهلة • ويمكننا أن نحزر من وراء هذه المربية الجاهلة النموذج الذي يشير اليه ، ونزداد يقيناً حين نقرأ قوله : « انها اذا كانت لا تجيد القراءة فخير ذلك لأنها ستتعلم مع تلميذتها • »

روسو نسيج وحده لا يشبه أحداًولا يشبهه أحد • يقول : « آعرف قلبي وأعرف الناس • لست كأحد من هؤلاء الذين رأيتهم بل أجرؤ على الظن أني لست كأحد من جميع الخلائق • »

يتذكر بعد أكثر من خمسين سنة قصة تافهة وهي قصة مشط الآنسة «لمبرسيي»، اذ كانت تنشف أمشاطها في الشمس على صفيحة • فهو يوردها ويتبرأ أمام الانسانية من التهمة التي اتُّهمها• يقول:« لقد مر الآن على تلك الحادثة نحو خمسين سنة ولست أخشى اليوم أن يقع عليَّ القصاص فوراً بسببها • فأنا أعلن أمام السماء أني بريء منها وأني لم أكسرولا مسست المشط ، وأني لم أقترب من الصفيحة ، بل لم أفكر في ذلك • » ولكنه الى جانب تبرئه وتنصله يقر بخطايا : انه يختلس أشياء بسيطة تافهة وترهات وسفاسف ولكنه لا يسرق مالاً الا في النادر • يقول : « كنت اذن ألصَّ وما زلت حتى اليوم • ولكني انما ألصّ سفاسف بسيطة تستهويني أوثر أخذها بدلاً من التماسها من أصحابها • ولكني ما أذكر في حياتي كلها صغيراً أو كبيراًأني سرقت ولو دانقاً من أحد ، ما عدا مرة واحدة قبل نحو من خمس عشرة سنة سرقت فيها سبعة فرنكات وعشرة فلوس • »

شارل لالو الذي يتقفى فقرات روسوهذه يدفعه حس النكتة الى التعليق على ذلك بأن التمييز بين الأشياء والدراهم عند السرقة من شأن الخدم لا من شأن الموظفين الكبار ولا من شأن الوزراء •

يورد لالو أيضاً اعتراف روسو بسرقته شريطاً فضياً اتهم به الخادمة

« ماريون » ، ثم أبت نفسه بعد ذلك بأربعين سنة في كتاب الاعترافات الا أن يقرّ بذلك ولكنه ادعى الرغبة في تقديمها الى الخادمة نفسها ٠

المرحلة الثالثة هي العفو والغفران ٠ يبحث روسو بعد مجموعة الاعترافات عن حَكَم ٠ فيقول : « لقد وعدت بالاعتراف، لا بتبرير نفسي ٠ عليَّ أن أكون صادقاً ٠ وعلى القارىء أن يكون منصفاً ٠ لن أطلب اليه أكثر من ذلك ٠ »

ولكن حذار أيها القارىء أن تصيبك المسبّة ! ان روسو يشتم الحَكَم ان حكم عليه ٠ يقول : « لقد قلت الصدق ٠ ومن ظن أني رجل سَوْء فهو حقيق بالخنق » على القارىء اذن إما العفو وإما الموت ! ذلك أن روسو لا يفوقه أحد بين الكائنات. فهو يقول : « أيها الكائن السرمدي ! اجمع حولي الجماهير الغفيرة من أشباهي ثم ليجرؤ أحد منهم فيقول : كنت خيراً من ذلك الرجل ٠ »

شارل لالو الذي اعتمدنا آراءه وتصنيفه للعقد النفسية الفنية التي تربط الأثر الفني بصاحب الأثر انما أخذنا الأمثلة الأجنبية عنه ٠

* * *

وثمة مفكر مشهور بالتحليل النفساني هو كارل غستاف يونغ حاول أن يوضح تفاوت صور الأثر الفنّي عن صور حياة المؤلف وذلك باعتبار تصنيفه أنماط الناس صنفين : المنبسط والمنطوي ٠ والمرء قد يكون من صنف ولا شعوره من صنف آخر بحيث تتلامح الصور للفنان من عميق لا شعوره فتختلف عن الصور الشعورية في نفسه ولا بأس أن نقف قليلاً عند هذا المؤلف البليغ وأن نلم ببعض آراءه الفنية ٠ المنطوي عنده يتجه نحو باطنه ويجنح نحو عالم ذاتي تعمره الذكريات والنزوات العاطفية الجامحة وهو لا يراعي الواقع وتنقصه المرونة في التصرف ٠ يحب الحياة التأملية ويقلب وجوه الرأي قبل الاقدام على العمل ٠ هو متئد متردد حييّ حذر ٠ قلما ينسجم مع الأحوال الجديدة الطارئة فعلاقته بالأشياء الخارجية سلبية في الغالب ٠ والمرض النفسي الذي يتعرض له هو الوسواس ٠ والمنبسط ينصرف نحو العالم الخارجي ، يتبيّنه ويتفهمه ، ويوفق بينه وبين مآربه ٠ فهو يراعي المقتضيات الخارجية والصروف والبيئة ، سريع الى العمل ،

قليل الانتظار ، تجذبه وتستحثه الحالات الطارئة والأشياء الخارجية ، يعمل ثم يفكر ، قليل التردد • فعلاقته بالواقع ايجابية والمرض النفسي الذي يتعرض له هو الهُراع (الهسترة) . وبين الشعور واللاشعور ، في رأي يونغ ، تتام وتعويض فاللاشعور عند المنطوي انبساطي ، وعند المنبسط انطوائي • وليس من اليسير معرفة الشخص من أي صنف هو اذ كان ذلك يتطلب دربة وخبرة • وتزداد هذه الصعوبة كلما اشتبكت وشائج الشخص مع لا شعوره • وهو ما يصح خاصة على معظم الأشخاص الذين لهم طبائع ومواهب فنية ولا سيما اذا قرنوا بآثارهم • فقد يكون الفنان في حياته من صنف نفسي وفي عمله الفني من صنف آخر • وهذا ما يحصل فعلا حين لا يصور ذو الفن في آثاره حياته التي يحياها ، بل هو يحلق في جواء تختلف عما يلقى ويمارس ويكابد ، كأن أثره يقدّم له تكملة لذلك أو عوضاً منه وبديلاً ، اذ ليس صحيحاً أن الأثر الفني يصور دائماً حياة صاحبه • وعلى العكس قد يعمد ذو الفن فيصور حياته وما يلقاه ويمارسه ويكابده فيها صادقاً أو بشيء من التسامي والصقل والتهذيب • وعندئذ يكون الفنان في ذاته وفي تأليفه معاً من صنف واحد ، كأن يعمد المنطوي فيصور خواطره وهواجسه وما يخالجه ويداخله من وراء أشخاص رواياته الذين يصفهم ويحلل نفسياتهم ، أو يعمد المنبسط فيصف مغامرات روائية هو بطلها • فالمنطوي اذ ذاك قد حملته دوافعه الذاتية العميقة على الكتابة للبوح بها وتخفيف عبئها عن نفسه أو لتوكيد مشاعره التي تعتلج في صدره • والمنبسط قد صاغ تجربته للمحيط الخارجي صوغاً فنياً وألّفها تأليفاً متناسباً جميلا •

ولما كان شعور الفنان ولا شعوره من صنفين متقابلين فقد تتلامح الصور من أعماق اللاشعور فتختلف عن الصور الشعورية كما أسلفنا آنفاً وقد تمتزج جميعاً • وثمة عند يونغ اللاشعور الجمعي زيادة على اللاشعور الفردي • واللاشعور الجمعي أوسع وأعمق من اللاشعور الفردي • فيه خلاصة تجارب النوع الانساني وتجارب القوم الذي ينتسب اليه الفنان وآثار البيئة التي نشأ فيها والأسرة التي تحدر منها •

ويقوم الابداع في مدى وعي حصوله على بعث الرموز الانسانية الخالدة المدفونة في غياهب اللاشعور الجمعي وعلى صوغها وتهيئتها واستكمالها حتى تبلغ

حد الامتاع والاعجاب · « وكان الذي يستعمل تلك الصور الأولى يتحدث بألف صوت ، ان جاز هذا التعبير · فهو يعي ويدبّر هذا الذي يتحدث عنه ناقلاً صفته المفردة الزائلة الى نطاق الدوام السرمد . انه يرفع المقدار الشخصي الى رتبة مقدار الانسانية ، مطلقاً في كل انسان هذه القوى النصيرة التي كثيراً ما أمدت النوع الانساني فنجا وعاش بعد دامس الظلام المتطاول · وفي هذا يكمن سر الفن · »

وقد يتصور فريق من الناس أن كمال الأثر الفني يقتضي كمال نفسية مؤلفه. وهذا خطل · لأن الفنان غالباً ما يكون موقفه من الرؤى والرموز والصور التي تطالعه من اللاشعور موقف المشاهد المتفرج أو المنفعل لا غير فينقلها نقلاً · وتجربته هذه لها قيمتها من الناحية الفنية ولكنها ناقصة من جهة تثقيفه نفسه الا اذا انتبه هو لشخصيته انتباهه لعمله الفني ، فآخذها بالتعهد والنشاط والصقل والابداع · وعندئذ يبلغ الى الذروة العليا · ولا يتهيأ هذا الكمال الا للصفوة النادرة من الناس، لأن قوة الانسان قلما تكفي لبلوغ الكمال الذاتي في شخصه والكمال الخارجي في آثاره الفنية معاً · (علم النفس عند كارل غستاف يونغ تأليف يولان ياكوبي) ·

★ ★ ★

لكن التحليل النفساني يغدو أعمق نفوذاً اذا تلمّس غور الأثر الفني وتبيّن قاعه واكتنه تركيبه وألمّ بعناصره · ولا بد من ذكر بعض الأمثلة ·

ذكر الفيلسوف الفرنسي غاستون بشلار في كتابه « الماء والأحلام » خلاصة بحث مدام بونابرت حين أبانت ابانة واضحة أن الصورة الرئيسية التي تسيطر على شاعرية ادغار بو انما هي صورة الوالدة في سياق الموت · جميع النساء اللائي أحبّهن بو أصنافاً من الحب انتزعهن الموت منه انتزاعاً · هيلين وفرنسيس وفرجينيا يجدّدن ألمه الأول ويوقدن ايقاداً جديداً نار أساه القديم · لقد طبع ذلك الألم بطابعه العميق نفس ذلك اليتيم الفقير الصغير · فالموت يبدو من خلال أشعار بو أمراً انسانياً مألوفاً · فهو ما يفتأ يصف الحياة بالموت · حتى المناظر الطبيعية انما يحددها الخيال الأساسي الذي تتلامح له فيه والدته وهي في نزع الموت · أليزابت والدته ، هيلين صديقته ، فرانسيس والدته بالتبنّي ، فرجينيا زوجته ، كل منهن تموت في سريرها بالسل · ولذلك نجد في شعره كل صفاء يدخل فيه الكدر ، وكلّ ضياء ينساب اليه الظلام ، كما يلحق البطء

والكدر والثقل الماء النابع الحيّ المتوثب. والأشجار في الغاب كأن وظيفتها انشاء ظلال سود • فهي أبداً تُعين الليل في اضفاء الظلام الأسود على الكون • كل شجرة تعطي في اليوم ظلاً كما تسقط أوراقها في السنة • يقول بو : « كنت أتوهم أن الظلال كلما هبطت الشمس أسفل فأسفل كانت تنفصل آسفة من جذوع الأشجار التي كوّنتها فيمتصّها ماء الجدول على حين تتكوّن ظلال أخرى من الأشجار في كل لحظة لتأخذ محالّ أخوتها السابقة المائتة • »

تبدو هذه الظلال اذن حيّة ما دامت متصلة بالأشجار • ولكنها لا تلبث أن تتركها فتموت أو لا تلبث أن تموت فتتركها • وهي تغوص في الماء لتُدفن فيه كأنما تُدْفَن منه في موت أشدّ سواداً من الموت نفسه •

ان اعطاء الشجرة كل يوم ظلاً يشير في هذا الاعتبار الى فكرة الموت المسيطرة التي اعتادها المؤلف وألِفَها • فالموت يبدو تاريخاً طويلاً مؤلماً مبرّحاً ، وليس قصة لحظة محتومة منقضية • انه نوع من الهزال أو الضنى الدائم الكئيب . والمؤلف الحالم تجاه الجدول يفكر في الكائنات التي تعيد الى البارىء وجودها شيئاً فشيئاً بعد أن استنفدت ببطء مادتها فانتهت الى الموت • فهي كهذه الأشجار التي تقدّم ظلالها الواحد تلو الآخر • والماء يشرب الظلال فيصبح أكثر سواداً بسبب هذه الفريسة التي يبتلعها (جزيرة الجنّيّات) •

صور العقل الباطن أو اللاشعور تبدو أقوى وأكثر سيطرة واستحواذاً عليه في قصصه • ولا غرو في ذلك لأن مجال القصة أرحب من مجال القصيدة •

لادغار بو قصة تدعى « مغامرات أرتور غوردن بيم » • وهي قصة سياحات وحوادث غرق مشحونة بتفاصيل عن حياة الملاحين ومكتظة بأفكار وملاحظات تدّعي العلم والمعرفة • وهي بجملتها ان اعتبرت من هذه الناحية الواعية أفضت بالقارىء الى الملل والبَرَم • ولكنها اذا أعتبرت من ناحية اللاشعور تبرز قيمتها حقاً وتغدو في طليعة روايات بو • انها ليست قصة حوادث واقعية ، ولكنها قصة مغامرات لا شعورية • هي تجري في غور النفس وتقع في غياهب العقل الباطن • تبدو كأنها حلم ليلي كامل • فهي بهذا الاعتبار من أهم كتب بو • هنا مثال قويّ وواضح على أهمية التوجيه الفلسفي في ابراز قيمة الأثر الأدبي • فلولا التحليل النفساني لصور هذه القصة لما كان لها أيّ مكانة • ولا يجوز للنقد الأدبي أن

يعتمد دائماً على الحدس العفوي ولا على الملاحظة الغريزية والا رجَــعَ الآثار الشعرية والأدبية الى تجربة معادة مكرورة بسيطة مغلقة لا حظَّ فيها للابداع • والنقد بذلك ينسى وظيفة الأدب والشعر الحقيقية التي هي اعطاء الكون وجهاً جديداً • وهذا الكون كله لا وجود له من الناحية الشعرية الا في طريق الخيال المتجدد المبدع •

انظروا الى هذه الصفحة الغريبة العجيبة التي تصف ماءً يعجز أيّ سائح في الأرض وأيّ جغرافي عن أن يكشف امنطقة وجوده على وجه الكرة الأرضية • ان الجزيرة التي فيها هذا الماء تقع على خط عرض ٢٠َ٨٣ْ وخط طول ٥َ٤٣ْ . ذلك الماء شراب جميع السكان المتوحشين في الجزيرة • تقول القصة : « بسبب خاصيّة هذا الماء رفضنا أن نتذوقه ظانّين أنه فاسد • ولم يمض وقت طويل حتى فهمنا أن جميع جداول الماء في الأرخبيل من ذلك النوع • لا أعرف كيف أُعطي فكرة واضحة عن طبيعة هذا السائل • ولن يتاح لي ذلك الا باستعمال كثير من الكلمات • فمع أن الماء يسيل بسرعة على جميع المنحدرات كما يسيل الماء الاعتيادي فليس له ظاهرة الصفاء التي للماء المعتاد الا عندما يتكسّر في الشلالات • وعلى الرغم من ذلك ينبغي أن أقول هو صاف كأي ماء كلسيّ موجود. ولكن الفرق ليس قائماً الا في الظاهر •

للنظرة الأولى وخاصة حين يكون الانحدار ضئيلا يشبه ذلك الماء في القوام محلولاً كثيفاً من الصمغ العربي في الماء الاعتيادي • وهذا أقل صفاته الغريبة أهمية • وليس عديم اللون ، ولا له لون واحد متجانس • وهو اذا جرى قدّم للعَيْنَيْن جميع صور الأرجوان كلمعان بعض أنواع الحرير المتبدّل وتوهّج ألوانه وانعكاساتها • واذا مَتَحْنا هذا الماء وملأنا به بركة وتركناه يستقرّ ويهدأ لجّه لمحنا أن كتلة السائل متألفة من عدد من الأوردة الواضحة • كل وريد ذو لون خاص • ولا تمتزج هذه الأوردة بعضها ببعض • وتماسك الذرات التي تؤلف الوريد تامّ من أجل هذا الوريد ، ناقص من أجل الوريد الآخر • ولو حاولنا أن نُمرّ نصلاً بين أجزاء الماء لوجدنا الماء يعود فيلتئم فوراً وراء النصل • وعند نزع النصل تنسدّ آثار مروره في الحال • ولكن اذا فصل النصل بين وريدين فان الفصل يتمّ ولا تتلافاه على الفور قوة التماسك • ان ظواهر هذا الماء كانت

الحلقة الأولى من سلسلة العجائب البادية التي كان ينبغي ان تحفّ بنا هناك مع الزمان . »

لقد ذكرت مدام بونابرت هذا النص وأضافت ببساطة انه ليس من الصعب علينا أن نجد من وراء هذا الماء صورة الدم . ولفظ الوريد قد ورد فعلاً ، وأن هذه الأرض التي تختلف عن جميع الأراضي المعروفة والتي كل شيء فيها غريب مريب غير متعارف ليست في الحقيقة الا أقرب الأشياء من الناس . تلك الأرض هي ذلك الجسم الذي غذّانا بدمه قبل أن يُغذّينا بلبانه . ذلك الجسم الذي حملنا تسعة أشهر . ان بو أراد أن يتخيّل ماءً غريب الصفات والخواص فاذا به يفضي لا شعوريّاً الى وصف الدم . ولا يرتاب مطالع كتب بو في أنّ نفث الدم الذي أدّى أول الأمر الى موت أمه ثم الى موت بقية النساء اللائي حمل لهن المودة والمحبة قد وسم بميسم عميق طول حياة الشاعر عقله الباطن . لقد كتب بو نفسه في الرواية : « لفظ الدم هو اللفظ الأعلى ، هو ملك الألفاظ المشبع بالسر أبداً وبالألم والهلع. كم بدا لي عندئذ مضاعف المعنى ثلاث مرات ! وكيف كان هذا المقطع الدم BLOOD حين ينفصل عن سلسلة الكلمات السابقة التي تنعته وتميزه يسقط ثقيلاً وبارداً في أقصى أغوار نفسي بين غياهب السجن الذي كنت فيه . »

* * *

أبو العلاء المعري من بيت عربي أصيل فهو تنوخي ومن بيت علم وفضل . يقول ياقوت : : « كان في آبائه وأعمامه ومن تقدمه من أهله وتأخر عنه من ولد أبيه ونسله فُضَّل وقضاة وشعراء . له أخوان أحدهما محمد أبو المجد والثاني عبد الواحد أبو الهيثم وكلاهما شاعر . أما أبوه فهو قاض بالمعرة وهو عالم وهو شاعر .

في الرابعة من عمره أصابه الجدري فذهب ببصره . فحدب عليه أبوه وهو أول معلّم له . كان برّاً به وشفيقاً عليه لصغره ومحنته . ومع ذلك فالدنيا دار بلاء ، ولم ينعم هذا الولد الذكي الحساس بأبيه اذ مات أبوه والصبي في الرابعة عشرة من عمره فأحس الفتى كأن الدنيا مادت تحت قدميه حين فقد أباه وعماده ومعلمه . ولم يكن شيء يخفف برحاءه سوى الشعر فنظم قصيدة اذ ذاك يرثي أباه بها تنمّ على ملكة شعرية وعلى معرفة واسعة ومبكرة باللغة وبيانها كما تنم على فجيعة الولد الذي سيحمل الحزن فيه طول حياته حتى يلقاه في الآخرة :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني الا عبوس من الدجن
فليت فمي اذ شام سني تبسمي فم الطعنة النجلاء تدمى بلاسن
أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل رماح المنايا قادرات على الطعن
مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى وسهد المنى والجيب والذيل والردن

* * *

فيا قبر واه من ترابك لينا عليه وآه من جنادلك الخشن
لأطبقت اطباق المحارة فاحتفظ بلؤلؤة المجد الحقيقة بالخزن
فهل أنت ان ناديت رمسك سامع نداء ابنك المفجوع بل عبدك القن
سأبكي اذا غنّى ابن ورقاء بهجة وان كان ما يعنيه ضد الذي أعني
ونادبة في مسمعي كل قينة تغرد باللحن البريء من اللحن
وأحمل فيك الحزن حياً فان أمت وألقك لم أسلك طريقاً الى الحزن

ثم شبّ الفتى وسافر يطوف حلب وانطاكية واللاذقية وطرابلس ليطّلع على مكتباتها وليتصل بعلمائها وشيوخها. ثم ها هوذا يقصد بغداد ويقيم بها سنة وسبعة أشهر يحضر فيها مجالس المفكرين والعلماء واللغويين والأدباء • وهو في غربته يشعر بحنين خفي يشدّه الى المعرة حيث الكنز الثاني كنز المحبة ، قلب أمه العجوز • وفي أصيل يوم ربْعِيّ جلس في بهو المكتبة التي أنشأها نصر سابور بن أردشير وزير الملك بهاء الدولة بن عضدالدولة وكانت تضم نحو اثني عشر ألف مجلد ، فترامى الى سمعه ترجيع ورقاء تسجع على فَنَنٍ مزهر ، فزاد ذلك شجوه ، وكأنما شعر بهاتف يهتف به للرجوع الى موطنه • فقال قصيدته المعروفة بين الأدباء منها :

وغنّتْ لنا في دار سابور قينة من الوُرق مطراب الأصائل ميهال
رأت زهراً غضاً فهاجت بمِزْهَرٍ مثانيه أحشاء لطفن وأوصال
فقلت تَغَنَّيْ كيف شئت فانّما غناؤك عندي يا حمامة إعوال

وهي تدلّ على شجو مكظوم · فالورقاء ميهال أي آهلة مستوطنة وهو يكابد الغربة · وهي ترجّع فرحة ولكن ترجيعها في سمعه يبدو اعوالاً ·

وفي هذه القصيدة يأسى على الزمن الذي أمضاه بعيداً عن بلده :

فيا وطني ان فاتني بك سابق   من الدهر فَلْيَنْعَمْ بساكنك البال

ولكن هيهات للساكن المقيم أن ينعم باله فكيف بالمسافر الغريب : لقد مرضت أمه وأرسلت اليه تستدعيه فخفّ الى الرجوع ، غير أنها تُتَوفَّى قبل أن يصل. توفيت وهو في الخامسة والثلاثين من عمره · ووفاة الأم من أصعب الأرزاء فكيف في نفس الفتى الضرير العازب الحساس · نكأ الموت جرحه القديم فاستشفّ عمق بلاء الحياة الدنيا · ولذلك يوطّن نفسه على كظم نزعاتها وعلى لزوم بيته · يا له رهين المحبسين بل رهين السجون الثلاثة :

أراني في الثلاثة من سجوني   فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي   وكون النفس في الجسد الخبيث

وتبلغ به رهافة حسّه وعمق ألمه أن يتحامى كل أذى يصيب به كائناً ما كان ويتحامى أيضاً أن يطعم طعاماً من أصل حيواني · ولا شيء عنده ذو خطر في هذه الحياة الدنيا التي يدعوها « أم دفر · »

لقد عُمِرَّ أبو العلاء ولكنه ما زال يشعر بألم الجرح الأول وفاة والده الذي نكأه الجرح الثاني وفاة والدته · فهو في اللزوميات على أواخر حياته يقول قطعة شعرية على وزن تلك التي قالها في صباه اذ يرثي بها والده يخاطب الدنيا فيها وكأنه يتحدّى رغباتها في اتصال الذرية والنسل · فهي لن تؤذي له نسلاً كما آذته وجارت عليه في أبيه وفي بصره وفي نفسه :

فان تحكمي بالجور فيّ وفي أبي   فلن تحكميه في بناتي ولا في ابني
وأوقدت لي نار الظلام فلم أجد   سناك بطرفي بل سنانك في ضِبْنِي

* * *

تلك العقد النفسية الفنية الخمس وأمثالها من هيمان الشعراء والفنانين في فجاج وأودية شتى كما يوضح التحليل النفساني والبحث الموضوعي لا تكون

منفصلة بل هي على الغالب مختلطة متشابكة وبمقادير مختلفة • وقد أشار اليها القرآن الكريم بألطف اشارة وأنعم عبارةولكنه مع الاشارة نبّه على لزوم السبيل الأقوم والطريق الأسلم : « والشعراء يتّبعهم الغاوون • ألم تر أنّهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون. الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظُلموا وسيعلم الذين ظلَمُوا أي منقلب ينقلبون » (الشعراء ٢٢٤ ـ ٢٢٧) • ذلك أن الشعراء والفنانين كغيرهم من البشر واقعة عليهم المسؤولية •« وقفوهم إنهم مسؤولون » (الصافات ٢٤) • بل تقع عليهم المسؤولية أكثر منها على غيرهم • فينبغي بما وهب لهم من مواهب فنية أن ينتصروا على الظلم . أو ليست الفنون كلها حاصلة عن حاستي السمع والبصر العقليتين الفنيتين يمدهما من ورائهما القلب والفكر ؟! « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا • » (الاسراء ٣٤) •

لقد أدرك الخلفاء الراشدون بثاقب بصيرتهم ونور عقيدتهم هدف الشعر اذ ذاك • فلم يحفلوا منه الا بما يخدم المجتمع الجديد ويوطّد دعائمه ، وصدفوا عن كل انحراف أو ضلال فيه • ولعل الطرفة الآتية تظهر ما نقصده :

« استعمل عمر (بن الخطاب) النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان ، فبلغه عنه الشعر الذي قاله وهو :

ومن مبلغ الحسناء أن خليلها[٤] — بميسان يُسقى من زجاج وحنتم
اذا شئتُ غنتني دهاقين قرية — وصناجة تجذو على كل منسم[٥]
فان كنت ندماني فبالأكبر اسقني — ولا تسقني بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه — تنادمنا بالجوسق المتهدم

فكتب اليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم • حم • تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم • غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) •

---

٤ ـ يروى أيضا حليلها •
٥ ـ في الأصل يحدو وهو تصحيف • ومعنى تجذو ترقص قائمة على أطراف اصابعها •

أما بعد فقد بلغني قولك : لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... البيت . وايم الله إنه ليسوؤني . فاقدم فقد عزلتك . فلما قدم عليه ، قال : يا أمير المؤمنين ! والله ما شربتها قط ، وانما هو شعر طفح على لساني ، واني لشاعر . فقال عمر : أظن ذاك ، ولكن لا تعمل لي على عمل أبداً . »[٦]

ان الشاعر قد دافع عن نفسه أمام عمر بكونه شاعراً ، وللشاعر متسع في القول ، فهو قد يقول ما لا يفعل ؛ ولا يلزم من وصفه أمراً أو تغنّيه به وقوع هذا الأمر . وعمر يعلم ذلك حق العلم وإلا لأقام عليه الحد ، ولكنه كان يرى في الشعر على حد تعبيرنا اليوم «الالتزام» الايجابي ولا سيما بالنسبة الى والٍ مسؤول ينتهج مثاله وتحتذى شمائله . كان عمر يرى لزوم اقتران الجمال والخير معاً والصدوف عن الفضول وعما لا خير فيه ولا نفع . كان متحسساً لأعباء المجتمع الجديد ، متشوفاً الى آفاقه ومراميه البعيدة .

* * *

لا أكون قلت كل الذي أريد ان وقفت عند هذا الحد من تحليل العلاقات بين الشاعر وشعره ، بين ذي الفن وفنّه ، اذ لا بد من أن أختم هذا البحث بالتطور الكبير الذي طرأ على النظرة الاجتماعية الى الفن والى صاحب الفن ، وهو تطور يذكّر بموقف عمر بن الخطاب ذاك وبوجوب فهم الشاعر أو الفنان لرسالته . ذلك أن الفن غدا بأنواعه المتعددة سلاحاً في يد صاحبه وفي يد المجتمع . ان الانسانية كلها في تطور عميق . وعلى الفن وذويه أن يعوا هذا التطوّر وأن يساعدوا في مضمار النضال القومي والانساني للتحرر الراقي ومقاومة الاستغلال ومناوءة الاجتياح وأن يهيئوا ولادة انسانيةٍ جديدة مُثْلى يكون الانسان فيها حرّاً وأخاً للانسان وذلك في سبيل التقدم الصحيح والتعاون السليم وبناء الدنيا بناءً جديداً كريماً يليق بمزايا القلب والفكر الانسانيين .

ان الفن بسعة تاريخه وتنوع اتجاهاته وكثرة تجاربه وبعد مراميه كالخضمّ الغامض الأعماق ، المنفسح الأرجاء والآفاق والممتد بالجهد والالهام بين الأرض

٦ – شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة ج ٣ ص ٩٨ ،جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة ، جمع أحمد زكي صفوت ج ١ ص ٢٨٢ .

والسماء . وكم في عباب هذا الخضم من لآلىء ثمينة وتجارب واعظة وأمانيّ مستشرفة .

ألا ان ماضي الفن يحكم حاضره ويوجه مستقبله .

والخلاصة أن الفن اذا شبهناه بالنور نريد أن يكون كشعاع الليزر أداة تقوى على تدمير الفساد وذريعة صالحة لشفاء العلل ووسيلة طريفة الى الابتكار والتقدم .

الفن كالنور إن تشرق مباهجه — على النفوس غدت أيامها رغدا

وأمْتَعَ النورِ ما جَلَّت أشعته — سُجُفَ الظلام وزاد العالمين هدى

الفن كالليزر الوقّاد عنصره — فيه الشفاء وفيه للفساد ردى

لولا الجمال ولولا الفنّ ما خشعت — شمس الغروب ولا رف الصباح ندى

ولا سَبَتْ مقلة حوراء فاتنة — قلباً ولا شاق نجم في الدجى أحدا

الفنّ والعلم والأخلاق موكبها — أسُّ الحضارة للانسان مذ وجدا

عبد الكريم اليافي

* * *

النُحاة وحُروفُ الجرّ

صلاح الدين الزعبلاوي

هذا بحث طريف ، حاجة الكتّاب اليه ماسة ملحة، وهم اذا أصابوا فيه حظاً وظفروا منه بطائل وتعلقوا بسبب وثيق ، كان لهم من ذلك مادة قوية في ممارسة الكتابة واتقانها ، وعون وظهير في تصريف المعاني وتوجيه دلالاتها ، وسوقها متناسقة متناظمة ، دون لبس أو خلل. وقد جاء للمتقدمين وكثير من المحدثين المتأخرين من هذا النمط ما لا يدافع في حسنه. واذا هم أخلّوا بالأصل المعوّل عليه في استعمال هذه الحروف وعبثوا بضوابطها فجروا على غير العرف العربي في تصريفها أسخفوا بالكتابة وانحطوا بها الى ركاكة العامة ،فطال الخطب في ذلك وعسر واستوسع الوهي وكثر،وكان لنا منه أمثلة غثة باردة هي أشبه شيء بالثياب المتداعية كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر .

ولا بد في بلوغ الغاية في هذا المطلب من اعمال الفكر وتدقيق النظر ، وبذل الطوق في تحصيل ما يتصل بجوانب البحث ، اذ لامجال لتحقيق المراد منه بأهون سعي وأقرب طلب . وليس القائل في هذا بعلمه واجتهاده كالقائل بظنه وتقليده .

وقد عقدت في كتابي (مسالك القول في النقد اللغوي) فصلا سابغاً أفضت فيه بعض الافاضة في استيفاء طرف من الأصول في هذا الباب ، ورأيت ان أتدارك هنا ما جمعت يدي عليه من دقائق ، فيما اتفق لي بعد ذلك من تحقيق ، واعترض من تمحيص واستقراء . ولو شئت لأوردت منه شيئاً كثيراً تضيق عنه هذه الأوراق .

ضوابط في استعمال الحروف :

قال أبو نزار المعروف بملك النحاة ،على ما حكاه الامام السيوطي في الأشباه والنظائر (١٧٦/٣) ، وأبو نزار هذا امام بارع من فقهاء الشافعية ، ذو نظم ونثر ، له مصنفات

في النحو والصرف والقراءات والفقه والأصول وديوان شعر (مولده ببغداد ووفاته في دمشق ٥٦٨ هـ) قال : (**ان الفعل قد يتعدى بعدة من حروف الجر على مقدار المعنى اللغوي المراد من وقوع الفعل، لأن هذه المعاني كامنة في الفعل ، وانما يثيرها ويظهرها حروف الجر**) وأردف (وذلك أنك اذا قلت خرجت فأردت أن تبين ابتداء خروجك قلت خرجت من الدار ، فان أردت أن تبين أن خروجك مقارن لاستعلائك قلت خرجت على الدابة ، فان أردت المجاوزة للمكان قلت خرجت عن الدار ، وان أردت الصحبة قلت خرجت بسلاحي فقد وضح بهذا أنه ليس يلزم في كل فعل ألا يتعدى الا بحرف واحد) ٠

فثبت بهذا أن الفعل يصرّف في وجوه عدة بقدر من حروف الجر أطرد تصريفها فيها ٠ وقد أحاطت كتب اللغة بوجوه تصريف كل حرف فاستعمل فيها ، على جهة القياس والاطراد ٠ تقول في تصريف (أجاب) : (أجبت في الكتاب ، وبالكتاب ، وأجبت عنك ، وعلى ورقة بيضاء ، ولأمر مهم ، وعن الأسئلة ، من أولها الى آخرها) ٠ كما أحاطت المعجمات بتصريف الأفعال في معانيها فنصت على تعديتها بحروف لا يتحكم بها قياس ظاهر، كقولك (أعنتك على عدوك ، وتدربت على العمل ، وحزنت عليه وغضبت ، وحسدتك على كذا ، وتوفرت على صاحبي ، وارتحت اليه ، واعتذرت اليه ، وأنست به ورغبت فيه) وهكذا ٠ فاذا جمعت القياس في استعمال هذه الحروف على ما نصت عليه كتب اللغة عامة ، الى السماع فيما نصت عليه المعجمات خاصة ، أقول اذا ضممت يدك على هذا وذاك، كان لا بد أن تلحظ أن تصريف الفعل بحرف من الحروف انما يفرده بمعنى لا يؤديه تصريفه بحرف آخر ، وان داناه أحياناً ، لأن لكل حرف وجهة اختص بها دون سواه ٠

لكل حرف وجهة خاصة :

يقول أبو البقاء الكفوي في كلياته فيما نحن بسبيله (**الفعل المتعدي بالحروف المتعددة لا بد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر ، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف ٠ فان ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو رغبت فيه وعنه ، وعدلت اليه وعنه ، وملت اليه وعنه ، وسعيت اليه وبه ٠ وان تقارب معاني الأدوات عسر الفرق ، نحو قصدت اليه وله ، وهديت الى كذا ولكذا ٠ فالنحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر ٠ أما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره ، فينظرون الى الحرف وما يستدعي من الأفعال ، وهذه طريقة امام الصناعة : سيبويه**) ٠ وأبو البقاء من تعلم تبسطاً في العربية واستبحاراً وايغالا في البحث ، وسعة اطلاع ٠

ويفسر ما جاء به أبو البقاء من تمايز وجهات الحروف ولو تدانى بعضها وتعاقب على معنى ، قول البيضاوي في تفسير قوله تعالى (قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق، قل الله يهدي للحق ـ يونس/٣٥) : (وهدى كما يتعدى بالى لتضمينه معنى الانتهاء ، يُعدّى باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية ، وأنها لم توجه نحوه على سبيل الاتفاق ، ولذا

عُدّي بها ما أسند الى الله) ۰ والموضع الذي عُديت فيه الهداية باللام في التنزيل هو ما صح أن يكون المهدي اليه فيه غاية الهداية حقاً ، كالايمان ، والتي هي أقوم ۰ ونورالله، والحق ، وهكذا ۰۰

اللام والى :

فالقريب المختار ، بل الأصل على هذا، هو التفريق في الأداء بين (اللام والى) ،واذا كان بعض الأئمة قد قال بتعاقبهما حيناً ،كمافعل الأخفش والزجاج والزمخشري وأبو حيّان ، أو ذهب الى تعاقبهما قياساً ، كمافعل الامام المالقي فذلك لتقاربهما وتماثلهما في كثير من المواضع۰ قال المالقي في كتابه(رصف المباني في شرح حروف المعاني) ۰ (والموضع الخامس أن تكون اللام بمعنى الى ، وذلك قياس ، لأن الى يقرب معناها من اللام،وكذلك لفظها) ، ثم استدرك فقال : (وان كان بينهمافرق من حيث ان الى لانتهاء الغاية ، واللام عارية عنها) وأردف : (فاستعمال احداهمافي موضع الآخر جائز) وأنت تعلم أن اغناء أحد الحرفين عن الآخر لا يعني أنهما على معنى ۰ وهذا ما حمل أبا البقاء أن يقول : (ثم ان فعل الهداية ، متى عُدّي بالى تضمن الايصال الى الغاية المطلوبة فأتى بحرف الغاية ۰ ومتى عُدّي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب) ۰

القول في تعدية (اعتذر)

الاعتذار كما لا يخفى هو الاتيان بالعذر وطلب قبوله ۰ قال صاحب المفردات : (واعتذرت اليه أتيت بعذر) ، والعذر كماجاء في اللسان : (الحجة التي تعتذر بها) أي تحتج۰ ففي الألفاظ الكتابية لعبدالرحمن بن عيسى الهمذاني (اعتذر وتعذر اذا احتج) ، فاذا أنت أدليت بعذرك الى صاحبك وطلبت قبول العذر قلت (اعتذرت الى فلان)۰ ولا تستطيع أن تقول (اعتذرت عن فلان)حتى يكون اعتذارك نيابة عنه۰ قال المرزوقي في شرح الحماسة (١١٧) : (حتى ان بعضهم اعتذر عمن مات على فراشه فقال :

بحمدِ مَن سِنانُكَ لا بذمٍ ... أبا قُرّانَ مِتَ على مِثالِ)

والمثال : الفراش ۰

أما اذا أردت الكشف عن سبب اعتذارك وما حملك عليه ، فأنت تقول (اعتذرت اليه من تقصيري) هذا هو الأصل ، وعليه نص المعاجم ، ولكن هل تقول (اعتذرت اليه عن تقصيري) ؟ أقول ما دمت تقصد بقولك(عن تقصيري) ذكر (سبب الاعتذار وعلّته) وما حملك عليه ، فالكلام سائغ مستقيم ۰وقد مرّت به المعاجم وجرت عليه ألسنة الأيمة۰ قال الفيومي في المصباح : (واعتذر الي :طلب قبول معذرته ، واعتذر عن فعله :أظهر عذره) ۰ وجاء في الافصاح ، والافصاح خلاصة المخصص لابن سيده وبعض المظان المعتمدة (العذر ما أدليت به من حجة لاسقاط الملامة ۰۰ عذر فلاناً فيما صنع يعذره عذراً ومعذرة ، وأعذره : رفع اللوم عنه، واعتذر اليه : طلب قبول معذرته ، واعتذر عن فعله ومنه : أظهر عذره/ ٢٥٥) ۰

أما استعمال الأيمة له فقول ابن جني في الخصائص (٤١٥/١) : (ويؤكده لك أننا نعتذر لهم عن مجيئهم بلفظ المنصوب في التثنية على لفظ المجرور) ، أي نعتذر عن فعلهم هذا • وكذلك قول المرزوقي في شرح الحماسة (١٢٦) : (كالاعتذار عن الأخذ بالفضل عليهم ، وترك الصفح عنهم) • وماجاء في المثل السائر لنصرالله بن الأثير الجرزي (٤٦٣) : (فان هذا من أحسن ما يجيء في باب الاعتذار عن الذنب) • وما جاء في اللسان (في عسق) : (هذا قول ابن سيده، والعجب من كونه لم يعتذر عن سائر كلماته)• وقد كرر هذا فقال : (ومن الممكن أن يكون ابن سيده ، رحمه الله ، ترك الاعتذار عن كلماته •• وعن لفظة : شانئي •• واعتذر عن لفظة عَسقني) • واتفق في الأشباه والنظائر ـ ١٦/٤) من كلام الامام جمال الدين بن هشام الأنصاري ما عدّى به (اعتذر) ب (عن) غير مرة ونحو هذا كثير في كلامهم •

مواضع استعمال (عن) :

ولكن لِمَ كان النص في المعاجم على تعدية الفعل ب (من) غالباً دون (عن) ؟

الذي عندي أن التعدية ب (عن) قياسية فيما احتيج فيه الى بيان العلة والسبب• فأنت تقول (قد تسبب هذا عن هذا) • قال الفيومي : (وهذا مسبب عن هذا) وقد تكرر ذلك في كلام ابن جني في الخصائص (١٦٠/٣) ، كما تقول (اعتللت بمرضي عن غيابي ، أي احتججت بهذه العلة• قال الفيومي (واعتلّ اذا تمسك بحجة ، ذكر معناه الفارابي) • وقال ابن جني (٢٠٦/٣) : (واعتل لهذا القول بأن ما قبلها ساكن) •

قال الأستاذ محمد علي النجار في كتابه (لغويات / ١٤٢) ، (وقد استعملت العلة أيضاً في العذر ، ويعتذر به الانسان عن لوم يوجه اليه في التقصير في بعض الأمر) • وقال: (ومما يؤنس لما نحن فيه أنه ورد الاعتلال في ذكر العلة ، ويقول الفارابي ، على ما في المصباح : اعتلّ اذا تمسك بحجته ، وقال أبو قيس بن الأسلت :

وتكرمها جاراتها فيزرنها ... وتعتلّ عن اتيانهن فتعذر
وليس بها أن تستهين بجارة ... ولكنها منهن تحيا وتخفر

فقوله : تعتل عن اتيانهن أي تعتذر بذكر وجه تخلفها عن زيارتهن فظهر أن التعلل في معنى ذكر العلّة ، له وجهه الصحيح) •

وقد ذكر النحاة من معاني (عن) المطردة : (التعليل) ، قاله صاحب المغني (١٢٧/١) ومثّل له بقوله تعالى (وما كان استغفارهم لأبيه الا عن موعدة ـ التوبة / ١١٥) • وفي الهمع للسيوطي (٢٩/٢) مافي المغني • وفي شروح الألفية وغيرها من الأمهات نحو من ذلك وانظر الى ما جاء في أمالي المرتضى حول تخريج قوله تعالى (فخرّ عليهم السقف من فوقهم ـ النحل/٢٦) قال المرتضى (٣٥١/١): (قيل في ذلك أجوبة

أولها أن يكون على معنى عن فيكون ـ فخرعنهم السقف من فوقهم ـ أي خرّ عن كفرهم وجحودهم بالله تعالى وآياته، كما يقول القائل: اشتكى فلان عـن دواء شربـه ، وعلى دواء شربه ، فيكون على وعن ، بمعنى من أجـل الدواء) ! ٠

واذا صح هذا فلِمَ لا نقول (اعتذرت اليـه لغيابي) واللام فيـه للتعليل أيضاً ؟ والجواب عـن ذلك : نقولـه ، وقد أجريت اللام في مجراها ووضعت موضعها ، والكلام صحيح لا شَين فيه ٠ ففي محاضرات الأدباء للراغب (٤٥٠) : (المعتذر لتركه الصلاة) ومعناه (المعتذر بسبب تركه الصلاة) ٠ وقد تكرر ذلك في المحاضرات فجاء فيه (٢٨٦): (المعتـذر للقصر) و (الممدوح بالخفـة والمعتذر للنحافة)، وعلى هذا نقول (اعتذرت لغيابي يوم الجمعة) ٠ وهو مستقيم ٠

المانعون لقول القائل (اعتذر عن التقصير):

منع الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العلمي العراقي ، رحمه الله في كتابه(دراسات في فلسفة النحو) قول القائل (اعتذر عـن التقصير والذنب) وجعـل صوابـه (مـن التقصير والذنب) ، وأتى بشواهد من نصوص المعاجم وكلام الأيمـة ، بمجيء التعديـة بـ (من) ٠ وقال : (وانما تستعمل عن مـع اعتذر ومصدره لافادة معنى النيابة ، يقال : اعتذر زيد عن عمرو من الذنب الذي جناه أو من تقصيره ٠٠) ٠ أما ما جاء في المصباح (واعتذر عن فعله : أظهر عذره) فقد ذهب جواد الى أنه محرّف ٠

أقول في الجواب عـن ذلك ان صاحب المصباح لم ينفرد بهـذه التعدية كما رأيت ، وليس ثمة ما يوجب الارتياب بنصه ، وأما قول جواد (وانما تستعمل عن لافادة معنى النيابة) فهو صحيح ، ولكن اذا دخلت (عن) على (من وجب عليه الاعتذار) لا على (سبب الاعتذار وعلته) وهذا واضح وقد أشرنا اليه ٠

المجيزون لقول القائل (اعتذر عن التقصير):

جاء في المعجم الوسيط ، معجم المجمع القاهري : (ويقال اعتذر من ذنبه وعن فعله)، فهل أراد أن يخص الذنب بـ (من) ، والفعل بـ (عن) ؟ أقول اذا أراد ذلك فلا وجه لـه البتة ، واذا لم يعنِ ذلك فما الذي حمله على أن يحكي بالحرف عبارة الجوهري (الاعتذار مـن الذنب) ويضم اليهـا عبـارة المصباح (واعتذر عن فعله) فيجمع بينهما ويوهم أن (من) في استعمال الفعل غير (عن) ؟ وقد كان الأمثل أن يطبع على غرار الافصاح فيقول (واعتذر عن فعله ومنه) أو (واعتذر من ذنبه وعنه) ٠

وعرض الأستاذ محمد العدناني لتعدية (اعتذر) في معجمـه (الأخطـاء اللغويـة الشائعة) فأقر تعدية الفعل بمن وعن لذكر العلة ، لكنه عطف الأمر على (انابة حرف مكان حرف) وليس ثمة (انابـة) ، وانما أجري كل حرف مـن الحرفين المذكورين في مجراه ووضع موضعه ٠ ثم أنكر قول القائل (يعذُر) بالضم كينصُر ، وجعل صوابـه

(يعذر) بالكسر كيضرب • قال (ويقولون: يعذُر فلان صديقه فيما صنع ، بالضم ، والصواب يعذِر صديقه بالكسر ••) •

أقول : جاء الفعل على (يعذِر) كيضرب ، وعلى (يعذُر) كينصر • قال ابن سيده في المخصص (١٣/٨١) : (عذرته أعذُره عذراً ومعذرة بالفتح حكاها سيبويه ••) فضم الذال في (أعذُره) وكسرها • وقال ابن منظور في اللسان (وعذره يعذُره فيما صنع عذراً ••) فأتت الذال في مضارع الفعل مضمومة ومكسورة أيضاً • فقول الكتاب (يعذُره) بالضم صحيح كما رأيت ولا وجه فيه للتخطئة •

تعدية (اعتذر) بعلى :

أقول اذا كان (اعتذر) قد جاء بمعنى (احتجّ) كما ذكره الهمذاني في الألفاظ الكتابية فقال (اعتذر وتعذر اذا احتجّ) وكان (العذر) كـ (الحجة) على ما جاء في اللسان (العذر : الحجة التي تعتذر بها) فقد اتفق أن عدّي (اعتذر) بـ (على) كما يُعدّى (احتجّ) فأنت تقول : (اعتذرت على فلان بعذر) كما تقول (احتججت عليه بحجة) ، فانظر الى قول منصور بن مشحاج :

ومختبطٍ قد جاء ، أو ذي قرابةٍ فما اعتذرتْ ابلي عليه ولا نفسي

قال المرزوقي في شرح الحماسة (١٦٧٥) : (فلا نفسي احتجزت عنه بمنع ولا ابلي اعتذرت عليه بعذر ، كأن عذر الابل تأخرها عن مباءتها ، أو ذكر وقوع آفة فيها أو تسلط جدب عليها ، واحتجاز النفس : بُخلها بها واقامة المعاذير الكاذبة دونها وما يجري هذا المجرى) • وأصل الاختباط في الورق تقول اختبطت الورق اذا نفضته من الشجر ، وكما يستعار الورق فيُكنّى به عن المال يستعار الخبط فيكنّى به عن طلبه •

القول في تعدية (كشَف)

قال الدكتور مصطفى جواد في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف ••) ينتقد على كاتب بعض كلامه : (وكشف كنوزها •• ونظامها البديع ، وقد أراد الكشف عن كنوزها • ومن العجب أنه قال قبيل ذلك : وكشف فيه عن سعة اطلاع ، فسوّى بين كشف عنه وكشفه) •

أقول أراد الأستاذ جواد أن (كشفه) غير (كشف عنه) • فالكشف انما يكون (للساتر) وهو الغطاء أو ما يقوم مقامه ، فالغطاء هو المكشوف • أما المكشوف عنه فهو (المستور) أو ماينوب منابه • قال (والأصل كشف الغطاء أو الستار أو الحجاب) وأردف (والجملة الثانية – أي كشف عنه – أريد بها ازاحة ما يستُر ، عن الشيء المستور حسب) ، فما صواب المسألة ؟ •

الأصل في معنى (كشف عنه) :

لا خفاء بأن الأصل في الكشف هو ازاحة الغطاء أو الستار ورفعه عن المستور · تقول (كشف الخمار عن الوجه) و (كشفت الغطاء عما وراءه) · قال صاحب العين (الكشف رفعك عن الشيء ما يواريه ويغطيه) · فتعدية الفعل الى (الغطاء) أو (الحجاب) انما يكون بنفسه ، والى (المستور أو المحجوب) بـ (عن) ·

وقد يطبق الغطاء على الانسان فيغمره ويثقل عليه ويشتد ، كالهم اذا غشي الانسان فاحتواه ، بل عظم عليه وشق ، فتقول فيه :(جلوت الهمَّ عنه وسرّيته ، بل كشفت عنه السوء أو الضر أو العذاب ، وعلى هذا الحدا آي التنزيل : (لئن كشفت عنا الرجز ـ الأعراف / ١٣٣) و (فلما كشفنا عنه ضرّه ـ يونس/١٢) و (كشفنا عنهم العذاب يونس / ٣٨) ·

وقد يُلمّ بالانسان ما يحجب عنه النظر كشاغل من غمرة فيذهب ببصره كل مذهب، قد فسّر به قوله تعالى : (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ـ ق/٢٢) · قال الامام البيضاوي :(الغطاء الحاجب لأمور المعاد وهو الغفلة الإنهماك ·· وقيل الخطاب للنبي ﷺ ،والمعنى كنت في غفلة من أمر الديانة ،فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن ،وبصرك اليوم حديد ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون) ·

ومما قيل على حد (كشف الغطاء) قول أبي علي المرزوقي في شرح الحماسة ١٠٦٠) : (ثم كشفت الغمة وأثبت الحجة بكلام فصيح لا يلتبس) أي رفعت الغمة عنه وحتها) وقوله (١٠٩١) : (فتركت بعدها دواهي وخطوباً عظيمة هي في أغطيتها م تظهر ولم يكشف عنها) ، أي لم يكشف عنها غطاؤها ، وقوله (١٠٩٣) : (فتذكر معايبهم وتكشف عن مستور مخازيهم ومجهول مقابحهم ومساويهم) أي تكشف عنها ما كان يحجبها ، وقوله (٧٦٠) : (تندم على ما قصّر فيه من النظر والفحص والكشف عن عقبى الأمر) · وقول الخفاجي صاحب سرّ الفصاحة(٣١) : (وذلك أليق بالمتكلمين الذين هم أصحاب التحقيق ، والكشف عن أسرار المعلومات وغوامض الأشياء) أي كشف الغطاء عما طُوي عن فهم الناس ·

الأصل في معنى (كشفه) :

اقول اذا اتفق قول صاحب العين (الكشف رفعك عن الشيء ما يواريه ويغطيه) كما حكاه ابن سيده في المخصص (١٤٤/١٣) ، فقد أردف : (وكشفت الأمر أكشفه كشفاً : أظهرته) · وحكى ابن سيده عن أبي زيد أيضاً (جلوت الأمر وجلّيته وجلّيت عنه : كشفته وأظهرته ، وقد انجلى وتجلّى) · وقال ابن منظور في اللسان : (وكشف الأمر يكشفه كشفاً : أظهره) ·

وهذا يعني أن للفعل منحى آخر يتعدى فيه بنفسه الى (المجهول أو المخفي) ، تقول: (كشفت الأمر اذا جلوته وأظهرته) . فاذا كان (كشف الغطاء عن المجهول) هو الأصل، فكيف تفرّع عليه هذا ؟ .

أقول : الأصل قولك (كشفت الحجاب عن المجهول) ، ولك أن تقول : (كشفت حجاب المجهول) ، فاذا عرفت أن (الحجاب) يلازم (المجهول) ، واعتذرت بهذا فاستغنيت عنه بذكر (المجهول) حذفت المضاف فقلت (كشفت المجهول) اذا أظهرته . وأكثر ما يكون الاستغناء عن (الحجاب) أي المضاف ها هنا ، اذا كان الحاجب دون المجهول هو الغموض والخفاء والجهل والضياع ، فيكون معنى كشف المجهول هو الاهتداء اليه واظهاره. وحذف المضاف في القرآن والشعر وفصيح الكلام في عدد الرمل سعة ، أستغفر الله ، وربما حذفت العرب المضاف بعد المضاف مكرراً أنساً بالحال ودلالة على موضوع الكلام ، كما قال أبو الفتح (المحتسب ـ ١٨٨/١) . فعلى هذا قول ابن جني في المحتسب (٢٣٩/١) : (وكشفت هذا الموضع يوماً لبعض ما كان له مذهب في المشاغبة) . وقول جُزَيبة الفقعسي :

هم كشفوا عيبةَ العائبين ... من العارِ أوجُهُهم كالحُمَم

قال المرزوقي في شرح الحماسة (٧٧٤) : (وقولهم هم كشفوا عيبة العائبين .. أي أظهروا من عيب من كان يطلب عيبهم ، ما كان خافياً .. فكأنهم كشفوا عيابهم المنطوية على عيوبهم فاسودّت وجوههم بما غشيها من العار ، حتى صارت كالحُمَم) . والعيبة هنا موطن العيوب ومودعه . وانظر الى قول أبي الجعناء : (شرح الحماسة/٩٢٣)

وجرّبتُ ما جربت منه فسرّني ... ولا يكشف الفتيان غير التجارب

أي يكشف دخيلتهم .

وهذا قول المرزوقي (٥٢٠) : (وهذا المعنى قد كشفَ غيرُه) أي أظهره وجلاه وقول الخفاجي صاحب سر الفصاحة (٣٠):(ويكشف هذا المعنى للمتأمل أن العرب) وقوله (وكشف هذا .. ما أريد) وقوله (٧١) : (فالعلم بها واضح وكشفها جلي). فأي بأس بعد هذا بأن تقول : (كشفت كنوزها .. ونظامها البديع) اذا اهتديت الى هذه الكنوز فأظهرتها ، والى هذا النظام فجلوته ؟ ولا وجه لطعن جواد على قائله بأن الغطاء هو المكشوف، وأن المستور هو المكشوف عنه . ذلك بأن قول الأيمة صريح بأن كشف الأمر : اظهاره وجلاؤه . واذا ذهبت تخرّجه على الأصل قلت : ان الكنوز ها هنا هي المجهول ، وأنت تكشف حجاب المجهول ، على الأصل ، وتكشف المجهول أي الكنوز على حذف المضاف كما مر بك .

وقد بسط الدكتور جواد رأيه الذي ذكرنا ، في كتاب آخر له ، هو (قل ولا تقل) فمنع قول القائل (كشفت الأمر الخفي) أول الأمر . ثم عدل عن التلحين الى الايثار فقال: (فالفصيح أن يقال الكشف عن الأمر الخفي) وكان قد بدأ قوله (قل كشفت عن الأمر

الخفي خفاءه ، ولا تقل : كشفت الأمرالخفي) • أقول لا وجه ، بل لامساغ البتة لما ذهب اليه الأستاذ ، والا فما معنى قول الأيمة بل اطباقهم على أنك (اذا كشفت الأمر) فقد أظهرته ، أو يخرج الأمر عن أن يكون (أمراً) اذا كان خفياً ؟ واذا كان لا يصح أن يكون المكشوف غير غطاء و حجاب أو خفاء أوقناع،كما ذهب اليه جواد ، فكيف أطرد عن الفصحاء الأثبات قولهم (كشف فلان عورة جاره) ؟فانظر الى قول الجاحظ في كتابه (حجج النبوة) : (ولو كان كل كشف هتكاً ، وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضي أهتك الناس لسر وأشد الناس كشفاً لعورة) ، وقوله :(لا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة) فليس المكشوف فيه كمارأيت، غطاء ، أو ما يشاكله أو يغني مُغناه •

فرق ما بين كشفه وكشف عنه :

أقول لا شك أن استعمال (عن) على الأصل أدل على ابراز ما قام دون (المجهول) من حجاب حائل ، واتفق من غطاء ساتر ،كما هو حال (الكنوز) حين تخفى وتخبأ وتطوى ، لذا كان قولك (كشفت عن الكنوز) أليق بالمراد • وهذا ما أوحى به المرزوقي حين قال : (فتذكر معايبهم وتكشف عن مستور مخازيهم ومجهول مقابحهم ومساويهم) ،
وما أراده اذ قال : (من النظر والفحص والكشف عن عقبى الأمر) فمهّد للكشف بالنظر والفحص ، وما أفصح عنه بقوله (١١٣٦) : « وما يظهر من معادن الذهب صبيحة مطرة تكشف عن عروق الذهب) • بل هذا ما قصده الخفاجي بقوله (وذلك أليق بالمتكلمين أصحاب التحقيق والكشف عن أسرار المعلومات وغوامض الأشياء) ، اذ لو لم يكن هؤلاء أصحاب تدبر وتأمل وتحقيق ماظفروا بالكشف عن هذه الأسرار والغوامض•

خلاصة القول في تعدية (كشف) :

والخلاصة أنك تقول على الأصل كشفت الغطاء عن المستور ، فاذا حذفت المفعول لظهوره قلت كشفت عن المستور ، ويغلب هذا حين يكون المستور خفياً • كما تقول كشفت غطاء المستور فاذا حذفت المضاف قلت كشفت المستور ، ولا يشترط في هذا أن يكون المستور خفياً • ولكن هل تقول كشفت عن الغطاء وتريد انك كشفت عن الغطاء ما وراءه ،أي انصرفت عنه الى ما وراءه ؟ أقول الأصل أن تقول مثلا : كشفت المرأة وجهها ، فاذا اعتادت أن تخفيه قلت كشفت المرأة عن وجهها •وتقول كشفت المرأة قناعها عن وجه مضيء، على الأصل ، وكشفت عن قناعها وجهاً مضيئاً اذا أظهرت وجهها المضيء ، فتكون (عن) هنا (للمجاوزة) ، أي كشفت الوجه المضيء منصرفة عن القناع الى ما وراءه أو ما وراءه• وقد جاء في رسائل الجاحظ (رسالته في الشارب والمشروب ، ورسالته في بني أمية): (كشفت عن القناع) • وفي مقدمة المرزوقي في شرح الحماسة قوله (والكشف عن قناع المعنى بلفظ هو في الاختيار أولى/٦) •

القول في تعدية (قسم)

أخذ الدكتور مصطفى جواد على الشيخ رؤوف جمال الدين قوله : (الفعل ينقسم الى قسمين متعد ولازم) ، وجعل صوابه (ينقسم على قسمين ..) فقال في كتاب (دراسات في فلسفة النحو والصرف ..) : (فمن استعمل من النحويين ـ قسم الى كذا بدلا من ـ قسم على كذا ـ فهو محجوج بماذكره هو نفسه من معاني الى ، وبما استعمله الفصحاء كالجاحظ وغيره) . وقد استظهر الأستاذ بعبارة الجاحظ في كتابه (الحيوان) : (وبعض الناس يقسم الجن على قسمين) ، وقول ابن حزم الأندلسي في نسب الأنصار (زيد بطن ضخم ينقسم على بطون) ، وقول أبي علي الأنصاري في بعض كتبه (كنفس قُسّمت على جسمين) .

أقول لم يزد الأستاذ فيما قرر وجزم ، على أن سَرد ما سرد ، ولم يورد على قوله البيّنه ليكون رأيه هو الأسدّ وحكمه هو الأحجى . بل لم يفصح عما ذكر النحاة من معاني (الى) . وكل ما عمد اليه أنه حكى ما اتفق للجاحظ وابن حزم وأبي علي الأنصاري أن قالوه فأجروا فيه تعدية الفعل ب (على) . ونحن لو حكينا من كلام الأئمة الفحول ما عدّوا فيه الفعل ب (الى) لماأقنعه سفر بجملته ، فما صواب المسألة ووجه الكلام فيما نزع اليه الأستاذ ؟ .

تعدية (قسم) وما اشتق منه بعدّة من حروف الجر ، منها على و الى :

قال ابن منظور في اللسان : (القسم مصدر قسم الشيء يقسمه قَسماً فانقسم .. وقسّمه جزّأه ، وهي القسمة . والقِسم بالكسر النصيب والحظ والجمع الأقسام) . وقال (والقسّام بالتشديد الذي يقسّم الدور والأرض بين الشركاء فيها) ، وقال (والقسامة بالضم الصدَقة لأنها تقسم على الضعفاء) .

وقال الراغب في مفرداته : (القسم الافراز يقال قسمته كذا قسماً وقِسمة ، وقسمة الميراث وقسمة الغنيمة تفريقهما على أربابهما) .

والذي يتبين من هذا أنك اذا أردت أن (تقسم) المال مثلا على جماعة فتجعل لكل فرد نصيباً قلت : (قسمت المال بين هؤلاء) أو (قسمت المال على هؤلاء) . أي فرّقته بينهم . قال الجاحظ في كتابه (حجج النبوّة) : (يجعل فضله مقسّماً بين جميع الأولياء) . وقال في كتابه (التربيع والتدوير) : (أوالدول بينهما مقسومة وعليهما موقوفة) . وقال فيه : (وزعم آخرون أن الخير والشرعليهما مقسومان) وقدتقول (قسّمته فيهم) ففي محاضرات الأدباء للراغب (٣/٢٩٤) :

لـو قسّم الله جزءاً من محاسنه   في الناس طرّاً لتمّ الحسن في الناس) .

وقال عروة بن الورد :

اقسّم جسمـي في جسوم كثيـرة   وأحسو قراح المـاء والمـاء بارد

قال ابن السكيت : (قوله: أقسمُ جسمي، الجسم ها هنا طعامه ، يقول أقسم ما أريد أن أطعمه في محاويج قومه ، ومن يلزمني حقه والضيفان · وأحسو قراح الماء ، والماء القَراح الذي لا يخالطه لبن الا غيره ، والماءالبارد أي في الشتاء /٥٢) ·

على أن لك أن تعدّي الفعل بـ (الى)أيضا اذا أردت معناهـا ، كان تروم بيـان الأجزاء التي انتهت اليها القسمة · فانظرالى قول الامام أبي حيان في البحر المحيـط : (وافتراق الناس الى ثلاث فرق) · ولوأحللت(الانقسام) محل (الافتراق) لكان الكلام (وانقسام الناس الى ثلاثةأقسام) ·وتاويله: أنهم قد انتهوا في افتراقهم أو انقسامهم الى ثلاث شعب · و (الى) ها هنا لانتهاء الغاية،وهو رأس معانيها وملاكه ، فاذا قلت(قسمت كتابي على ثلاثة أبواب) عنيت أنك جزأتهفجعلت لكل باب من الكتاب جزءا · واذا قلت (قسمت كتابي الى ثلاثة أبواب) أردت أن الكتاب قد انتهى بهذه القسمة أو صـار الى هذه الأبواب الثلاثة ، وكله صحيح علىتاويله وبابه · وانظر الى ما قاله ثعلب في تفسير قوله تعالى (انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب ـ المرسـلات / ٣٠) : (يقـال ان النار يوم القيامة تنفرق ثلاث فرق ، فكلما ذهبوا أن يخرجوا الى موضع ردتهم ··) على ما جاء في التاج ، وقد جـاء ذلك في اللسان فزاد في روايته (الى) أي (تنفرق الى ثلاث فرق)·

واذا قلت (قسمت الكتاب قسمين) أو (شطرين) · كان انتصاب (قسمين) على المصدر · ولك أن تنصبه حالا مقدراً فيه (قسمت الكتاب متفرقاً) · فاذا صح هـذا وأمكن مثل هذا التقدير، قلت: قسمت الكتاب الى قسمين) على معنى(قسمته متفرقاً الى قسمين) · فانظر الى قول المرزوقي في شرح الحماسة (٨٢٦) حول قول الشاعر (قسمنـا بذاك الدهر شطرين بيننا) : (وانتصب شطرين على المصدر كأنه قال قسمنا الدهر قسمين· ويجوز أن يكون حالا على معنى قسمنا مختلفاً فوقع الاسم موقع الصفة لما تضمن معناه ،كما تقول طرحت متاعي بعضه فوق بعض كأنك قلت متفرقاً ، والمراد جعلنـا أوقات الدهـر بيننا وبين أعدائنا مقسومة قسمين) ·

وتأمل قول المرزوقي في شرح الحماسة (١١٩١) حول بيت يزيد بن الحكم

والنـاسُ مبتَنِيـانِ محمـــودُ البنايــةِ أو ذميــمُ

: (ومعنى البيت أن افعال عقلاء الناس لا تخلو من أن تكون مما يُستحق به حمد أو ذم ، فهم يبنون مبانيهم ويؤسسون مكاسبهم على أحد هذين الركنين ، وذلـك لأن الأفعال تابعـة للأغراض ، وغرض العاقـل اليهما ينقسم) · فتأويل قوله هذا أن غرض العاقل ينتهي في قسمته أو يصير اليهما ، أي الى هذيـن الركنيـن · وأردف المرزوقـي : (فانظر ماذا تجلب على نفسك ما تبتغيه من فعلك وتدخره من كسبك) · وقال على هذا الغرار (١٣١٦) : (واذا تأملت حوادث الدهر وجدتها لا تنقسم الا الى قسمته ، لأنها لا تخلو أن تكون محبوبة أو مكروهــة ، أوواقعة أو منتظرة ، أو مخوفة أو مرجوة) ·

وهذا قول ابن جني في سر الصناعة (٦٩/١) : (وللحروف انقسام آخر الى الشدّة والرخاوة وما بينهما) ، وقوله(٧١/١) : (وللحروف قسمة أخرى الى الأصل والزيادة)٠ وقوله في الخصائص (٦٧/٣) : (وذلك كان تقسم نحو مروان الى مايحتمل حاله من التمثيل له فتقول : لا يخلو من أن يكون فَعلان أومفعالا أو فعوالا) ٠ ونحو ذلك قول صاحب سر الفصاحة (٢٤) : (وللحروف انقسام الى الصحة والاعتلال والزيادة والسكون والحركة وغير ذلك) ٠

أقول : ومن هنا اطباق العلماء والنحاة والكتاب قديماً على هذه التعدية ٠ فقد جاء في مقدمة كتاب كليلة ودمنة (وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم الى أربعة أغراض : أحدها ما قصد فيه الى وضعه على ألسنة البهائم ٠٠) قال هذا لأن الكتاب في الأصل جملة مسائل تُبحث وأغراض تُشرح٠ وقال الجاحظ في بعض رسائله (الخاصة : (وقد تنقسم المودة الى ثلاث منازل : منها مايكون عن اهتزاز الأريحية وطبع الحرية ٠٠)، وقال صاحب الكليات أبو البقاء (٤١١) :(لسان العرب ينقسم الى ما لا يقاس ٠٠٠ والى ما يطرد فيه القياس ، وأن ما يجري فيه قياس مقرون بالسماع) ٠

الأصل في تعدية (قسم) بعلى :

والأصل في استعمال (على) مع الفعل ها هنا ، أن يكون (المقسوم) غير (المقسوم عليه) كما في قولك (قسمت الغنيمة على أربابها) أو (قسمت الصدقة على الضعفاء)٠ فالغنيمة غير الأرباب والصدقة غير الضعفاء٠ ومن ذلك قول المرزوقي في مقدمة شرح الحماسة (وكان اللفظ مقسوماً على رتب المعاني ، قد جعل الأخص للأخص ، والأخس للأخس) ٠

والأصل في اعمال (الى) أن يكون (المقسوم اليه) هو (المقسوم) نفسه ، كما في قولك (انقسم الناس الى ثلاثة أصناف) ، أي انتهوا في القسمة أو آلوا الى هذه الأصناف٠ ولكن يصح أن تحلّ (على) محل (الى) فتقول (قسمت كتابي على ثلاثة أبواب) أي فرّقت ما فيه وجزّأته ثلاثة أجزاء فجعلت كل جزء من الأجزاء في باب من الأبواب وخصصته به ، كان الباب غير الكتاب ٠ ولايصحّ أن تحل (الى) محل (على) في مثل قولك (قسمت الميراث على الورثة) لأن فحواه أنك قسمت الميراث أنصبةً كعدد الوارثين وجعلت لكلٍ نصيبه ، ولا يمكن أن تؤدي (الى) هذا المؤدى لأنها لمجرد الاشارة الى ما آلت اليه القسمة من أجزاء ، فاستعمال (على) هو المراد من قسمة الميراث دون (الى) وهو ألصق بالمعنى وأوفى بالغرض ٠

وهكذا ما مرّ بك من قول الجاحظ (كنفس قُسمت على جسمين) فان معناه (كنفس شُطرت بين جسمين) فكان لكل جسم من هذه النفس شطر ونصيب ٠ وهذا موضع (على) لا موضع (الى) ، ولو قلت :(كنفس قسّمت الى قسمين) لم يستقم المعنى الذي أردت ٠

متى تصح تعدية (قسم) بالى ، ومتى تصح بعلى :

كلما صح قولك (قسمت الشيء قسمين أو ثلاثة) وهو أصل التعبير ، على حدّ ما جاء في الحديث (ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة) ، جاز قولك (قسمته الى قسمين أو ثلاثة) أو (قسمته على قسمين أو ثلاثة) ٠ وكلما ساغ أن تقول (قسمت الشيء بينهما، أو بين هذه الأشياء أو بين هؤلاء) كقول عليّ عليه السلام في نهج البلاغة (١٨٥/٢)(فقسم بينهم معايشهم) وهو أصل التعبير عن هذا المعنى ، استقام قولك (قسمت الشيء عليهم أو على هذه الأشياء أو على هؤلاء) ولم يُغن قولك (قسمت الشيء اليهما أو اليها أو اليهم) ٠

شواهد تبرز الغرض من تعدية الأفعال بالى، كما عدّي (قسم) :

من أمثلة ما عُدّي بـ (الى) لانتهاء الغاية ، كما عُدّي (قسم) ، أي لانتهاء فاعل الفعل أو ما ينوب منابه الى غاية ، تعدية (سهّل وأبدل وقلب وتقلّب وانقلب وانفصل ٠٠) ٠ تقول (سهّل الشيء الى كذا) أي سهله فانتهى بالتسهيل اليه ، و (أبدله الى كذا) أي أبدله فانتهى بالابدال اليه ، كما كان (قسمه الى كذا) بمعنى (قسمه فانتهى بالقسمة الى كذا ٠٠) ٠

قال صاحب المصباح في مقدمته (وان وقعت الهمزة عيناً وانكسر ما قبلها جعلت مكان الياء لأنها ـ تسهّل اليها ـ نحو البئر والذئب) ٠

وقال ابن جني في الخصائص (٩/٢):(وأبدل الى الهمز حرفاً لا حظّ في الهمز له، بضدّ ما يجب لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير احداهما) ، وأردف (فكيف يقلب الى الهمز قلباً ساذجاً عن غير صنعة ما لا حظّ له من الهمز) ٠

وقال ابن جني في سر صناعة الاعراب(٢٣١/٣) : (قد قدمنا في كتابنا الخصائص صدراً صالحاً من ـ تقلب الأصل الواحد والمادة الى صور مختلفة يخطمها ـ يريد ينتظمها ويقودها ـ كلها معنى واحد ، ووسمناه بباب الاشتقاق الأكبر) ٠

و جاء في نهج البلاغة (٥٨/٢)وليكن من أبناء الآخرة فانه منها قَدِم ، واليها ينقلب) ٠ ولا ننسَ أن (انقلب) قد عُدّي بالى غير مرة ، في آي الذكر الحكيم ، حين جاء بمعنى (رجع) ٠

وجاء في محاضرات الأدباء للراغب (٢١١/٣) : (وكتب الصابىء عن عز الدولة الى أبي تغلب ، وقد نقل ابنته اليه : قدوجهت الوديعة ، وانما نقلت من وطن الى سكن ، ومن مغرس الى مغرس ٠ وهي بضعة مني انفصلت اليك وثمرة من جني قلبي حصلت لديك) ٠ وهو جليّ بيّن ٠

القول في معنى (تعرّض له)

مذهب جواد في استعمال (تعرّض لـه) وحجته :

قطع الدكتور مصطفى جواد في كتابه (قل ولا تقل) أن قولك (تعرّض له) ينمّ على رغبة الفاعل في الفعل ، والمفعول ان وجد ، فيمتنع على هذا أن تقول (تعرّض

فلان للتعذيب) أو نحو ذلك ، اذ لا يستقيم أن يكون المتعرّض راغباً في (التعذيب) أو ما يشاكله من معاناة ومقاساة ، وأن صواب التعبير أن تقول (عُرّض للتعذيب) .

قال الأستاذ جواد : (وان من الأغلاط ما ارتكبه أدباء كبراء كالدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وتابعهما عليه مقلدوهما غير عالمين بها لأنهما قدوتهم وموضع ثقتهم. فالفعل الشائع اليوم في أقوال الكتّاب : تعرّض ، والخطأ في استعماله انما ظهر في كتاب الأيام ، ففي الصفحة .. منه قول الكاتب وكان ذكاؤه واضحاً واتقانه للغة بيّناً . وحسن تصرفه فيه لا يتعرض للشك ... وفي الصفحة .. قوله : وكان الأزهر قد تعرض لألوان مختلفة من النظام) .

وقد استشهد بما جاء في المقاييس لأحمد بن فارس : (تعرّض لي بما أكره ..) والصحاح ومختاره : (وتعرّض لفلان : تصدّى له ..) والمصباح : (وتعرّض للمعروف وتعرّضه يتعدّى بنفسه وبالحرف اذا تصدّى لذكره) ، واللسان : (انطلق فلان يتعرّض بجَمَله للسوق اذا عرضه على البيع .. والعرب تقول : عرض لي الشيء وأعرض وتعرض واعترض بمعنى واحد) .

القول فيما أتى به جواد من نصوص وشواهد :

أقول ليس فيما بسط الأستاذ جواد من النصوص والشواهد ما يوجب أن يكون (المتعرّض) راغباً فيما تعرّض له ، لكنه يكون طالباً له مبتغياً اياه ، وقد يطلب المرء شيئاً ولا يرغب فيه . واذا كان (تعرّض له كتصدّى) فالطلب والابتغاء شرط في التعرّض . ومن هذا قولك (تعرضت لمعروفه) اذا طلبته . ولكنه قيل أيضاً (تعرّض فلان للتلف) و (تعرّض للخزي) و (تعرض للهلاك) كما ثبت اطراده عن الفصحاء فما وجهه ؟

أقول : (تعرّض) كما قال ابن منظور ك (عَرَضَ واعترض) . فالأصل ألا تتعرض للتلف أو تعرض له أو تعترضه ، وانما الوجه أن يتعرّض لك فيبتغيك ، أو يعرض لك أو يعترضك . فاذا قلت (تعرض للمكروه) أو (للتعذيب) فهو كما يبدو على القلب ، لا على الأصل ، لأنه بمعنى تعرّض لك المكروه أو التعذيب مجازاً ، فأصبحت له عُرضة وغرضاً . وقد اتفق بهذا أن يكون المتعرض مبتغياً في اللفظ ، وهو المبتغى والهدف في المعنى ، وان يكون (تعرض له) ك (عُرّض له) . وحين بدا للأستاذ جواد هذا ودلّ عليه نص صريح نكر النص وعاف الدليل ، وقال (وقد تركت نصاً واحداً ورد في الصحاح ومختاره يخالف واقع اللغة ، واني ذاكره بعد ايراد شواهد واقع اللغة ، أي استعمال تعرض في كتب الأدب وكتب التاريخ) . أما نص الصحاح ومختاره فهو (وعرّضت فلاناً لكذا فتعرّض هو له) أي غدا هدفاً له .

وثمة نص آخر أتى به الأستاذ جواد ، على أنه حجة له ، وهو حجة عليه . قال ابن منظور : (والعرب تقول عرض لي الشيء وأعرض وتعرّض واعترض بمعنى واحد).

فاذا كان (تعرّض له) كـ (أعرض له) ،فما الذي يعنيه قولك ، على المجاز ، (أعرض فلان للمكروه) ؟ انه يعني أنه أبدى (عُرضه) بالضم للمكروه فأمكنه منه ، كأعور الشيء اذا أبدى عورته · فالمُعرض أو المعور هو الذي أمكن آخر من عُرضه بالضم أو عورته فغدا لـه هدفاً وغرضاً · ففي الأســاس :(أعرض لك الصيد فارمه ، وهو مُعرض لك) وفيه (وقد أعور لك الصيد' وأعورك:أمكنك) فغدا هدفاً لك · هذا اذا كان الشيء هـو المعرض أو المعور ، فاذا كان المرء كمامثلنا هو المعرض أو المعور غدا هو الغرض والهدف · فقولك (أعرض فلان للمكروه)معناه أمكن المكروه من نفسه ، وكذاالمتعرض، فقولك (تعرض فلان للتلف) مثلا مؤداه أنهأمكن التلف من نفسه فغدا غرضاً له · وهذا ما عناه الكتّاب حينجرت أقلامهم به ،ونطقتألسنة الأيمة علىمنهاجه وطبعتعلى غراره·

أمثلة مـن كلام الفصحاء تشهد بصحـة ما أنكره جواد :

وهذه طائفة من أقوال أصحاب البيان وفصحاء القوم تشهد بان مـا ذكره الأستاذ جواد ، على أنه مخالف لواقع اللغة ، انما هومن طرائق اللغة وأساليبها ، بل تقيم الدليل على سداد ما ذهبنا اليه وتنسخ عنه كلشك.فقد جاء في نهج البلاغة (٢/١٥١) : (فكم خصكم بنعمة ، وتداركم برحمة · أعورتم لهفستركم ، وتعرضتم لأخذه فأمهلكم) · قال الشارح : (أعورتم لـه أي ظهرت عوراتكم وعيوبكم ، وتعرّضتم لأخذه : أي أن يأخذكم بالعقـاب) · ففحواه اذاً : أبديتم عوراتكم فستركم وعرّضتم أنفسكم لعقابه فأمهلكم)·

وفي كليلة ودمنة (فاذا اجتمع عليه هذان الصّنفـان فقد تعرّض للهـلاك ـ باب الأسد وابن آوى) وفيه (والرجل الأرمـدالعين اذا استقبل بهـا الريح ، تعرّض لأن تزداد رمداً ـ باب الملـك والطائر) وقالأبو حيـان التوحيدي في كتابــه (أخـلاق الوزيرين) : (والله ، للخروج من الطارف والتليد أسهل من التعرّضلهذا القولوالصبر عليه وقلة الاكتراث به/٩٠) قال هذا ، فياليزيدي هجاه شاعر هجاء مرّاً ·

وقال المرزوقي في شرح الحماسة (٧٨٩) : (حتى كان يترك السفـر واكتساب الأحدوثة بما يُمتهن فيه ، ويتعرض مـن أجله للتلف) · وقال فيه (٧٣٨) : (أمـا تخافون أن يحـق عليكم العذاب اذا استهنتم بالوعيد ·· وتعرضتم لسخط الله عز وجل، في تجاوز مأموره) · وقال (٨٠) : وامـاقـتـل ، وهو بالحُرّ أجدر من التعرض لما يُخزيه ويُكسبه الذل) · وقال (٨١٦) :(وابتذالهالنفس وتعرضه للحتف) ،والحتف: الهلاك ·

وقال ابن جني في الخصائص (٤٧٠/):(وانما وجب أن يرتّب هـذا العمل هـذا الترتيب من قبل أنك لمّا كرهت الواو هنا لماتتعرض له من الكسرة واليـاء) ، وقال في المحتسب (١٧٩/١) : (والفضلة متعرّضةللحذف والبذلة) · وقال فيه (٢٤٣/١) : (ان الفَعلة واحدة من جنسها ، والواحـدمُعرّض للتثنية والجمـع) ، أفرأيت كيف جعل (مُتعرضة) من تعرّض له · كـ (معرّضة) من عُرّض له ، فأنزلهمافيالمعنى منزلة واحدة !

خلاصة القول في معنى (تعرّض له) :

فاستبان بما تقدم أن (تعرّضله) ك(عرّض له) أو(أعرضله)،منقولكعرّضته لكذا فتعرضله ، فيكون (تعرّض) هذا من قبيل (تفعّل) الذي يدل على المطاوعة نحو حذّرته فتحذّر ونبّهته فتنبّه وعزّيته فتعزّى ، وقد أنكره الأستاذ جواد بلا بيّنة وأباه بلا سلطان • ويأتي (تعرّضله) بهذا المعنى كلما ابتغاك الشيء فجعلك غرضاً له ، نحو قولك (تركت السفر الطويل مخافة التعرضللمرض) • أما اذا ابتغيت الشيء وعزمت على طلبه كان (تعرّض له) ك (تصدّىله) • ويكون (تعرّض) هذا من قبيل (تفعّل) الذي يدل على تكلف الفاعللفعلباصرار كتتبع وتقصّي وتحرّى ، وذلك كقولك (ينبغي للمرء أن يتعرّض لأسبابالمرض فيعالجها ويحاول أن يتّقيها) •

وليست المفارقة أن تأتي صيغة (تفعّل) للتكلف حيناً والمطاوعة حيناً آخر ، ولكن المفارقة أن يجتمع لفعل واحد بهذه الصيغةوهو (تعرّض) ، التكلف والمطاوعة جميعاً• والذي عندي أن الأصل فيه (التكلف) وهوالمعنى الغالب لتفعّل ، أما المطاوعة فقدكانت فرعاً عليه • فالأصل ألاّ تتعرض للتلف اذاعنيت به أنك أبديت عُرضك له وأمكنتهمنه، وانما الوجه أن يتعرض لك أي يبتغيكويعرض لك ويعترضك ، فاذا قلت (تعرضت للتلف)وأردت المعنى الأول فهو على القلبلا على الأصل • وشبيه بهذا ما مثل بهالمبرّد للقلب من كلام العرب في كتابه (الكامل)وهو قولهم (المرأة تنوء بها عجيزتها) أي تثقلها ، وقولهم (وهي تنوء بعجيزتها) أيتنهض بها مثقلة •

على أنه اذا كان الأصل ألاّ يبتغي المرءما يتفق منه معاناة أو نصب أو يتعرض فيتصدّى لما يجلب عليه العناء والشقاء ،فقديطلب المرء المشقة نفسها ، بل يركب أكتاف الشدائد ليحقق بذلك غاية ويبلغ منية • فانظر الى قول الجاحظ في كتاب الحيوان حول ما قاسى من نصَب وعانى من صَعد ولقيمن برح في تأليف كتابه واستتمام فصوله ، (لأني كنت لا أفرغ فيه الى تلفظ الأشعاروتتبع الأمثال واستخراج الآي من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرّق هذه الأمورفي الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال • فان وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ومن سوءتأليف •• فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي ، ولولا ماأرجو من عون الله على اتمامه •• لما تعرضت لهذا المكروه) • فليس التعرض ها هنا علىمعنى ابداء عُرضه للمكروه وتعريضصفحته له لتلقّي أثره واحتمال بوائقه ، وانما هوعلى معنى التصدي والابتغاء •

وعندي أن من هذا القبيل قول زاهر التيمي :

ومحشّ حربٍ مُقدِم متعرّض   للموت غير مُعرّد حيّاد
كالليث لا يَثنيه عن اقدامه   خوف الردى وقعاقع الايعاد
مذِل بمهجته اذا ما كذّبت   خوفَ المنية نجدة الأنجاد

قال المرزوقي (٦٨٣) : (يريد أنه يقدم ولا يُحجم ••• هو في بأسه واقدامه

مثل الليث لا يصرفه عن الوجه الذي يؤمه ،والأمر الذي يُهمه ما يستشعره الجبان من خوف الموت وقعقعة الوعيد) ، وأردف(وقوله:مَذل بمهجته ، كأنه يطول تعرّضه للشدائد ويدوم ابتذاله لما يجب صونه من كرائم النفس ، فعل من ضجر بمهجته فاستقتل واستطاب الموت فتعجل · ويقال مَذِلَ بسرّه: اذا باح به) ·

القول في تعدية (تعرّض) هل يكون بـ(الى) كما كان باللام ؟

جاء في كتاب (تذكرة الكاتب) للأستاذأسعد خليل داغر ، رحمه الله : (ويعدّون الفعل تعرض بالى فيقولون ــ لم يفكروا أن يتعرضوا الى أحد ــ وهو بهذا المعنى انما يتعدّى باللام تقول ــ تعرّض له وطلبه)·فأنكر بذلك تعدية (تعرّض) بالى ، وليس هذا صحيحاً · فاذا قلت (تعرّض لفلان)فقد قصدت أن تعرّضك انما تناول فلاناً بطلبه وابتغائه ، واذا قلت (تعرّض الىفلان) فقد أردت أن تعرضك بالطلب والابتغاء انما انتهى وصار اليه · فقد جاءفيكتابلطائف اللطف لأبي منصورالنيسابوري الثعالبي المتوفى (٤٢٩هـ) : (معن بنزائدةتعرض اليه رجل فقال : احملني أيها الأمير، فقال : أعطوه جملا وفرساً وبغلا وحماراً وجارية ، وقال : لو علمت أن الله تعالى خلق مركوباً سوى ما ذكرناه لأمرنا لك به) ·فقال (تعرض اليه رجل) وعدّى الفعل بالى خلافاً لما ذهب اليه الأستاذ داغر · ونحو من ذلك ما جاء في النهاية لابن الأثير : (وفي حديث الوليد بن يزيد بنعبدالملك : أفقر بعدمسلمة الصيد لمن رمى أي أمكن الصيد من فقاره لراميه · أراد أن عمه مسلمة كان كثيرالغزو يحمي بيضة الاسلام ويتولى سداد الثغور ، فلما مات اختل ذلك وأمكن الاسلاملمن يتعرض اليه ، فقال : أفقرك الصيدُ فارمه أي أمكنك من نفسه ــ مادة فقر) ·

القول في تعدية (أجاب)

ومما نحن على سمته تعدية (أجاب)ومصدره (الاجابة) واسممصدره (الجواب)· ففي شرح مجمع الأمثال (يقال أجاب اجابةوجابة وجواباً وجيبة) · وتعدية الفعل في الأصل تكون بـ (عن) ، فاستعمال الفعل بـ(على) دون (عن) لحن اذا أريد بـ (على) ما يُراد بـ (عن) من الاجابة عن السؤال أوما يقوم مقامه · لكن تصرّف الفعل بـ (عن) لا يمنع تعديته بغيره من الحروف الجارّةالتيحُدّت معانيها المطّردةفي الأمهات، اذا اتسعت لها معاني الفعل · فأنت تقول مثلا (أجبتفي الكتاب) على الظرفية ، و (بالكتاب)على الاستعانة والظرفية أيضاً ، و (أجبت عنه)على البدلية ، و (على ورقة بيضاء) على الاستعلاء الحسّي ، و (أجبت لأمر مهم)على التعليل ، و (أجبت عن الأسئلة من أولها الى آخرها) على ابتداء الغايةوانتهائها.

واذا أردت بالفعل أو مصدره أن يترتبعلى أمر من الأمور أو يُبنى عليه فعدولك بالتعدية الى (على) سائغ مستقيم ، كقولك(وانما أجبتكم عن أسئلتكم ، على ما جاء في كتابكم) أو (انما جوابي عن أسئلتكم ،علىما جاء في كتابكم) · وتحذف ان شئت (عن

أسئلتكم) لظهور الغرض ، استغناء بما في الكتاب من ترتب الجواب الذي يقتضي (على) اذا أردت أن ينصرف الذهن الى هذا فتقول: وانما أجبتكم ، على ما جاء في كتابكم) و (انما جوابي ، على ما جاء فيه) فيكون كلامك صحيحاً ، اذا انتويت فيه هذه الجهة .

فانظر الى ما جاء في أمالي المرتضى (١/٤٩٠) : (فان قيل كيف يجوز أن يقول: السجن أحب الي مما يدعونني اليه -يوسف/٣٣ ، وهو لا يحب ما دعوه جملة .. قلنا قد تستعمل هذه اللفظة في مثل هذا الموضع ، وان لم يكن في معناها اشتراك ، على الحقيقة. وانما يسوغ ذلك على أحد الوجهين دون الآخر ، من حيث كان المخيَّر بين الشيئين لا يخيَّر بينهما الا وهما مرادان أو مما يصح أن يريدهما .. والمجيب على هذا ، متى قال: كذا أحبّ الي من كذا ، كان مجيباً على مايقتضيه موضوع التخيير ، وان لم يكن الأمران يشتركان في تناول محبته) . فتقدير قوله (والمجيب على هذا متى قال ..) والمجيب بناء على هذا متى قال ، وقوله (كان مجيباًعلى ما يقتضيه ..) كان مجيباً جواباًمترتباً على ما يقتضيه ..

وقد جاء في الأشباه والنظائر (٣/٢٥٧) : (فنقول الجواب عليه من وجهين) أي الجواب المترتب عليه ، انما يكون من وجهين .

وجاء في الخصائص لابن جني (٣/٣٨): (وقد كان أبو علي ، رحمه الله ، كتب الي من حلب ، وأنا بالموصل ، مسألة .. جواباًعلى سؤالي اياه عنها) أي جواباً مترتباً على سؤالي ، ولو داني هذا في معناه التعدية بعن .

وانظر الى قول ابن جني في الخصائص أيضاً (٢/٢٦٦) : (ومن ذلك قولك في جواب من قال لك : آلحسن أوالحسين أفضل، أم ابن الحنفية ؟ الحسن ، أو قولك الحسين، وهذا تطوع من المجيب بما لا يلزم .. ذلك أن جوابه على ظاهر سؤاله ، أن يقول له : أحدهما . ألا ترى أنه لما قال له : آلحسن أوالحسين أفضل أم ابن الحنفية ، فكأنه قال أحدهما أفضل أم ابن الحنفية ؟ فجوابه ، على ظاهر سؤاله ، أن يقول أحدهما) . فما تعليل قوله (جوابه على ظاهر سؤاله ؟ أقول انه على تقدير . جوابه المبني على ظاهر سؤاله. وقد أردف ابن جني : (ونظير قوله في الجواب على اللفظ ..) أي في الجواب المحمول على اللفظ ، و (على) في كل ذلك للاستعلاء مجازاً .

تعدية (أجاب) بعن وعلى ومعناه مع كل منهما :

ومن هنا كان الطعن على تعدية (أجاب) بغير (عن) دون تدبر معناه وما هوعليه من تقدير الكلام ، مجازفة في القول ، وحكماً لا تناط به ثقة ولا يُخلد اليه بيقين .
ونحو من ذلك قول الدكتور مصطفى جواد في كتابه (قل أجاب عن السؤال اجابة وهذا جواب عن الكتاب ، ولا تقل أجاب على السؤال اجابة ، وهذا جواب على الكتاب . وذلك لأن المسموع عن العرب ، والمذكور في كتب العربية : أجاب عن السؤال ، لا أجاب عليه ، ولأن معنى الفعل : أجاب، يستوجب استعمال عن - لافادة الازاحة والكشف والابانة

والقطع والخرق ، ولا يصلح معه استعمال على ـ التي هي للظرفية الاستعلائية ٠
قال ابن مكرم الأنصاري : الاجابة رجع للكلام ، تقول فيه : أجابه عن سؤاله ، وقد أجاب اجابة واجاباً وجواباً وجابة)

كما كان اطلاق القول في جواز استعمال (أجاب على) محل (أجاب عن) غير صحيح ، وعلى نحو من هذا ما جاء به الأستاذصبحي البصّام فيما استدركه على كتاب (قل ولا تقل) ، قال : (قلت يجوز أن تقول أجاب عن السؤال ، وهو أصل ، وأن تقول: أجاب على السؤال ، وفي السؤال ، وكلاهما فرع ٠ وأنا باسط الكلام على ذلك ها هنا بعض البسط) ، ثم أتى بشواهد من كلام البلغاء ، فيها تعدية (أجاب) بعن ، وشواهد أخرى فيها تعديته بعلى ، وذهب الى أن(على)قد حلّت فيها محلّ (عن) وأدت معناها ، كما حلّت (على) محل (عن) في قولك(رضي عليه) و (رمى على القوس) و (ذهب عليّ) مما اعتاد النحاة أن يذكروه في الأمثلة التي أدّت فيها (على) مؤدى(عن).

أقول المعنى المطرد لعلى هو الاستعلاء حسًّا نحو قوله تعالى (وعليها وعلى الفلك تحملون ـ المؤمنون/٢٢) أو معنى نحو قوله تعالى (فضّلنا بعضهم على بعض ـ البقرة /٢٥٣)٠ **أما ما ذكره النحاة من المواضع التي حلت فيها (على) محل (عن) فينبغي أن تقصر على الأمثلة المحكية وما شابهها ، ولوجاز استعمال (على) لكل المعاني المذكورة ، في كل موضع ، لصح قولك (نبت على فلان)٠ بمعنى قولك نُبتَ عنه) ، وهذا محال ٠ فانظر الى ما جاء في** المغني لابن هشام (على أن البصريين ومن تابعهم يرون **في الأماكن** التي ادّعيت فيها النيابة أن الحرف باق على معناه ، وأن العامل **ضُمِّن معنى عامل يتعدّى** بذلك الحرف لأن التجوز في الفعل أسهل منه في الحرف ـ ١٧٣/٢) وفي (الهمع) **للامام السيوطي** (والبصريون قالوا لو كان لعلى هذه المعاني **لوقعت موقع هذه الحروف فكنت** تقول ولّيت عليه أي عنه ٠ وكتبت على القلم أي به ، وجاء زيد على عمرو أي معه، والدرهم على الصندوق أي فيه ، وأخذت على الكيس أي منه) وأردف : (وأوّلوا ما تقدم على التضمين ونحوه فضُمِّن تتلو معنى تقول،ورضي معنى عطف ٠٠ واكتالوا معنى **حكموا في** الكيل ٠٠) ٠ **ذلك أن للفعل مع كل حرف وجهة خاصة قد تداني وجهته مع حرف آخر، لكنها لا تطابقها ولا تواقعها ٠ وهذا ما أكده** أبو نزار ملك النحاة حين قال : (ان الفعل يتعدى بعدة من حروف الجر على مقدار المعنى اللغوي المراد من وقوع الفعل ، لأن هذه المعاني كامنة في الفعل وانما يثيرها ويظهرها حروف الجر) وأردف (وذلك اذا قلت خرجت فأردت أن تبين ابتداء خروجك قلت خرجت من الدار ، فان أردت أن تبين أن خروجك مقارن لاستعلائك قلت خرجت على الدابة ، فان أردت المجاوزة للمكان قلت خرجت عن الدار ٠٠) فأتى لكل حرف بمعناه الذي خُصّ به ، وأوضح هذا صاحب الكليات فقال (الفعل المتعدّي بالحروف المتعدية لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر ، وهذا بحسب اختلاف الحروف ٠ فان ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق ٠٠) وأردف (وان تقارب معاني الأدوات عسر الفرق نحو قصدت اليه وله وهديت الى كذا ولكذا ، فالنحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر ، أما فقهاء أهل العربية

فلا يرتضون هذه الطريقة بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره ٠٠) ٠فقد يغني قولك (أجاب على) عن قولك (أجاب عنه) حيناً لكن اغناء أحد الحرفين عن الآخر لا يعني البتة أنهما على معنى واحد ، كما بسطنا الكلام عليه في أمثلتنا السابقة ٠

وفي كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (قال المحققون من أهل العربية ان حروف الجر لا تتعاقب حتى قال ابن درستويه: في جواز تعاقبها ابطال حقيقة اللغة وافساد الحكمة فيها والقول بخلاف ما يوجبه العقل والقياس) ٠

بعض ما تعدى بعن و على ومعناه مع كل منهما :

تقول (سكتَ عن الكلام) اذا امتنعت منه و (سكتَ عن الأمر) اذا أغفلته وتجاوزته وتغاضيت عنه مجازاً ، لكنك اذا قلت (سكتَ عليه) فقد أردت شيئاً آخر ٠ قال الشاعر :

ليس العمى طول السؤال وانما ... تمام العمى طول السكوت على الجهل

أقول قد ضُمِّن السكوت هنا معنى الصبر ، وبينهما اشتراك في المعنى ٠ فاذا قلت (سكتَ على الجهل) كان معناه :سكتَ عن الجهل صابراً عليه ٠

وتقول (نمت عنه) اذا نمت حقاً كما جاء في الحديث (تنام عن العجين) فاذا أردت المجاز فيه كان معناه غفلت عنه ٠ ففي نهج البلاغة (١/٧٨) : (لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون) لكنك تقول (نمت عليه) كما جاء في نهج البلاغة (٣/٧٨) (ينام الرجل على الثكل ولا ينام على الحَرَب) ٠ قال الرضي (ومعنى ذلك أنه يصبر على قتل الأولاد ولا يصبر على سلب الأموال) ، والحَرَب بالتحريك سلب المال ٠

وتقول (خرج عن القانون) اذا حاد عنه و (خرج على القانون) اذا تمرد عليه وتصدى لمخالفته ، كقولك (خرج على السلطان أو الامام أو الخليفة) ٠

وتقول (نبا عنه) اذا حاد ورجع و (نبا عليه) اذا اشتد عليه ولم ينقد ، ذلك نحو ما جاء في نهج البلاغة (١٠١/٣) : (يرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء) ٠

وهكذا قولك (شرد عنه وعليه) و (نشز عنه وعليه) و (صبر عنه وعليه) ٠

وقصارى ما هناك أنه قد صح بما قدمناه أنه لا يجزيك في اختيار الحرف لتصريف الفعل العودة الى المعجمات لتقع على الحرف الذي خُصّ به الفعل في معنى من المعاني ، أو الى كتب اللغة لتقف على المعاني المطّردة لكل حرف ، بل لا بد أن تحظى بنصيب من الدراية وتضرب بسهم من الفقه، بمطالعة كتب الأدب نثره وشعره وطول مدارستها ، فلا شك أنها ستطلعك على ما يُطرفك في هذا الباب ،وتسبق بك الى الحكم على ما يفضي اليه الفعل من معنى مع كل حرف ٠

مفهوم الفصاحة
بين ابن سنان وعبد القاهر الجرجاني

وليد سراقبي

بادىء ذي بدء لا بد من القول : ان النقد العربي قد تطور تطوراً كبيراً منذ زمن بعيد في العصر الجاهلي الى أوائل القرن الخامس الهجري • ففي العصر الجاهلي نجد بعض الأخبار التي تعطينا فكرة عن بدايات نقدية عفوية ، من ذلك مثلا خبر احتكام امرىء القيس وعلقمة الفحل الى زوج امرىء القيس اذ قال امرؤ القيس :

خليلـيَّ مرّا بي على أم جنـدب ... لنقضي حـاجـات الفؤاد المعـذب

وقال علقمـة :

ذهبت مـن الهجران في كل مذهب ... ولم يكُ حقـاً كل هذا التجنبِ

وتابع كل منهما قصيدته فقالت لامرىء القيس : علقمة أشعر منك • قال : وكيف ذلك ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهـوب وللسـاق درّةٌ ... وللزجر منـه وقـع أهوج منعب

فجهدت فرسك بسوطك ، ومريته بساقك ، وقال علقمة :

فادركهـن ثانيـاً مـن عنانـه ... يمـرّ كمـرّ الرائـح المتحلّب

فادرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساقٍ ولا زجره(١) •

وفي عهد النبي ﷺ وعهد خلفائه الراشدين نجد كثيراً من الأحكام النقدية ، كقول النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت : « آمن شعره وكفر قلبه(٢) » ومن ذلك أيضاً قول

عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في زهير بن أبي سلمى : « .. انه لا يمدح الرجل الا بما فيه ، ولا يعاظل في الكلام .. »(٣) .

وهكذا ظل النقد العربي يسير في حركة متطورة ، فظهر له أعلامه كالأصمعي وابن سلام وابن قتيبة والمبرد وثعلب في القرن الثالث ، وابن طباطبا وقدامة والآمدي في القرن الرابع ، وابن رشيق وأبي العلاء المعري وعبدالقاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي في القرن الخامس .

وابن سنان هو الأمير عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، كان واسع الثقافة تتلمذ على يد عدد من العلماء الأجلاء ومن بينهم أبو العلاء المعري . كانت وفاته مسموماً عام (٤٦٦ هـ) ، وقد خلّفلنا كتابه النقدي « سر الفصاحة » وكتاب « الصرفة » الذي ضاع مع ما ضاع من تراثنا الأدبي .

وقبل أن أخوض في مفهوم الفصاحة لابد لي من أن أعرّج قليلا على المعاجم اللغوية لنرى المدلول اللغوي لهذا اللفظ . يقول صاحب التاج : « الفصح والفصاحة : البيان. يقال : فصُحَ فصاحة فهو فصيح . وفصُحَ اللبن اذا أخذت عنه الرغوة ، قال :

وتحت الرغوة اللبن الفصيح(٤)

وقد وردت هذه اللفظة بهذه المعاني في قوله تعالى : « .. وأخي هارون هو أفصح مني لساناً(٥) » ووردت أيضاً في قول الرسول ﷺ : « أنا أفصح العرب لساناً بيد أني من قريش(٦) » ومن هنا نجد أن الفصاحة تساوي الوضوح والابانة وخلو الشيء مما يستره.

وقد قصر ابن سنان ـ في كتابه سر الفصاحة ـ الفصاحة على الألفاظ وحدها دون المعاني فقال : « الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ ، والبلاغة لا تكون الا وصفاً للالفاظ مع المعاني ، فلا يقال عن كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة ،وان قيل فيها فصيحة ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغاً(٧) » .

ويقول في مكان آخر من الكتاب : « الفصاحة نعت للألفاظ اذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ(٨) » .

ويقسم ابن سنان شروط الفصاحة قسمين: الأول يخص اللفظة المفردة ، والثاني يخص الكلام المركّب . أما شروط فصاحة اللفظة المفردة فهي ثمانية شروط :

الأول : أن تكون اللفظة مؤلفة من حروف متباعدة المخارج ، لأن الحروف التي هي أصوات تجري « من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شك في أن الألوان المتباينة اذا جُمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبُعد ما بينه وبين الأسود(٩) » ومن الأمثلة الشعرية على ذلك قول امرىء القيس(١٠) :

غدائره مستشزرات الى العلا   تضل العقاص في مثنًى ومرسلِ

وقد تبعه في شرطه هذا كثير من علماء البلاغة والبيان كالقزويني في كتابه « التلخيص » والسيوطي في كتابه « عقود الجمان في علم المعاني والبيان »(١١) ·

ويؤخذ عليهم في هذا الشرط جعلهم الشذوذ قاعدة وشرطاً ، لأن جلَّ كلام العرب – وهم أرباب الفصاحة والبيان – انما هو بعيد عن مثل هذه المشكلات اللفظية ·

ثم ان التنافر الذي يقع في كلمة لا يعني أن مفردات الحروف مستكرهة ، وان كانت مختلفة في العذوبة والسلاسة ، « لكن الاستكراه انما يعرض من أجل التأليف لما يحصل بسببه من التنافر والثقل »(١٢) ·

وقد رد يحيى بن حمزة العلوي – وهو من علماء القرن السابع – على قول ابن سنان فقال : « ··· قد بان من حسن تصرف واضع اللغة امتناعه من الجمع بين العين والحاء ، والغين والخاء ، ··· وما ذلك الا لما يحصل من تأليف هذه من البشاعة والثقل على الألسنة في النطق »(١٣) ·

« وليس ذلك من أجل ما يحصل من تقارب مخارج الحروف ، وتباعدها – كما يزعمه ابن سنان وغيره من أرباب هذه الصناعة – فانهم عوّلوا على أن القرب منها يكون سبباً في قبح اللفظ ، والتباعد فيها يكون سبباً في حسن اللفظ ، وهذا فاسد"، فانه ربما يعرض لما كانت حروفه متباعدة استكراه في النطق ، وهذا كقولنا : « ملَعَ » أي : عدا ، فالعين من حروف الحلق ، والميم من الشفة ، واللام من الوسط ، ومع ذلك فهي ثقيلة على اللسان ينبو عنها الذوق ولا تستعمل في كلام فصيح· وربما عرض لما تقاربت حروفه حسن الذوق في اللسان فكان حسناً ومثاله : ذقته بفمي ، فان الباء والفاء والميم محلها أحرف متقاربة شفوية وهي رقيقة حسنة يخف محملها على اللسان ··· »(١٤) ·

الثاني : أن تتألف الكلمة تأليفاً خاصاً بحيث لو تقدم حرف على آخر في اللفظ لما كان لها في ذلك الحسن الذي حازته من قبل مثل كلمة (غصن) فان لها جرساً يختلف عن قولنا : (عسلوج) ، ويختلف عنه لو قدمنا أحد الأحرف على غيره ، « وهذا التأليف المخصوص قد يكون من جهة الاشتقاق كقول أبي الطيب(١٥) :

اذا سارت الأحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده

فان كلمة (تفاوح) في قمة الفصاحة »· وهنا لا نجد لابن سنان دليلا أو حجة يمكن أن يركن اليها المرء ، اللهم الا استحسانه هو لهذه اللفظة أو تلك · الا أن محمد بن علي الجرجاني – في كتابه الاشارات والتنبيهات – يعلل استحسان ابن سنان هذا فيقول : « والتحقيق أن المزية في نحو : عذب ، وغصن ، وفوح ، معلَّلة بعلتين :

احداهما : أن كل واحد منها مركَّب" أعدل تركيب ، وهو الثلاثي الساكن الوسط ، حرف للابتداء به ، وحرف للاعراب والوقوف عليه ، وحرف للفصل بينهما ولا يحتاج الفاصل الى حركة ·

ثانيتهما : أن كل واحد مركّب من حروف متباعدة في المخرج ، مرتبة فيه على سمت واحد ، وحركة واحدة للآلة ، فان العين مـن أسفل المخارج ، والذال من أوسطها ، والبـاء من أعلاها ، وكذلك الغصن · وأسا فوح :فترتيب حروفه في المخرج بالعكس فان الفاءمن أعلى المخارج ، والواو من أوسطها ، والحاءمن أسفلها · ولو قدم الذال على العين فيعذب وقيل : ذَعب" احتاجت الآلة الى حركتين : حركة من أوسط المخرج الى أسفلها ، وحركة من أسفلها الى أعلاها ، لذلك تثقل ولا يكون لهاذلك القبول في السمع ، أما نحو : عساليـج الشوحط ، والجرَشّى فكراهـة السمع لــهللغرابة »(١٦) ·

الثالث : أن تكون اللفظة غير متوعرةولاوحشية كقول أبي تمام(١٧) :

لقد طلعت في وجـه مصر بوجهـه بلا طائر سعـدٍ ولا طائر كهـلِ

فكلمة (كهل) ــ في رأيه ــ قبيحة نابيةوهذا شرط ــ وان كان غير منكَر الحسن ــ الا أنه من الواجب عدم اطلاق هذا التعميم لأنقضية الغرابة أمر نسبيوهي متعلقة بالأرضية الثقافية للقارىء ·

الرابع : أن تبتعد اللفظة عن العاميـةوالابتذال كقول أبي تمام(١٨) :

جليّت والموتُ مبدٍ حرَّ صفحتِه وقد تفرعـن في أفعالـه الأجلُ

فان لفظة (تفرعن) عامية وغيرفصيحة، وهنا أجد لزاماً عليَّ الاعتراف بتوفيق ابن سنان في تأصيل هذا الأصل البلاغي ·

الخامس : أن تكون اللفظة بعيدة عـن الشذوذ ، جارية على العرف العربي · وهذا الشرط شامل لكل ما ينكره أهل اللغة وعلماءالنحو مـن التصرف الفاسد في الكلمة فيعبَّر بها عن غير ما وضعت له كقول أبيتمام(١٩):

حلّت محلَّ البكر من معطى وقد زفّت مـن المعطـى زفـاف الأيّم

فقد وضع الشاعر لفظة (الأيّم) مكانالثيّب ، والكلمتان ليستا مترادفتين في المعنى لأن الأيّم التـي لا زوج لهـا بكراً كانت أوثيّباً(٢٠) ·

وكقول الشاعر(٢١) :

واذا الفتى طرح الكلام معرّضـا في مجلس أخـذ الكلام اللـذ عنى

فان (اللذ) ــ في رأيه ــ غير فصيحةمعأنها لغة قليلة في الذي ، وقد وردت في شعرنا العربي ، قال الشاعر(٢٢) :

جشـأت فقلت اللـذ خشيت ليأتين فـاذا أتاك فلات حـين منـاصِ

وهذا الانتقاد في غير محله ، لأن ابنسنان ينتقد العرب الفصحاء الذين لولاهم لما كان لنا أن نضع شيئاً من قواعد اللغة العربية ·أما بالنسبة الى بيت أبي تمام فكان على ابن

سنان أن يوجه نقده الى الشاعر لا الى الكلمة التي لم يحسن الشاعر استعمالها . وها نجد ابن سنان يعترف قائلا : « .. وكل ذلك – وان لم يؤثر كبير تأثير – فاني أوثر صيانتها منه لأن الفصاحة تنبئ عن اختيار الكلمة وحسن طلاوتها ، ولها من الأمور صفة نقص يجب اطراحها . على أن ما ذكرته يختلف في بعض المواضع دون بعض على قدر التأويل فيه وحكمه »(٢٣) .

السادس : الا تكون الكلمة قد عُبِّر بها عن أمر آخر يكره ذكره ، فاذا وردت – وهي غير مقصود بها ذلك المعنى – قبُحت وان كملت فيها صفات الفصاحة السابقة كقول عروة بن الورد(٢٤) :

قلت لقوم في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزَّحِ

فان لفظة (الكنيف) أصبحت تدل فيما بعد على الساتر الذي يستر الحدث . وهذا الشرط لا يمكن التسليم به فنتهم عروة بن الورد بعدم الفصاحة – وهو من هو – لأن الكلمة أخذت من المعاني ما لم يكن لها من قبل ! !

السابع : أن تكون الكلمة قليلة الحروف، والا خرجت عن وجوه الفصاحة كقول أبي الطيب(٢٥) :

ان الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

فكلمة (سويداواتها) غير فصيحة في رأي ابن سنان وذلك بسبب كثرة حروفها . ولكن ما الذي يقوله ابن سنان في قوله تعالى : « فسيكفيكهم الله » ؟ ! هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الشاعر لم يخطىء في استعمال الكلمة لأنه لما ذكر القلوب بصيغة الجمع كان من الأفضل له أن يعبر عن السويداء بصيغة الجمع .

الثامن : الا تستعمل الكلمة المصغرة للتعبير عن معنى لطيف أو خفي في معان تناقض المعاني السابقة كالتعظيم والتهويل كما في قول الشاعر :(٢٦)

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفرّ منها الأنامل

فقد استعمل الشاعر لفظة (دويهية) مصغرة في معنى التعظيم والتهويل . وهذا – في رأيي – ليس شرطاً عاماً لأن الألفاظ المصغّرة قليلة في اللغة العربية ، ثم ان معنى التعظيم في اللفظ المصغّر قد اطرد في كلام العرب كقول الحباب بن المنذر في يوم السقيفة: « أنا جُذيلُها المحكّك وعذيقها المرجّب(٢٧) »

وكأني بابن سنان وقد أحس – بعد عرضه لشروطه تلك – بما قد يوجَّه اليه من نقد فطلب من قارئه أن يبسط لـه المذر في حديثه عن اللفظة وفصاحتها محتجاً بأن تلك القواعد انما حصلت له بالدربة فهو لم يأخذها عن كتاب مؤلف ، ولا قول يروى « ولهذا لست أدعي السلامة من الخلل والعصمة من الزلل وأعترف بالتقصير(٢٨) » .

أما بالنسبة الى فصاحة الكلام المؤلف فقد عدّ ثمانية شروط أيضاً جلها وضع لفصاحة الألفاظ المفردة ، منها :

أ ـ أن يكون تاليف الكلام من مخارج متباعدة ، « لأن تقارب الحروف في النظم أقبح منه في اللفظة المفردة ، وتعليل ذلك أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها تكرار الحروف مثلما يستمر في الكلام المنظوم »(٢٩) ومن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :(٣٠)

ولا الضعفُ حتى يتبع الضعف ضعفه ولا ضعفُ ضعفِ الضعف بل مثله ألف

ولا شك في أن هذا الشرط حسن" ، فالمعري ـ مع تعصبه لأبي الطيب ـ قال عند سماعه بيت المتنبي هذا « هذا والله شعر مدبر»(٣١) •

ويستطرد ابن سنان بعد هذا الشرط للرد على أبي الحسن الرماني النحوي قوله : « ان التأليف على أضرب ثلاثة ، متنافر ، ومتلائم في الطبقة الوسطى ، ومتلائم في الطبقة العليا وهو القرآن الكريم • يقول ابن سنان:« ان هذا غير صحيح اذ التأليف على ضربين ليس الا ، وهما : المتنافر والمتلائم وقد يكون المتلائم ما بعضه أشد تلاؤماً من بعض على حسب ما يقع التأليف ، وكذلك المتنافر منه ما يكون بعضه أشد في التنافر من بعض(٣٢)» • ولذلك لا يرى فرقاً بين القرآن الكريم وكلام العرب الفصيح ، وهذا ناتج بالطبع عن أنه يعتبر الاعجاز القرآني راجعاً الى صرف الله العرب عن معارضته وهذه هي الفكرة التي كان ينادي بها زعيم المعتزلة النظّام •

ب ـ أن يكون التأليف جارياً على قواعد النحو العربي • ولا يخفى أنه يلتقي ـ في هذا الشرط ـ مع الامام عبد القاهر الجرجاني ،الذي كان يلح على توخي معاني النحو في النظم •

جـ ـ ألا يكون التأليف قد عُبِّر به عن أمر آخر يُكره ذكره ، كقول عروة ابن الورد :(٣٣) •

قلت لقوم في الكنيف تروحوا عشية بتنا عند ماوان رزّح

وهذا شرط صادفناه عند حديثه عن اللفظة المفردة ، اضافة الى أننا لا نسلّم به كما مر معنا •

ومن هذه الشروط أيضاً الابتعاد عن الكلمة ذات الحروف الكثيرة ، والابتعاد عن التصغير الدال على غير معناه ••• ، الى ماهنالك من شروط وضعها للفظ المفرد وأعادها هنا مرة أخرى عند الحديث عن فصاحة الكلام المركّب •

ثم يتحدث عن أثر التقديم والتأخير في الكلام الفصيح، وعن دور التشبيه والاستعارة والكناية ، والمحسنات اللفظية والمعنوية والمبالغة الى غير ذلك من الشروط التي لا علاقة لها بالفصاحة • اضافة الى ادخاله عيوب القوافي من ايطاء وسناد، واقواء وغير ذلك من شروط فصاحة الكلام المنظوم في رأيه •

ولكي يتضح مفهوم الفصاحة عند الخفاجي أكثر فأكثر لا بد لي من أن أعقد مقارنة بينه وبين أحد أئمة البلاغـة المعاصرين لابن‌سنان ، كالامام عبدالقاهر الجرجاني الذي هو بحق شيخ البلاغيين بغير منازع ·

واذا كان ابن سنان قد قسم شروط‌الفصاحـة قسمين : قسماً يرجع الى اللفظ وحده ، وقسماً يعود الى التأليف ، فان عبدالقاهريقف‌على طرفي نقيض معه · فقد كان بفكره‌الكلي يجعل مدار الفصاحة على النظم الذي هو تلاؤم اللفظة مع أختها السابقة أو اللاحقة ولذلك « ينبغي أن يُنظر الى الكلمة قبل دخولهـا في‌التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التي بها يكون العلم اخباراً ، ونهياً ، واستخباراًوتعجباً،وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي‌لاسبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى كلمة ، وبناءلفظة على لفظة ، هل يُتصور أن يكون بين‌اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على‌معناها الذي وضعت له من صاحبتها ··· ؟ وهل تجد أحداً يقول : هذه اللفظة فصيحـةالا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها ، وفضــل مؤانستهـالأخواتها ؟ ! »(٣٤) ·

وممن أخذ برأي الجرجاني هذا ، يحيى‌بن حمزة العلوي في كتابـه « الطراز » حيث قـال : اعلم أن الألفاظ اذا كانت مركبـةلافادة المعنى فانها يحصل لها بمزية التركيب حظ" لم يكن حاصلا مع الافراد »(٣٥) ·

فلو كانت الكلمة حسنة من حيث هـي‌لفظ ، أو اتصفت بمزايـا الشرف والحسن على انفرادها دون النظر الى حالها مع أخواتها ، « لما اختلف بها الحال ولكانت امـا أن تحسن أبداً ، أو لا تحسن أبداً(٣٦) » ·

ولكن لا يعني هذا أن الفصاحة ــ عندالجرجاني ــ ليست سوى ضم الألفاظ بعضها الى بعض دون ترابط في المعنى لأنه « لو كان‌لمجرد الضم تأثير في الفصاحة لكان ينبغي اذا قيل : « ضحك خرج » أن يحدث من ضم" ضحك الى خرج فصاحة » ثم ان الفصاحـة ليست العلم بغريب اللغة ، وقواعد الاعراب‌أو ما طريقه طريق الحفظ دون الاستعانـة بالنظر والفكر اذ أننا « نقرأ السورةالطويلة‌من القرآن الكريم فلا نجد فيها من الغريب شيئاً ، ولو كانت أكثر ألفاظه غريبـة لكان‌محالا أن يدخـل ذلك في الاعجاز ، والعـرب ــ هم من هم ــ في العلم بغريب اللغة ،ولكان‌بامكانهم معارضته »(٣٧) ·

فالفصاحة تعود في رأيه أولا وأخيراً الى‌المعنى لأن « المزية التي مـن أجلهـا استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح" عائدة في‌الحقيقة‌الى معناه ، ولو قيل انها تكون فيه دون معناه ينبغي اذا قلنا في اللفظة : انها فصيحـة أن‌تكون الفصاحة واجبة لها بكل حال ·ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك فاننا نرى اللفظـة في‌غاية الفصاحة في موضع ، ونراها بعينهافيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة‌قليل ولا كثير »(٣٨) ·

وقد خالفه في رأيه هذا صاحب كتاب الطراز اذ قال : « فأما من زعم أن الفصاحة متعلقها اللفظ لا غير فقد أبعد ، فان الألفاظ لا ذوق لها ولا يمكن الاصغاء اليها الا لأجل دلالتها على معانيها ، وأبعد من هذا من زعم أن متعلق الفصاحة المعنى فقط فان المعاني انما توصف بالبلاغة »(٣٩) .

وواضح من هذا القول أن صاحب الطراز لا يخالف الجرجاني وحده ، وانما يخالف ابن سنان أيضاً . وكأنما يريد أن يخرج برأي هو مزيج من الرأيين .

والجرجاني حين ذهب مذهبه ذاك لم يكن ـ في اعتقادي ـ الا راداً على الرأي الذي قال به الجاحظ في كتاب الحيوان : « .. والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي ، والمدني . وانما الشأن في اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وصحة الطبع وجودة السبك »(٤٠) .

وحينما يتحدث الجرجاني عن الاستعارة والتشبيه والكناية فهو لا يتحدث عنها حديثاً يقف عند الظواهر الشكلية لهذه الأمور البلاغية . فالاستعارة ـ مثلا ـ تثبت معنى لا يعرفه السامع من اللفظ ، وانما يعرفه من معنى اللفظ فليس الغرض من قولنا : رأيت أسداً الا مساواة الرجل للأسد في شجاعته . والسامع حينما يدرك هذا المعنى لا يدركه من لفظ الأسد ، ولكنه يعقله من معنى هذا اللفظ لأنه يعلم « أن لا معنى لجعله أسداً ـ مع العلم بأنه رجل ـ الا أنه أراد بذلك بلوغه من شدة مشابهته للأسد مبلغاً يتوهم معه أنه أسد بالحقيقة »(٤١) .

والأمر نفسه بالنسبة الى الكناية ، ففي قولنا : « كثير الرماد » من الفصاحة والبيان ما لا يكون اذا قلنا: هو كثير القِرى والأضياف فاذا « نظرت الى الكناية وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها اثبات لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ » (٤٢) .

ومن الأمثلة التي يناقشها الجرجاني محاولا نفي الفضيلة عن اللفظ الا من خلال نظمه مع اخوته ، قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً(٤٣) اذ يتساءل عن السبب الذي حاز به الفعل « اشتعل » الفضل والمزية ؟! . يقول : « .. فان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس ـ الذي هو أصل المعنى ـ الشمول وأنه قد شاع فيه، وأخذ من نواحيه، وأنه استغرقه وعمّ جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا ما لا يعتد به . وهذا ما لا يكون اذا قيل : اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس . ووزان ذلك أنك تقول: اشتعل البيت ناراً فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه هذا التعبير من الشمول ما لا يعقل من اللفظ البتة ، وانما من اضافة الاشتعال للرأس معرّفاً ، وللشيب منكّراً .. »(٤٤) .

وفي الحقيقة ان البون شاسع بين مفهوم الفصاحة عند الجرجاني ، ومفهومها عند الخفاجي . وذلك على الرغم من اتفاقهما ـ أحياناً ـ في بعض الأمور ... فابن سنان

يبحث في الأدب من أدنى منازله وأقل جزئياته من صوت ومقطع ولفظ . لكن الجرجاني يذهب « مذهباً آخر في البحث البياني ، وينظر نظرة لاتعرف الا الكل نظماً مستوي الأجزاء، كامل الصفات ، وتنكر مكان الجزء انكاراً واضحاً ، ويصرّح بأن هذا الجزء لا أثر له في بناء العمل الأدبي »(٤٥) .

ان فكر عبدالقاهر ينطلق من نظرة كلية الى الأدب ، ولا يعد لأشلائه الممزقة أي تأثير . ولهذا فهو يحكم بتخطئة من قصر الفصاحة على اللفظ فقط من حيث هو أصوات منطوقة ، وما ذلك الا لأن المعاني هي التي تترتب في النفس أولا ، ثم تقفوها الألفاظ ، فلا « يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فاذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ ، وأنك اذا فرغت من ترتيب الألفاظ لم تحتج الى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم انها خدم للمعاني(٤٦) .

« ان الكلمة ثمرة الفكرة فمتى نضجت الفكرة سقطت كما تسقط الثمرة الناضجة ولكنها تسقط على كلمتها »(٤٧) ان الفكرة عندما تتصل الى تمامها تصيح بكلمتها ــ على حد تعبير أحدهم ــ .

وأخيراً أود أن أقول للدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ، الذي يقول :(٤٨) « ان كتاب « سر الفصاحة » أعمق كثيراً ، وأشمل فكرة ، وأوسع مدى ، وأبلغ بياناً من كتابي « دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة » أود أن أقول له : هذا قول مجانب للصواب ، فيه الكثير الكثير من التجني على امام فذ من أئمة العربية ، تشهد له أبحاثه على خصب ملكته العقلية ، وقدرته على الاقناع والبرهان . وقد أخذت نظرية النظم التي قال بها منذ مئات السنين تحتل مكان الصدارة بين النظريات اللغوية الحديثة ومن منا ينسى قوله تعالى : « أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض »(٤٩) ؟ ! .

□ الحواشي :

١ ـ ديوان علقمة الفحل ، ص ٥ .
٢ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص ١٢٦ .
٣ ـ الأغاني ، ج ١٠ ، ص ٢٨٩ .
٤ ـ تاج العروس ، مادة « فصح » وأساس البلاغة أيضا .
٥ ـ الآية ٣٤ من سورة القصص .
٦ ـ تاج العروس ، مادة « فصح » .
٧ ـ سر الفصاحة ، ص ٦٠ .
٨ ـ المصدر السابق ، ٦٥ ـ ٦٦ .
٩ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٦ .
١٠و١١ ـ التلخيص ، ص ٢٤ ، وعقود الجمان ، ص ٤ .
١٢ ـ الطراز ، ج ١ ، ص ١٠٧ .
١٣ ـ الطراز ، ج ١ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .
١٤ ـ الطراز ، ج ١ ص ١٠٨ .
١٥ ـ ديوان المتنبي ج ٢ ، ص ١٢٠ ، والاشارات والتنبيهات ، ص ٩ .
١٦ ـ سر الفصاحة ، ص ٧٥ . والجرشي : النفس .
١٧ ـ ديوان أبي تمام ، ج ٤ ، ص ٥٢٣ . ورواية الديوان : « بلا طائر سعد ولا طائر سهل » .
١٨ ـ ديوان أبي تمام ، ج ٣ ، ص ٢١٦ . ورواية الديوان : « في أوصاله » .
١٩ ـ ديوان أبي تمام ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ .
٢٠ ـ سر الفصاحة ، ص ٨٣ .
٢١ ـ ديوان المتنبي ، ج ٤ ، ص ٣٢٨ .
٢٢ ـ مغني اللبيب ، ص ٥٣١ .

٢٣ ـ سر الفصاحة ، ص ٩١ ٠
٢٤ ـ الأغـاني ، ج ١٤ ، ص ٥٥ ٠ وللبيت روايـة أخـرى :
« اقول لقوم ٠٠٠ » ٠
٢٥ ـ ديوان المتنبي ، ج ١ ، ص ٣٥٢ ٠
٢٦ ـ سر الفصاحة ، ص ٩٥ ٠
٢٧ ـ لسان العرب (عذق) ٠
٢٨ ـ سر الفصاحة ، ص ١٠٢ ٠
٢٩ ـ سر الفصاحة ، ص ١٢٥ ٠
٣٠ ـ ديوان المتنبي ، ج ٣ ، ٣٤ ٠
٣١ ـ سر الفصاحة ، ص ١٠٨ ٠
٣٢ ـ سر الفصاحة ، ص ١٠٩ ٠
٣٣ ـ الاغاني ، ج ١٤ ، ص ٥٥ ٠
٣٤ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٣٩ ٠
٣٥ ـ الطراز ، ج ١ ص ١٢٦ ٠
٣٦ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٤٢ ٠
٣٧ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ ٠
٣٨ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ٠
٣٩ ـ الطراز ، ج ١ ، ص ١٢٣ ٠
٤٠ ـ العيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ ٠
٤١ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٢٩٣ ٠
٤٢ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٢٩٢ ٠
٤٣ ـ الآية ٤ من سورة مريم ٠
٤٤ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٧٥ ، ٢٧٦ ٠
٤٥ ـ البيان العربي ، ص ١٤٩ ٠
٤٦ ـ دلائل الاعجاز ، ص ٤٥ ٠
٤٧ ـ نقلا عن الدكتور أحمد مطلوب ، ص ٣٠٢ ٠
٤٨ ـ انظر رأيه في العدد ٦٦ من مجلة الفيصل ٠
٤٩ ـ الآية ١٧ من سورة الرعد ٠

* * *

المصادر والمراجـع :

١ ـ أساس البلاغة للزمخشري ٠ تحقيق : عبد الرحيم محمود ـ دار المعرفة ـ بيروت (١٩٧٩) ٠
٢ ـ الاشارات والتنبيهات ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق د٠ عبد القادر حسين ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ٠ بلا ٠
٣ ـ الأغاني (ج ١٠ ، ج ١٤) نسخة مصور عن دار الكتب ـ نشر مؤسسة جمال للطباعة ـ بيروت ٠
٤ ـ البلاغة تطور وتاريخ ، د٠ شوقي ضيف ـ القاهرة(٩٦٥) ٠
٥ ـ البيان العربي ، د٠ بدوي طبانة ـ دار العودة ـ بيروت ـ(١٩٧٥) ٠
٦ ـ تاج العروس ، الزبيدي ٠ طبع مطابع حكومة الكويت ٠
٧ ـ تاريخ النقد العربي ـ طه أحمد ابراهيم ـ دار الحكمة ـ دمشق ـ ١٩٧٤ ٠
٨ ـ التلخيص ـ للقزويني بشرح عبدالرحمن البرقوقي ٠٠
٩ ـ دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق الدكتورين رضوان وفايز الداية ـ دار قتيبة دمشق ـ (١٩٨٢) ٠
١٠ ـ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيـــق :محمد عبد عزام ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ بلا ٠
١١ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت ـ الدكتور عبـد الحفيظ السلطي ـ مكتبة أطلس ـ دمشق ط ٣ ٠
١٢ ـ ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ـ تحقيق الخطيب والصقال ـ دار الكتاب العربي حلب ط ١ (١٩٦٩) ٠
١٣ ـ ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ٩٧٥ ٠
١٤ ـ سر الفصاحة ـ ابن سنان الخفاجي ـ تصحيح عبد المتعال الصعيدي ط ١ (٩٤٣) ٠
١٥ ـ الطراز ـ يحيى بن حمـزة العلوي ـ ج ١ ، مطبعـة المقتطف ـ القاهرة (١٩١٤) ٠
١٦ ـ عقود الجمان في علم المعاني والبيان جلال الدين السيوطي ـ المطبعة الشرقية ـ القاهرة (١٣٠٥ هـ) ٠
١٧ ـ القرآن الكريم ٠
١٨ ـ القزويني وشروح التلخيص ـ د٠ أحمد مطلوب ـ مكتبة النهضة ـ بغداد (٩٦٧) ٠
١٩ ـ لسان العرب ـ ابن منظور المصري ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ بلا ٠
٢٠ ـ المعلقات العشر ـ التبريزي ـ تحقيق د٠ فخر الديـن قباوة ـ المكتبة العربية ـ حلب (١٩٧٠) ٠
٢١ ـ مغني اللبيب ـ ابن هشام الانصاري ـ تحقيق د٠ مازن المبارك ـ دار الفكر ـ بيروت ٠
٢٢ ـ الموجز في شرح دلائل الاعجاز ـ د٠ جعفر دك الباب ـ مطبعة الجليل ـ دمشق (١٩٨٠) ٠

ابن بكران الحموي قاضي قضاة بغداد

٤٠٠ - ٤٨٨ هـ

محمد عدنان قيطاز

ربما كان ابن بكران الحموي المعروف بالشامي أول عالم تقدمه مدينة حماة الى بغداد حاضرة الدولة العباسية في القرن الخامس الهجري • فقد أسند اليه المقتدي بأمر الله ولاية قاضي القضاة ، وهي من الوظائف الرفيعة في الدولة ، ولا تسند عادة الا الى من كان عالماً جليل الخطر ، لا يخشى في الله لومة لائم • فمن هو ابن بكران الحموي ، وما هي مواقفه في القضاء •• ؟

يذكر أصحاب التراجم أن اسمه محمد بن المظفر بن بكران بن عبد الصمد بن سليمان الحموي ، وأن لقبه أبو بكر • وقد اقتصر ابن العماد الحنبلي على ترجمة مختصرة مرفوعة الى جده الأول بكران ، وبه شُهر • في حين يذكر ياقوت الحموي أن ابن بكران كان معروفاً بالشامي ، ومن المرجح أن هذه النسبة شاعت بعد نزوحه من حماة الى بغداد وظهور أمره فيها(١) •

وقد جاء في تاريخ ابن كثير قوله « أبو بكر الشاشي » منسوباً الى شاش من بلاد الترك ، وهذا من تحريف النساخ وأوهامهم ، وعنه نقل عبد الله مصطفى المراغي – وهو مؤرخ معاصر – من غير تحقيق مؤكداً هذا التحريف بقوله « ولد بشاش » مخالفاً بذلك كل ما ذكره أصحاب التراجم(٢) •

☐ حياته العلمية :

ولد ابن بكران في حماة سنة أربعمائة للهجرة ابان خلافة القادر بالله على بغداد وخلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي على مصر • ولم تكن بلاد الشام آنئذ مستقرة سياسياً ، فقد كانت مرة تحت نفوذ الفاطميين فيخطب فيها لخليفة مصر ، وتارة تحت نفوذ العباسيين

فيخطب لخليفة بغداد . وقد عاصر ابن بكران في بداية حياته أواخر أيام الفاطميين على بلاد الشام حيث خرجت حلب وأكثر بلادالشام عن سلطتهم بعد وفاة الحاكم بأمرالله في مصر(٣) .

ويبدو أن أسرة ابن بكران كانت علىجانب من العلم والمال ، مما أتاح له قدراً من المعرفة في علوم الدين والعربية منذ طفولتهالأولى . ولما شب عن الطوق نهد الى بغداد لاستكمال ثقافته الدينية ، وكانت بغداد فيذلك الوقت عاصمة العلم والدين والأدب ، ومركزاً حضارياً في الشرق العربي ينتجعهطلاب المعرفة من كل مكان .

والمصادر التي بين أيدينا لا تحدد سنةرحيله الى بغداد طلباً للعلم ، غير أن سنة وفاة بعض شيوخه البغداديين تجعلنا نميل الى القول ان وفادته الى بغداد كانت قبل سنة ٤٢٨هـ أي بعد أن بلغ ابن بكران مبلغ الرجال ،وأصبح قادراً على حضور حلقات أهلالعلم، ومجالس العلماء الأفذاذ الذين عرفتهمبغدادفي النصف الأول من القرن الخامسالهجري. وقد ذكر أصحاب التراجم(٤) نفراً من شيوخهأمثال :

- أبي عمر عثمان بن دوست(٥) .
- وأبي القاسم بن بشران (٦) .
- وأبي طالب بن غيلان(٧) .
- وأبي الحسن العتيقي (٨) .

وقد سمع من العتيقي كتاب الضعفاء لأبي جعفر العقيلي ، وحدث به في بغداد فيما بعد . كما أخذ عن القاضي أبي الطيبالطبري ، وصحبه وانتفع به حتى وفاتهسنة ٤٥٠ هـ وقد جاوز المائة .

ويذكر محمد بن عبدالملك الهمذانيأنابن بكران كان حافظاً لتعليقة القاضي أبي الطيب كأنها بين عينيه(٩) . ويروي ابنالعماد الحنبلي أن ابن بكران قال للقاضي أبي الطيب وقد عُمِّر طويلا : لقد مُتِّعتبجوارحك أيها الشيخ .. اشارة الى سلامة أعضائه وما يعتري أمثاله من الضعفوالخورفي حالة الشيخوخة المتقدمة . ولم يكنجواب الطبري الا قولا مقتضباً يخفي في ثناياهاعتداداً بما أوتي من قوة في الجسم وبسطة في العلم ومعرفة لحقوق الله : ولِمَ لا ...وما عصيت الله بواحدة منها قط(١٠) .

ولما استكمل ابن بكران علمه الجم علىمذهب الامام الشافعي ، وأصبح فيه اماماً ، تصدر مجالس الفقه والحديث في بغداد ،واجتمع حوله خلق كثير ممن وفدوا اليها يجتدون من جهابذتها ما كان ابن بكران قداجتداه من قبل ، وقد لازم مسجده خمساً وخمسين سنة يقرىء الناس ويفقههم(١١) ،فسمع منه العراقي والشامي والحجازي والأندلسي والأصبهاني والهمداني والسمرقندي ،ورووا عنه ما كان يرويه عن أشياخه

أولي الفضل • ويذكر أصحاب التراجم نفراً من طلابه الذين أخذوا عنه ، وأصبحوا أئمة من بعده أمثال :

- أبي علي بن سكرة(١٢) •
- وهبة الله بن طاووس(١٣) •
- واسماعيل بن محمد الاصبهاني(١٤) •
- وأبي القاسم ابن السمرقندي(١٥) •

وغيرهم كثير من أكابر أهل العلم • وقد جاء في كتاب الأنساب للسمعاني قوله : روى لنا عنه كثير بن سعيد بمكة وعبدالوهاب بن المبارك ببغداد(١٦) •

ومن الواضح أن اقامته في بغداد قد مهدت له سبيل الظهور والتفوق حتى بلغ صيته مجلس الخليفة المقتدي بأمر الله ، وعندما توفي قاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني سنة ٤٧٨ هـ أشار أبو شجاع وزير المقتدي بولاية ابن بكران على القضاء ، ولكنه امتنع ، فما زالوا به حتى رضي ، وشرط أن لا يأخذ رزقاً ، ولا يقبل شفاعة ، ولا يغير لباساً ، فأجيب الى ذلك • وقد أُثر عنه قوله : ما دخلت في القضاء حتى وجب علي(١٧) •

وجدير بالذكر أن للقاضي لباساً خاصاً به هو « الطيلسان » يميزه من سائر الناس، وكان له راتب يقدر بحوالي خمسمائة دينار في الشهر ، وهو مبلغ رفضه ابن بكران تورعاً وتقوى ، في حين كان يلهث خلفه كثير من الطامعين ، واكتفى من المال بكراء بيت له لا يزيد عن دينار ونصف ينفقها على طعامه ولباسه ، ولم يكن طعامه سوى فتيت من الخبز في الماء مستغنياً بهما عن أطايب الطعام والشراب • أما لباسه فكان قميصاً من القطن الخشن وعمامة كتان ، يخلعهما في مجلس القضاء ويرتديهما بعد انقضائه • ويذكر محمد بن عبدالملك الهمداني أن ابن بكران لم يقبل من سلطان عطية ، ولا من صديق هدية ، وعاش حياته عفيفاً زاهداً ، محمود السيرة ، نقي السريرة(١٨) •

وقد عرفت حماة عدداً من القضاة الذين رفضوا أن يأخذوا على أحكامهم أجراً معلوماً من بيت مال المسلمين نذكر منهم : القاضي ابن رزين الحموي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ(١٩) والقاضي شرف الدين البارزي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ(٢٠) وبذلك يكون ابن بكران قد سن سنّة في الزهادة والتقوى لمن ولي القضاء من أهل حماة ، وأصبح قدوة في العفة والعدالة والورع •

☐ من مواقفه القضائية :

أجمع أصحاب التراجم على عدالة ابن بكران ونفوذ أحكامه ، وجرأته في اقامة الحق وابطال الباطل ولو أدى الى غضب السلطان • ويذكر ابن النجار أنه كان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم ، ويقيم جاه الشرع من غير محاباة أو مداراة • كما يذكر ابن كثير في تاريخه أن فقيهاً فاضلا من أهل مذهبه شهد عنده فلم يقبله ، فقال : لأي شيء ترد شهادتي

وهي جائزة عند كل حاكم الا أنت ؟ فقال له: لا أقبل لك شهادة ، فاني رأيتك تغتسل في الحمام عرياناً غير مستور العورة ، فلا أقبلك (٢١) ٠

وربما لجأ ابن بكران الى ضرب بعض المنكرين حيث لا بينة ، اذا قامت عنده قرائن التهمة حتى يقروا ، ويذكر أن في كلام الشافعي ما يدل على هذا ، وقد صنّف كتاباً في ذلك ، ونصره ابن عقيل(٢٢) امام الحنابلة في زمانه فيما كان يتعاطاه من الحكم بالقرائن، واستشهد له بقوله تعالى « ان كان قميصه قُدَّ من قُبُل »(٢٣) ٠

وقد حدث مرة أن جاء الخليفة المقتدي بأمر الله الى مجلس ابن بكران وادّعى شيئاً ، وقال : بينتي فلان والمشطّب الفرغاني الفقيه ٠ فقال ابن بكران : لا أقبل شهادة المشطب لأنه يلبس الحرير ٠ فقال الخليفة: السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك يلبسانه٠ فأجاب ابن بكران : ولو شهدا عندي ما قبلت شهادتهما أيضاً(٢٤) ٠ فما كان من الخليفة الا أن غادر مجلس الحكم غاضباً محنقاً ، مما أثار حول ابن بكران عاصفة من النقد والغضب ، وأرجف به المرجفون ، وألصقوا به الأحاديث الملفقة ، بل ان الخليفة العباسي منع الشهود من حضور مجلسه ، فاضطر ابن بكران الى التزام بيته ٠

ويبدو أن خصومه أشاعوا عزله عن القضاء ، فأعلن ابن بكران رفض العزل حتى يتحقق عليه الفسق ٠ وأتاه القاضي أبويوسف القزويني المعتزلي مستغلا سخط الخليفة قائلا : ما عزلك الخليفة ، انما عزلك النبي ﷺ ٠ قال ابن بكران : كيف ذلك ؟ قال القزويني: لأنه قال لايقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان ، فأنت طول عمرك غضبان ٠

ولكن ابن بكران لم يحفل بسخط الخليفة المقتدي بأمر الله ، وسخط من حوله ، وظل ثابتاً ملازماً للحق ، لا يخشى في الله لومة لائم ٠٠ حتى انقاد الخليفة لحكمه ، وخلع عليه تسلية وترضية ، واستقام أمره بعد ذلك(٢٥)

☐ آثاره العلمية :

لم يذكر أصحاب التراجم أية آثار علمية لابن بكران ، غير أن ابن النجار يشير الى كتاب مفرد يحمل اسم « البيان في أصول الدين »(٢٦) كما أشار اليه اسماعيل باشا البغدادي(٢٧) ٠

ومن المرجح أن ابن بكران كان منصرفاً الى حلقات الدرس وجلسات القضاء، لا يصرفه عنهما صارف ، وهذا ما يجعلنا نقول بندرة مؤلفاته ٠ على أننا لا نستطيع أن نقطع بذلك ، لأن هجمة المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ لم تبق في مكتباتها من تراث العرب الضخم الا القليل ٠ ومهما يكن من أمر فان ابن بكران لم يأل جهداً في ايصال المعرفة الى طلابها القادمين الى بغداد من مختلف الأصقاع والأمصار كما رأينا من قبل ٠

أقوال العلماء فيه :

تحدث العلماء عن ابن بكران ، وأثنوا عليه بما هو أهل له :

- قال ياقوت الحموي : كان من صالحي القضاة ... وكان لا يخاف في الله لومة لائم(٢٨) .
- وقال ابن السمعاني : كان ورعاً زاهداً متقناً ، جرت أحكامه على السداد(٢٩) .
- وقال أبو علي بن سكرة : لو رفع مذهب الشافعي أمكنه أن يمليه من صدره(٣٠) .
- وقال الحافظ الذهبي : كان من أزهد القضاة وأورعهم وأتقاهم لله ، وأعرفهم بالمذهب(٣١) .

وفاته :

بقي ابن بكران في ولاية القضاء عشر سنين ، عاصر خلالها طرفاً من خلافة المقتدي، وخلافة ابنه القائم بأمر الله ، وخلافة المستظهر بالله ، ومات في أيامه سنة ٤٨٨ هـ باتفاق أصحاب التراجم ، وعمره ثمان وثمانون سنة ، ودفن في بغداد بالقرب من ابن سريج(٣٢) . وطويت بموته صفحة مشرقة من صفحات القضاء الاسلامي المجيد في ظل الدولة العباسية .

* * *

حواشي البحث :

١ ـ معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ ، طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ . ويذكر صاحب الأنساب جده الرابع باسم « سلمان » انظر ٤ : ٢٢٩ .
٢ ـ البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ ، الفتح المبين ١ : ٢٦٨ .
٣ ـ تاريخ الخلفاء : ٤١٥ .
٤ ـ الأنساب ٤ : ٢٢٩ ، طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ ، معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ ، العبر ٣ : ٣٢٢ .
٥ ـ أبو عمر البغدادي : عثمان بن محمد بن يوسف بن دوستصدوق المتوفى ٤٢٨ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٣٨) .
٦ ـ أبو القاسم بن بشران : عبدالملك بن محمد بن عبدالله بن بشران بن محمد الأموي مسند وقته ببغداد : توفي سنة ٤٣٠ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٤٦) .
٧ ـ أبو طالب بن غيلان : محمد بن محمد بن ابراهيم بن غيلان الهمداني البغدادي البزاز مسند العراق ، توفي سنة ٤٤٠ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٦٥) .
٨ ـ أبو الحسن العتيقي : أحمد بن محمد بن أحمد البغدادي التاجر السفار ، المحدث ، توفي سنة ٤٤١ هـ (شذرات الذهب ٣ : ٢٦٥) .
٩ ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ .
١٠ ـ شذرات الذهب . ٣ : ٢٨٤ .
١١ ـ البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ .

١٢ ـ أبو علي بن سكرة هو الحافظ الكبير حسين بن محمود بن فِيُّرة بن حيون الصدفي السرقسطي الأندلسي ، سمع ببغداد ودمشق ، وعاد الى بلاده بعلم جم ، توفي سنة ٥١٤ هـ (شذرات الذهب ٤ : ٤٣) .
١٣ ـ هبة الله بن احمد بن عبد الله بن طاووس ، أبو محمد البغدادي امام جامع دمشق ، توفي سنة ٥٣٦ هـ (شذرات الذهب ٤ : ١٤) .

١٤ـ الحافظ الكبير اسماعيل بن محمد بن الفضل ، أبو القاسم التيمي الطلحي الأصبهـاني ، امام في التفسير والحديث واللغة والأدب ، عارف بالمتون والأحاديث ، توفي سنة ٥٣٥هـ (شذرات الذهب ٤ : ١٠٥) .
١٥ـ أبو القاسم اسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعثالمعروف بابن القاسم ابن السمرقنـدي . توفي سنة ٥٣٦ هـ (شذرات الذهب ٤ : ١١٢) .
١٦ـ الأنساب ٤ : ٢٢٩ .
١٧ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ .
١٨ـ تاريخ التمدن الاسلامي ٢ : ١٤١ بالاضافة الى المرجعينالسابقين .
١٩ـ تاريخ حماة : ١٣٥ .
٢٠ـ المرجع السابق : ١٤٤ ، وفي مجـلة التراث العـربي ـالعدد ١٨ دراسة مفصلة عن حياته العلمية وآثاره .
٢١ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ .
٢٢ـ أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي شيخ الحنابلة ومؤلفكتاب الفنون الذي يزيد على اربعمائة مجلد، كان اماما مبرزا، خارق الذكاء ، عديم النظير . توفي سنة ٥١٣ هـ (شذراتالذهب ٤ : ٣٥) .
٢٣ـ البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ .
٢٤ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ ، وفي البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ لا يـرد ذكـر الخليفـة ، ويكتفـي برد شهـادة المشطب بن احمد الفرغـاني .
٢٥ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ .
٢٦ـ شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ .
٢٧ـ هدية العارفين ٢ : ٧٦ .
٢٨ـ معجم البلدان ٣ : ٣٣٦ .
٢٩ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٣ ـ ٨٤ .
٣٠ـ المرجع السابق .
٣١ـ العبر ٣ : ٣٢٢ ، شذرات الذهب ٣ : ٣٩١ .
٣٢ـ طبقات الشافعية ٣ : ٨٤ وفي البداية والنهاية ١٢ : ١٥١ابن شريح ، وما ذكره صاحب الطبقات هو الأشهر .

المراجـع :

١ ـ الأنساب : عبد الكريم بن محمد السمعاني ـ تحقيـق :عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليمـاني ـ الطبعة الثانيـة ـ بيـروت ١٩٨٠ .
٢ ـ البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير الدمشقي ـ الطبعةالخامسة بيروت ١٩٨٣ .
٣ ـ تاريخ التمدن الاسلامي : جورجي زيدان ـ الطبعة الثانية ـ مصر .
٤ ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي ـ تحقيق : محييالدين عبد الحميد الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٦٤ .
٥ ـ تاريخ حماة : أحمد الصابوني ـ الطبعة الثانية ـ حماه١٩٥٦ .
٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي ـطبعة دار المسيرة (مصورة) ـ بيروت ١٩٧٩ .
٧ ـ طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي ـ الطبعـةالأولى مصر .
٨ ـ العبر في خبر من عبر : الحافظ الذهبي ـ تحقيق فـؤادسيد ـ الكويت ١٩٦١ .
٩ ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين : عبد الله مصطفى المراغي ـ الطبعة الثانية ـ بيروت ١٩٧٤ .
١٠ـ اللباب في تهذيب الأنساب : عز الدين بن الأثير الجزري ـطبعة دار صادر بيروت .
١١ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي ـ الطبعة الأولى ـ مصر١٩٠٦ .
١٢ـ هدية العارفين : اسماعيل باشا البغدادي ـ طبعة مصورةعن طبعة استانبول ـ بيروت ١٩٥٥ .

الدوريات :

١ ـ مجلة التراث العربي : العدد ١٨ كانون الثـاني ١٩٨٥(مقال : شـرف الدين البارزي ـ حياتـه العلمية وآثـاره ـ محمد عدنان قيطاز) .

الطواف حول البحر الأحمر

وثيقة يونانية فريدة من القرن الأول الميلادي
الإمبراطورية الحميرية العظيمة
ونفوذ عرب الجنوب في البر والبحر

ابراهيم خوري

عبَّر الاغريق بلفظي « ارثره ثالته » Erythra thalatta ou thalassa (١) عن مجمع الماء المترامي الأطراف الذي يمثل في عرفنا المعاصر المحيط الهندي وذراعيه « البحر الأحمر » و « الخليج » ٠ ولا يحيد مؤلف «الطواف حول ارثره ثالته » عن هذا الاصطلاح. وتنفرد رسالته القصيرة ، القيمة بموضوعها، وان كانت تماثلها تصانيف يونانية عديدة، تحمل عناوين تشبه عنوانها ، تناولت شؤون بحار أخرى ، وتوالى تحريرها على مدى سبعة قرون ، من القرن الخامس ق٠م٠ الى القرن الثاني بعده ، نذكر منها « الطواف حول افريقية » لحنون القرطاجني (القرن الخامس ق٠م٠) المصنف باللغة القرطاجنية والمحفوظة بترجمته اليونانية فقط و«الطواف حول أوربة وآسية وافريقية » لمنسياس تبارة (القرن الثاني ق٠م٠) ، و « الطواف حول البحر الداخلي » أي البحر المتوسط ، لمينيبس البرغامي (مطلع القرن الاول الميلادي) ، و « الطواف حول بحر أوكسينس» أي البحر الأمين يعني البحر الأسود لأريانس (القرن الثاني الميلادي) ٠ ولم تثر جميع هذه المصنفات ما أثاره « الطواف حول ارثره ثالته » من جدل لم يحسم بعد ، انصب على اسم البحر وتاريخ التصنيف ، وكاتبه ، ومضمونه ٠ ويحسن بنا الاطلاع على هذه القضايا قبل قراءة متن المخطوطة النفيسة ٠

أولا ـ قضية تسمية المحيط الهندي « ارثره ثالته » ومناقشة اغترخيذس لها :

لم يعرف جغرافيو اليونان ولا ملاحوهم المحيط الهندي في العصور القديمة الأولى ٠ وسمع الأغارقة باسمه أول مرة من مؤرخهم هيرودوتس في القرن الخامس ق٠م٠ ، مع ان بحَّاراً يحمل اسم **سكيلاس** اليوناني عمل في جيش داريوس الأول وقام برحلة بحرية استطلاعية قادته من الخليج الى شاطىء السويس، كما قام نيارخس برحلة بحرية استطلاعية أخرى استكشف فيها الساحل من مصب نهر الهندوس الى مصب نهر الفرات العتيق في أثناء حملة

الاسكندر العسكرية على الامبراطوريـــــة الفارسية • وبقيت معارفهم عنه سماعية حتى جاء اغترخيذس الكنيدسي في عهد بطليمس فيلومتر (١٨١ ـ ١٤٦ ق٠م٠) وناقش تسمية هيرودوتس • ثم اتى بعده افذوكس السيزيكي في أيام بطليمس افرجيتس (١٤٦ ـ ١١٧ ق٠م٠) ، وكان أول يوناني يصل بحراً الى الهند • بالتالي لم يمخر الأغارقة عباب المحيط الهندي أو فروعه الا في منتصف القرن الثاني : ق.م. ، وحصلوا سماعاً من الفينيقيين والفرس على كل ما رُوي علـى لسانهم قبل هـذا التاريخ • وتؤيد الوثائق اليونانية هـذه الاقوال • فلا بـد اذن مـن التسليم ان تسمية « **ارتره ثالثه** » أقدم منهم لا سيما انهم كانوا ما زالوا يناقشون مدلولها في القرن الثاني ق٠م٠

آ ـ هيرودوتس مدون تسمية « ارثره ثالثه »

والدليل على هذا القدم ورودها لأول مرة عند هيرودوتس (حوالي ٤٩٤ ـ حوالي ٤٢٠ ق٠م٠) في سيـاق كلامـه عـن دورة الفينيقيـين حـول قارة افريقيـة • قـال هيرودوتس :

« نحن نعرف أن البحر يغمر شواطيء ليبيـة (يقصد قارة افريقيـة) مـن جميع جهاتها ما عدا مكان التصاقها بقارة آسية • وكان فرعون مصر نكاو أول مـن قام بهـذا الاكتشاف ، بعدما كفّ عـن شق القناة التي كان قد باشر فتحها بين نهر النيل والخليـج العربي (يعني البحر الأحمر الحالي) ، وأنزل الى البحر عدداً من السفن اختار لها ملاحين فينيقيـين ، وأمرهـم أن يبحروا الى مجـاز هيراقليس ، ويرجعوا الى مصر مارين بـه وبالبحر المتوسط • فانطلق الفينيقيون من مصر عن طريق « ارثره ثالثـه » ، ودخلوا الاقيانس الجنوبي • وعندما جاء الخريف ، نزلوا الى البر حيثما وصلوا ، وبذروا قمحاً في حقل من الأرض ، وانتظروا حتى أينـع وحصدوه • ثم استأنفوا مسيرهم • وانقضت سنتان كاملتان على سفرهم • ولم يعرّجوا على مجاز هيرقليس الا في السنة الثالثة • وأنجزوا رحلتهم البحرية وعادوا • وأعلنوا بعـد رجوعهم ـ لكـن أنا لا أصدقهم ـ ان الشمس كانت على يمينهم عندما داروا حول ليبية (افريقية) • وعلى هـذا النحـو ، اكتشف امتداد ليبية لأول مرة(٢) •

ب ـ وصول بحارة أغارقة مجندين الى فروع ارثره ثالثه •

١ ـ رحلة سكيلاكس البحرية :

كذلك تحدث الرحالة الكبير هيرودوتس نفسه ، بمنتهى الايجاز ، عـن ملاح يوناني اسمه سكيلاكس ، ولد في مدينة كريانده (من كارية في آسية الصغرى علـى بحر ايجه) ، وعاش في القرن السادس ق٠م٠ ، كلّفـه داريـوس الأول (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق٠م٠) باستكشاف مجرى نهر الهندوس حتى مصبه • ففعل ، ثم قام في وقت لاحق سنة ٥٠٨ ق٠م٠ على الأرجـح ، باستكشاف سواحـل جزيرة العرب الجنوبية وسواحل البحر الأحمر الحالي

حتى مصر ، وقد اتجه من الشرق الى الغرب وانطلق من الخليج ، ووصل الى السويس ٠ وهذه روايته :

« أراد داريوس أن يعرف أين يصب نهر الهندوس في البحر ، فأنزل فيه سفناً قادهـا سكيلاكس الكرياندي وسواه ممن يثق بكلامهم. فجروا من مدينة كسباتيوس ، ونزلوا في النهر صبباً باتجاه الشرق ومطلع الشمس حتى بلغوا اليم ٠ ثم ساروا فيـه نحو الغرب ، ووصلوا في الشهر الثالث عشر الى المكان (القريب من السويس الحديثة) الذي أرسل منه الفرعون نكاو الفينيقيين المذكورين من قبل ليدوروا حول ليبيـة (افريقية) ٠ ثم أخضع داريوس الهنود بعد انجاز سكيلاكس رحلته واستخدم البحر » ٠

وقد اكتشف نقش مسماري قرب السويس يؤيد استكشاف سكيلاكس ، وفيه اشارة صريحة الى اصلاح داريوس قناة النيل القديمة لوصل مصر بفارس عن طريق البحر ٠ وهذا نصه : « أمرت بشق هذه القناة من النيل ٠٠٠ الى البحر الذي يمتد الى فارس ٠ فتم ما أمرت به ، وأبحرت السفن فيها ، وذهبت من مصر الى فارس ، تنفيـذاً لارادتي »(٣) ٠ اذن ، عرف الفرس شيئاً عن أرثره ثالته في أواخر القرن السادس ق٠م٠ فقط ٠

٢ ــ رحلة نيارخس البحرية :

كذلـك ، أدت فتوحات الاسكندر في الشـرق الى اعطـاء اليونان لأول مرة فكـرة محدودة عـن المحيط الهندي الشمالي وعن الخليج ٠ فقـد قاد نيارخس واونيزيكريتس رئيس ربابنة سفنـه ، أسطول ذي القرنـين بسلام من مصب نهر الهندوس الى ديريدوتس عند مصب نهر الفرات العتيق ، فسوس (سلوقية العهد الهلنستي) ٠ وبدأت الرحلـة في شهر ايلول سنة ٣٢٥ ق٠م٠ على الأرجح من جزيرة كلتوته التي كانت واقعة على ذراع الهندوس الغربية ، لكنهـا توقفت حتى آخر تشرين الأول أو منتصف تشرين الثاني في أحد المراسي غربي مدينة كراتشي ، حتى هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي كان يجهلهـا الأغارقة ٠ واستغرقت خمسة أشهـر تضمنت توقف ٢٤ يومـاً في مرسى الاسكندر و ٢١ يوماً في مصب نهر سيتاكس ، وقيل أقل وقيل أكثر حسب المؤرخين ٠

مهما يكن ، تمثّل رحلة نيارخس عملا عسكرياً يونانياً ، كما مثّلت رحلة سكيلاكس عملا عسكرياً فارسياً وتثبت الرحلتان كلتاهما ان فارس واليونان بقيتا تجهلان « أرثرة ثالته » حتى هذا التاريخ ٠ وسوف نرى ان اليونان اخذوا يتعرفون عليه في عهد بطالسة مصر ٠

ج ــ تعرّف اليونان على أرثره ثالته في عهد بطالسة مصر :

حكم البطالسة مصر بعد وفاة الاسكندر ، واهتموا باستكشاف الآفاق البحرية بينهـا وبين جزيرة العرب وافريقية الشرقية والهند على ثلاث مراحل دامت كل منها قرناً كاملا ٠

١ ـ المرحلة الأولى (٣٢٣ ـ ٢٢٢ ق٠م٠):

ففي غضون المائة سنة الأولى (٣٢٣ ـ٢٢٢ ق٠م٠) ، في عهد البطالسة الثلاثة الأول (سوتر ، فيلاذلفس ، الفرجتيس الأول) تركز نشاطهم البحري على استطلاع البحر الأحمر الحالي وبناء المدن الساحلية ، وشق قناة النيل ـ البحر الأحمر ٠ وأولى بطليمس فيلاذلفس (٢٨٣ـ٢٤٦ قم٠) هـذه الأعمال عناية كبرى٠ فبدأ بترميم قناة النيل القديمة التي تصل بوبستي (الزقازيق) على ذراع بيلوزيوم (الفرما) بخليج هيروو بوليت أي خليج السويس ٠ وكان الفرعون سيتي الأول قد شقها في القرن الرابع عشر ق٠م٠ وأصلحها نكاو الثاني في القرن السادس ق٠م٠ ونظفها داريوس الأول في أواخره٠ وعمَّقها فيلاذلفس وأعاد وصلها بالبحر الأحمر حوالي ٢٧٤ ق٠م٠(٤) ، وأسس مدن ارسينويي (اسم زوجته) ، وميوس أورمس ، وبرنيكي (اسم والدته) ، وبتوليمايس الصيد ٠

٢ ـ المرحلة الثانية (٢٢١ ـ ١١٧ ق٠م٠):

وفي أثناء المائة عام الثانية ، في عهود البطالسة الأربعة التالين (فيلوباتر، ابيفانيس فيلومتر ، افرجتيس الثانـي) ، استُكشفت جزيرة سقطرة وساحل جزيرة العرب حتى جزيرة سرابس (مصيرة) ٠ وفي أيام فيلوميتر (١٨١ ـ ١٤٦ ق٠م٠) عاش اغثرخيذس الكنيدسي ، وعاصر افدووكس السيزيكي افرجتيس الثاني (١٤٦ ـ ١١٧) ٠

مناقشة اغثرخيذس تسمية (أرثرة ثالته » : البحر الأحمر ، بحر ارتراس ، بحر الحمر ، بحر حمير ٠

صنَّف اغثرخيذس مؤلفاً عنوانه « أرثره ثالته » ، فُقد لكن حفظ البطريرك البيزنطي فوتيوس (حوالي ٨٢٠ ـ حوالي٨٩٥) مقاطع منـه في مصنفـه الكبـير « ميريوبيليون » يهمنا منها مناقشة تسمية(ارثره ثالته) في الكتاب الأول ، الفقرات ٢ـ٥ ٠ قال فوتيوس ملخصاً اغثرخيذس :

٢ ـ لم يُسمَّ « ارثره ثالته » بهـذا الاسم لأن أشعة الشمس النارية النافذة تسقط على الجبال الغربية الواقعة على ساحل الخليج العربي (البحر الأحمر حالياً) ، فينشأ ما يشبه الفحم الملتهب ، في حين تقوم أكوام الرمال والأرض الحمراء المنتشرة على ساحله الشرقي بتلوين مياه البحر بالحمرة على مسافة عدة ستاديونات عن الشاطىء ٠ يقول اغثرغيذس : لم يُسمَّ أرثره ثالتـه بهـذا الاسم لهذا السبب البتة ، لأن الأشعة الهابطة من جانبي الخليج العربي تجعل البحر يشبه البر ـ ويستطيع جميع الناس أن يلاحظوا هذا الوضع ، وان لم يتوصلوا الى تعليله ـ حتى لو كان الممر الصالح للملاحة ضيقاً وتنتأ قمم وروابٍ من البر مشرفة عليه ٠ مع ذلك ، لم يؤخذ اسم هذا البحر من هذه الظاهرة ، رغم أن مصنفين عديدين فكروا هذا التفكير نفسه قبل اغثرخيذس ٠

٣ ـ اذن هذا هو التفسير الأول الذي شُرحت به تسمية ارثره ثالته مع انـه غـير صحيح ٠ وهنالك تفسير ثان خاطىء أيضاً ، يقول ان أشعة الشمس عندما تشرق في تلك

الأرجاء لا تهبط صافية على البحر كما هي الحال عندنا ، بل حمراء بلون الدم ،فيتصور الناظر ان لون البحر أحمر ، وبالتالي سمّي البحر ارثره ثالته ٠

٤ ـ ويأتي التفسير الثالث من بند أرغولس في اليونان على حد قول اغثرخيذس٠ وهو تعليل جريء جداً لكن لا يستند الى أي أساس ٠ فمدرسة دينياس تذرعت «بالجواز الشعري » ، فزعمت أن برشاوش أبحر من ارغس الى أثيوبية (التي كانت تسمى كيفينية) ليحرر كريمة قيفاوس ، ثم عبر منها الى فارس ، وأعطى الفرس اسم أحد أنجاله ليعلم ابنه ارثراس بمجيئه ، فسمى البحر باسمه٠ هذه رواية ارغولس غير المعقولة عن تسمية ارثره ثالته ٠

٥ ـ التفسير الخامس (هكذا ورد بلا رابع) والصحيح ، سمعه اغثرخيذس من رجل فارسي يدعى بوكسوس ، غادر وطنه واستقر في أثينة وتعلم أن يفكر ويتحدث مثل أي مواطن يوناني ٠ وهاك ما قاله : اشتهر رجل فارسي بشجاعته وثرائه في قديم الزمان ، وكان اسمه « ارثراس » واسم والده موزيوس ٠ وكان يسكن منزلا لا يبعد عن البحر، مقابل جزيرتين عامرتين ، كانتا خاليتين من السكان في عهد امبراطورية ميدية ، عندما عرفهما (ارثراس) الذي اعتاد أن يقيم في العاصمة بازارغادي في الشتاء ، وأن يرجع الى بيته في الربيع راضياً بهذا التنقل ليبتهج ويجني أرباحاً ٠ وكان يملك رعيلا صغيراً من الحجور ، هاجمته الأُسْد في أحد الأيام وقتلت بعضها ٠ فارتعب ما تبقى من مشهد القتل ، وازعجته النعرات ، فاندفع نحو الشاطىء الذي كانت تهب عليه ريح عاتية آتية من البر ، وألقى بنفسه في البحر في غمرة شروده، وسبح بموازاة الشاطىء لكن لم يخفّ رعبه، فجرفته قوة الأمواج ووصل بصعوبة الى الجزيرة بسلام ٠ وعبر معه سائس مقدام متشبثاً بكاهل هذه الحجر أو تلك ٠ ثم فتش « ارثراس »عن حجوره المفقودة ، وصنع طوقاً ، وكان أول من عمله في تلك النواحي ، ودفعته الأمواج بسرعة فعثر على حجوره وعلى سائسها٠ وأولع بالجزيرة فبنى فيها مرسى أميناً ، ونقل اليها من البر المعوزين ، ثم وضع مستوطنين آخرين في باقي الجزيرة غير المعمور بالفقراء ٠ وشهرته هذه الأعمال الى حد عظيم حتى ان هذا البحر المترامي الأطراف صار يعرف ببحر«أرثراس» حتى أيامنا الحاضرة ٠ وتعليل هذه التسمية لغوياً يقتضي ادراك الفرق الكبير بين « أرثره ثالته » أي « بحر ارثراس » وبين « ثالته ارثره » أي البحر الأحمر ٠ فالاشتقاق من اللون مغلوط بينا الاشتقاق من اسم الرجل الذي حكم الجزيرة صحيح،كما جاء في التفسير الفارسي ٠

لم يأخذ أحد بتعليل اغثرخيذس ولا برأيه ٠ وتُستغرب حجته اللغوية الخاطئة التي يرجح انها دُسّت في نصه ، لأنه يوناني يعلم جيداً أن البحر مؤنث بلسانه (ثالته)، فيجب أن يؤنث نعته (أرثره) ، ويوضع النعت قبل المنعوت به في معظم الحالات(ارثره ثالته) وبعده أحياناً (ثالته ارثره) :فالتعبيران يؤديان المعنى ذاته : حرفياً « البحر الأحمر » باللغة اليونانية ٠ بالتالي، بقي اللون أساس التسمية ، وانتقل الى التسمية اللاتينية في عهد الرومان ، فقال العالم الطبيعي بلينيوس (٢٣ـ٧٩ميلادية):

« نحن نسميه ــ أي البحر ــ « ماري روبروم» (= أحمر) »(٥). وجاء في المعاجم اللاتينية « ارترايوم ماري » Erythaeum mare لكن قطعاً لم يُقصد لون مياه البحر ، بل يدل هـذا الاستعمال المجازي على شعب أو قوم أعطى اسمه لليم ، كما يقال اليوم « الجيش الأحمر » للجيش السوفياتي ، مما دفع ادوارغلازر وفريتزهومل الى افتراض هجرة بشرية قادت الفينيقيين من عيلام الى جزر البحرين، ثم الى جنوبي جزيرة العرب مخلفين وراءهم وصف أماكن عديدة بصفة « أحمر » ، منها البحر الذي كان يغمر شواطئهم ويحمل سفنهم • في هـذه الحالة يتحتم اداء « ارثره ثالته » ببحر الحُمر » « أو بحر الفينيقيين» المشهورين أصلا باللون الارجواني • أخيراً يرى المستشرق الألماني هرمان هيرت (١٨٦٥ ــ ١٩٣٦) ان التسمية مشتقة من الحميريين الذين كانوا يرتدون حللا حمراً ، وأيده الايطاليون في دليل افريقية الشرقية الايطالية (ميلانو ١٩٣٨) • وأخذت الآثار والنقوش المكتشفة في الثمانينات توضح قيام امبراطورية حميرية عظيمة شملت سلطتها ازانية أي افريقية الشرقية • لذلك يرجّح وجوب ترجمة عنوان الوثيقة اليونانية ب : الطواف حول بحر حمير• وهذا ما يجب عمله ان صح هذا الاجتهاد •

افذوكس السيزيكي أول يوناني يصل الى الهنـــد بحـراً

ذهب أفذوكس السيزيكي في أواخر حكم بطليمس افرجتيس الثاني (+ ١١٧ ق م) الى الاسكندرية مندوباً عن مسقط رأسه ليحضر احتفالات عيد برسيفوني كريمة زفس • وفي أثناء وجوده في البلاط الملكي ، أدخل الحراس رجلا هندياً شارف على الموت ، عثروا عليه في البحر الأحمر ، روى بعد تعلمه اليونانية انه الوحيد الذي نجا من الهلاك غرقاً من سفن رحلته البحرية • ولم يصدّقه الملك ، فعرض الهندي أن يعمل دليلا لفريق يوناني يبحر الى الهند • فاختار الملك افذوكس ليكون أحد أفراد تلك الرحلة • فسافر مرتين احداهما سنة ١٢٠ ق م بدلالة الهندي ، والأخرى سنة ١١٥ ق٠م٠ بلا دليـل • فكان أول يوناني يعبر « البحر الأحمر » ويصل الى الهند •

٣ ــ المرحلة الثالثة (١١٧ ــ ٣٠ ق٠م٠)

خلال المائة عام الثالثة من حكم البطالسة التي انتهت بانتهاء حكم كليوباترة (٥١ ــ ٣٠ ق٠م٠) ملكة مصر وزوجة انطونيوس مرقس، وقعت مصر تدريجياً تحت سلطة رومة ، لكن لم تتوقف تجارتها في البحر الأحمر الحالي وماوراءه ، بل نافسها الأنباط والحميريون •وفي سنة ٥٩ ق٠م٠ وصـل اليونان الى سقطرة(٦) واسيلة (قلهات) مرسى الانطلاق الى الهند ، وهي أقصى نقطة بلغوها ، باستثناء رحلتي أفذوكس •

مهما يكن ، غلب استكشاف الطرق البحرية على نشاط البطالسة في « البحر الأحمر »، خلافاً لما فعلته رومة مـن الاهتمام بالتجارة ،بحراً وبراً ، بالدرجـة الأولى ، بعد تأسيس امبراطوريتها الأولى • وحفز الترف الروماني تزايد الطلب على السلع الشرقية . فتوسع التعامل بين مصر واليمن ، والهند ، حتى قال سترابون (حوالي ٥٨ ق٠م٠ ــ بين ٢١ ــ ٢٥

بعده) : « علمت ان ١٢٠ سفينة تغادرميوس أورمس الى الهند ـ سنوياً ـ في حين لم يكن الا القليل النادر من المراكب يغامر بالسفر اليهـا ويتاجر بالسلع الهنديـة في عهد البطالسة »(٧) ، وتبادل ملك بريغازة (بروج) وأوغسطس السفارات والهدايا . وأعجبت سيدات رومة كثيراً بلؤلؤ مضيق منار والخليج فاستوردته العاصمة الرومانية بمقادير هائلة اضطرت الامبراطور تيباريوس أن يخطر مجلس الشيوخ سنة ٢٢م بتسرب نقد الامبراطورية الى الخارج ، ودفعت تاسيتس (حوالي ٥٥م ـ حوالي ١٢٠ م) الى ادانة تبذير نساء رومة ، الذي يؤدي الى انتقال ثروتها الى البلدان عدوة وغريبة . وقدر بلينيوس (٢٣ـ٧٩م) ان اسراف سيدات رومة بشراء اللؤلؤ وحده يمثل خسارة سنوية لا تقل عن ٥٥٠ مليون سيسترس (١٤ر١ مليون دولار ذهب) . وكانت معظم السلع تشحن بالبحر، وتأتي الى الاسكندرية ، فرومة بعد مرورها بالمرافىء العربية .

خلاصة القول ان معرفة اليونان والرومان للمحيط الهندي وفروعه جاءت متأخرة وان تسميته « ارثرة ثالته » أو « ارترايوم ماري » ، وضعت قبلهم حتماً ، وكل مافعلوه هم هو انهم ترجموها وعجزوا عن تعليلها . ويقضي منطق التاريخ وسابقاته أن يطلق على البحر اسم الدولة التي تسيطر عليه أو تقع على سواحله ، وليس أمامنا في هذه الحالة سوى امبراطورية حمير العظيمة ، بالتالي يجب أن يسمى البحر بحر حمير أو بحر الحمر ، اذا أثبتت الوثائق التاريخية الجديدة قدم حكم الحميريين أو ظهور دولة فينيقية في الجنوب العربي قبل الميلاد بعدة قرون .

ثانياً ـ تاريخ تصنيف « الطواف حول البحر الأحمر » ومؤلفه :

لم يُذكر اسم مؤلف «الطواف حول البحر الأحمر » في أي من مخطوطاته ، لا في مخطوطتيه المحفوظتين في هايدلبرغ (من القرن العاشر) ولا في المكتبة البريطانية (من القرن الرابع عشر أو الخامس عشر) . ولا أشير اليه في الوثائق التاريخية . وبقيت الأوساط العلمية مدة طويلة تظن ان اريانس صنّفه ، لأن مجموع هايدلبرغ يتضمن مخطوطة «الطواف حول البحر الأحمر » ثم مخطوطة « الطواف حول بحر اكسينس » لاريانس نفسه بعدها مباشرة . فاعتقد الباحثون انه كتب الطوافين . وقد صحح هذا الالتباس في وقت لاحق ، وظل مؤلف الطواف حول البحر الأحمر » مجهولا . لكن استخلصت من نصه ذاته بعض الايضاحات عن جنسية الكاتب المجهول وعن مهنته .

وذهب بعض المحللين الى أنه يوناني يقيم في مصر ، ورأى آخرون منهم انه مصري يجيد اللغة اليونانية . واعتمد الفريقان على حجتين وحيدتين تباين تأويلهما . الحجة الأولى ورود شهور كانون الثاني وتموز وايلول بأسمائها الرومية اللاتينية مع مقابلاتها القبطية معاً في الفصول ٦ ، و ١٤ ، و ٣٩ ، و ٤٩ ، و ٥٦ من المخطوطة ، مما يجيز القول بأنه يوناني ـ الشهور اليونانية ـ أو مصري ـ الشهور القبطية . الحجة الثانية جملة تضمنها الفصل ٢٩ من المخطوطة ، هذا نصها : « مثلما يتقطر الصمغ من بعض الأشجار عندنا في مصر » .

فتعبير « عندنـا في مصر » يسوّغ الظن بأن المؤلف يوناني مستقر في مصر ، وهذا اجتهاد ضعيف ، أو انه مصري يتحدث عن ظاهرة في وطنه ، وهذا الرأي أقوى • مهما يكن ، لا ريب أن مصنف « الطواف حول البحر الأحمر » رجل ضليع في أمور البحر وخبير بطرق التجارة الدولية في البحر الأحمر الحالي وفي المحيط الهندي الحالي ، وبالسلع المتبادلة بين الشرق والغرب • فاما ان يكون معلماً ماهراً تعوّد سلوك طريق افريقية الشرقية بحراً ، واما أن يكون تاجراً أمضى عمره في التنقل بين مراسي مصر ومراسي افريقية الشرقية والهند ، لأنه يعطي معلومات دقيقة وصحيحة عـن شـؤون الملاحة وتبادل السلع وعـن الممالك القائمة على سواحل « البحر الأحمر » أو القريبة من شواطئه ، مما يضفي أهمية كبرى على تحديد تاريخ كتابة هذا الطواف •

الا أن هذا التحديد لم يرد في أي من المخطوطات المعروفة ، ولم تصرح به ولا ألمحت اليه الوثائق التاريخية لا من قريب ولا من بعيد • ولا سبيـل الى معرفته الا بالتقريب وبطرق غير مباشرة ، أثارت وما زالت تثـير جدلا علمياً طريفاً يلقي أضواءاً ساطعة على حضـارة جنوبي جزيرة العرب في العصـور القديمة •

وقد اشترك في هذا النقاش علماء كبار انطلقوا جميعاً من ذكر أسماء بعض ملـوك اليمن القديمة بمعناها التاريخي الواسـع وبعض قبائلها ، مثل خليبس ملك المعافـر (فصل ٢٢ ، ٣١) وكرب آل ملك حمير وسبأ (فصل ٢٣ و ٣١) ، واليازوس ـــ آل عذة أو العزيلط ـــ ملك مملكة البخور (فصل ٢٧) أي حضرموت •

وتناول الجدل التاريخي التعرف على العزيلط ملك حضرموت وكرب ايل ملك حمير وسبأ المتعاصرين • فمتى تحدد تاريخ حكمهما تعين تقريباً وتلقائيـاً تاريخ تأليف الطواف حول البحر الأحمر •

وأثار التعرف على العزيلط ، ملك بلاد البخور (فصـل ٢٧) ، المقيم في عاصمتـه سوباتا (شبوة) مشكلة عويصة لقلة المعطيات عن تاريخ حضرموت وتباين الآراء في الموجود منهـا • وظـن أن العزيلـط أو العذيلط المقصود هو الملك العزيلـط بن عـم ذخـر (كتابة فيلبي ٨٢) • ويقال انه العزيلط الثالث • ويرى جاك ريكنس انه حكم حوالي ٢٠٠ م ويفضل هـ • فون وزمن حوالي ٢٢٠ م ويخالفهما كليسر والبرايت معتمدين علـى الكتابـة الموسومـة ١٦١٩ المكتشفة في وادي بيحان ، التـي ذكرت ملكاً اسمـه اليازوس (العزيلط) حكم حضرموت سنة ٢٩ م وملكاً آخر اسمه كرب ايل حكم من حوالي ٤٠ الى ٧٠ م (٨) •

كذلك أثار التعرف على الملك كرب ايل اشكالا آخر كاد يستعصي على علماء العربيات الجنوبية لكثرة الأسماء المتشابهة • ويشترط تحديد كرب ايل المقصود في الطواف أن يقيم في سفار (ظفار) ويكون ملكاً على قبيلتي حمير وسبأ (سبأ وذي ريدان) وصديق أباطرة رومة (فصل ٢٣) وان يعاصر العزيلط ملك حضرموت •

ورأى جاك ريكمنس في البدء أن كربايل الطواف نجل « ذمر علي بين » الذي ملك قبيل« علهن نهفن »· وقد اغتصب علهن نهفن عرش سبأ هو ووالده « يرم ايمن » من كرب ايـل وتر يهنعـم وهب آل يحـز ، ودام استيلاؤهما عليه من سنة ١٤٥ قم الى ١١٥ ق·م· حسب فيلبي ، وأسسا الأسـرة المالكة الهمدانية ·

ويدعى كرب ايل المقترح « كرب ايلوتر يهنعم » الذي خلف والده «ذمرعلي بين » وصار ملكاً في مدينة مأرب ، ولقب بلقب ملك سبأ وذي ريدان · وقد سكّت مجموعة نقود باسمـه في ريدان ، وضربت عليهـا حروف متشابكة ، فدعـاه الباحثون « كـرب ايـل النقود »(٩)· وقدم نذراً الى الاله « المقه » ليبارك عليه وعلى قصره سلحين وعلى مدينته مأرب ، وأصلح سور المعبد (٣٧٣) وأنجب ولدين هما « هلك أمر » الذي توفي قبله ، و « ذمر علي ذرح » الذي ملك مع والده وبعده.وقدّر البرايت حكم « كرب ايل وتر يهنعم » وابنـه هلـك أمر في منتصف القـرن الأول للميلاد · وحكم ذمر علي ذرح مـن ٧٥ الى ٩٥ م في رأي فلبي ·

وتعد جاكلين بيرين كرب ايل الطواف كرب ايل النقود نفسه · وتستند على هـذه النقود وتقارنها بنقود سكهـا « عمدن بين يهقبض » ملك سبأ وذي ريدان وظهرت بعد بضعة أجيال من تاريخ حكم ملك قتبان «شهر هلل يهقبض ذراكرب » (حكم حوالي ٢٠٠م في رأيها) خلافاً ل هـ· فون وزمن الذي جعل حكمه في العقد الأخير من القرن الأول الميلادي (بين ٩٠ و ١٠٠) · لكن لم تثبت بيريـن على تاريخ محدد ، فقالت أيضاً ان كرب ايل النقود حكم بعد ملـوك قتبـان الذين سكّوا نقوداً حوالي ١٨٠ ـ ٢٠٠م ، وقالت حوالي ٢٢٠م في مكان آخر(١٠) لأنها تعتقد ان كرب ايل وتر يهنعم ملك في ظفـار وفي مأرب بآن واحد ، فتصطدم بر أي جاك ريكمنس الذي يزعم أن اللقب بحد ذاته لا يستتبع ان الملك حكم المدينتين ، بل قد يكون مطالباً بالثانية · مهما يكن لم يحسم الأمر ، ولم يستقر الرأي على جعل كرب ايل الطواف كرب ايل وتر يهنعم عند الجميع لا سيما ان هـ· فون وزمن ملّكه حوالي ١٤٠ ـ ١٥٠ م ولأن لقبه لايعني انه حكم حمير · لذلك كله قدّم جاك ريكمنس اقتراحاً آخر لم يحز الرضى أيضاً ، وبقيت قضية تاريخ الطواف عالقة بين فئة غالبة تصر على اعادته الى أواخر القرن الأول الميلادي وبين أقلية تتمسك بارجاعه الى القرن الثالث. ولم تجد نفعاً محاولات دراسة حكم الملوك الآخرين ولا مقارنة معطيات الطواف بمعطيات بلينيوس وسواه · لكن لا ينال هذا الجدل البتة مـن قيمة مضمون الطواف ·

ثالثاً ـ مضمون الطواف حول البحر الأحمر

لا ريب ان التجار العرب والهنود كانوا يعبرون المحيط الهندي ذهاباً واياباً منذ أقدم العصور مستفيدين من هبوب رياح دورية يتغير اتجاهها مرتين في العام وتدعى الرياح الموسمية في أيامنا الحاضرة · ويشك كثيراً في ان بحّاراً يونانيـاً يسمى هيبالوس اكتشف في عهـد الامبراطور اغسطس أو كلوديوس وربما سنة ٤٥ ميلادية ، رياحاً ، زعم انها سميت باسمه،

تهب في المحيط الهندي من الجنوب الغربي بين شهري أيار وتشرين الأول ، ومن الشمال الشرقي بين شهر تشرين الثاني وآذار ، وتسهل قطع اليم من جزيرة العرب وأفريقية الشرقية الى الهند وآسية الجنوبية دون اتباع الشواطىء • لكن أثبتت الوثائق التاريخية أن سيطرة العرب والهنود الفعلية على الملاحة في المحيط الهندي زالت في زمن قريب من بدء التاريخ الميلادي دون أن يحدد بدقة حتى الآن، وان « أهل البحر في المتوسط » صاروا يعرفون عن المحيط الهندي ما يعرفه أهله عنه في تلك الأيام • والدليل القاطع على سداد هذا الرأي وثيقة الطواف ذاتها التي تلخص مايعرفه المصريون أو اليونان المقيمون في مصر عن سواحل البحر الأحمر الحالي وجزيرة العرب وافريقية وآسية الجنوبية ، وتشتمل هذه المعارف على معطيات عن المراسي والسلع المتبادلة فيها والممالك القائمة فيها ، جمعت قطعاً في أثناء أسفار طويلة توالت خلال مدة زمنية غير قصيرة، وتكررت حتى بلغت مستوى الدقة والصحة التي تتصف بهما • وتصور هذه الوثيقة واقع العلاقات بين الشرق والغرب بين المحيط الهندي والبحر المتوسط في القرن الأول للميلاد ، وتدونها في سفرتين احداهما افريقية والأخرى آسيوية •

آ ـ السفرة الافريقية في الطواف حول البحر الأحمر (١١) :

تجاري هذه الرحلة سواحل البحر الأحمر الحالي الغربية ، وساحل عدن الجنوبي حتى رأس جردفون ، وساحل افريقية الشرقية حتى مدينة رابتا • وتبدأ من ميوس أورمس في زاوية البحر الأحمر الشمالية الغربية •ويصف نصها (الفصول ١ ـ ١٨) أكلة السمك ـ قبائل البشارين اليوم ـ والبربر وأكلة الوحوش وأكلة الأعشاب البرية • ويذكر من الحكام زوسكليس والشهبندار المتحكمين بالمراسي وملك المعافر العربي الذي يحكم ازانياس • ويتحدث عن السواحل الأمينة والسواحل المليئة بالقراصنة •ويفصل السلع المنتجة في جميع تلك الأنحاء أو المستجلبة والمتاجر بها فيها ، منها الأنسجة والأكسية والقرفة والكاسيا البرية وذبل السلاحف والعاج والتوابل والصموغ • ويشير الى السفن والزوارق والأطواف المستعملة في الملاحة •

ويمثل هذا النص أول وثيقة دقيقة عن منطقة توابل ذكرها الرومان تمتد حتى رأس جردفون (رأس التوابل) ، لكنه يستبهم ويشتبه حتى ان القارىء يستبعد أن يكون المؤلف قد زار الساحل الواقع بين رأس جردفون ورابتا ويميل الى الظن بأنه نقل معطياته سماعاً عن الاخباريين • ويستشهد سترابون بالجغرافي ارتميذورس ليثبت جهل اليونان لساحل افريقية الشرقية ويروي قوله: « في ذلك الزمان (القرن الأول ق•م•) ، كان المرء يدور حول هذا الرأس (جردفون) باتجاه الجنوب تقريباً ، ولم تدون لنا المراسي والأماكن ، ونجهل كل شيء عنه وعن الساحل بعده(١٢) • لكن يبدو أن البحارة مروا على تلك الواجهة البحرية في المائة والخمسين سنة التالية •

ويحتمل أن ينطبق موقع أبوني(الفصل١٣ ، ١٥) مع موقع حافون قرب رأس حافون على بعد ٩٠ ميلا عن جردفون جنوباً ٠ ويخلو ساحل ازانياس الصخري من المراسي مـن حافون الى رأس الخيل جنوبي خليـج نيغروعند درجة عرض ٤٥َ ٧ْ شمالا على مسافة ملاحة ستة أيام (اجرف ازانياس العالية)٠ واذا سارت السفينة ستة أيام أخرى مقابل السيف الطويل وحتى رأس «أود» (شواطيء ازانياس الرملية) ، وصلت الى « مجاري ازانياس » وهي شواطيء رملية خالية مـن السكان تمتد حتى خـط الاستواء والمجرى الأول منهـا سرابيونس قرب مقدشوه علـى بعد ٨٠٠ ميل عن جردفون ٠ والمجرى الثاني مجرى نيكنس عند براوة ٠ وتمر السفينـة بعده على جزر بيرلاون (باتا ، مندا ، لامو) وتصل الى جزيرة مينوثيس٠ فاذا عدت هذه الجزيرة بمبا ، أصبحت رابتا (فصل١٥، ١٦) بنغاني الحديثة على عرض ٢٥َ ٥ْ جنوباً ٠ واذا عدت زنجبار ، صارت رابتا باغامويو الحديثة أو دار السلام على بعد ٤٤ ميلا الى الجنوب ٠ وكانت باغامويو أول مرسى تجاري في منطقتها ونهاية طريق برية داخلية تأتي من البحيرات الافريقية الكبرى ٠ ولعبت رابتا الدور ذاته أيضاً ٠

وأبان الطواف ان ساحل افريقيـة الشرقيـة يمتـد على ١٢٠٠ ميـل جنوبي رأس جردفون ، فصحح مفهوماً يونانياً قديما أيده العديد من المؤرخين والجغرافيين القدامى ، يقول ان أفريقية تتجه الى الغرب في مكان مايقـع بين رأس جردفون وخـط الاستواء ، واستعاض عنه بما يلي : « ذلك ان المحيط لم يستكشف بعد هذه الأسواق (رابتا الخ) وينعطف مستديراً الى الغرب ، ويمتد نحـو الجنوب باتجاه يعاكس اتجاه أثيوبية وليبية وافريقية ، ويمتزج بمياه البحر الغربي » ٠ وهـذا القبول متفق مـع رأي هيرودوتس واراتوستينس وحتى سترابون الذين يعدون افريقية شبه جزيرة ٠ مع ذلك كان سترابون يعتقد بتعذر الدوران حول افريقية، لأن جميع الذين جازوا سواحل المحيط مقابل شواطيء ليبية (افريقية) سواء انطلقوا مـن البحر الأحمر أو من مجاز هيراقليس ، عادوا كلهم بعد قطعهم مسافة معينـة ، وحـالت ظروف معقـدة دون استمرار أسفارهم ٠ بالتالـي أوحوا للناس أن برزخاً يسد طريقهم ٠ مـع ذلك استطاع المدعو ديوسكورس بعد مرور نصف قرن على كتابة الطواف ، أن يبلـغ الرأس الأخضر ، وهو علـى الأرجـح رأس دلغادو في موزمبيق ازاء طرف جزيرة مدغشقر(٤٤َ ١٠ْ عرض جنوباً) ٠ ولعل وجود هذا الرأس وجزيرة مدغشقر حياله دفعا مارينوس الصوري وبطليموس القلوذي الى احياء فكرة هيبارخس القائلة بأن ساحل افريقية يتجـه الى الشرق فالشمال مشكلا لساناً برياً يصـل افريقية الجنوبية الشرقية بآسية الجنوبيـة الشرقيـة ، ويحول المحيط الهندي الى بحيرة مغلقة ٠

مهما يكن ، يعد الرأس الأخضر أقصى نقطة جنوبية بلغها اليونان على ساحل افريقية الشرقية وعرفوها ، في حين يخبرنا الطواف (فصل ١٦) أن ملك المعافر في اليمن كان يحكم رابتا ازانياس استناداً الى اتفاق قديم وضعها تحت سلطة مملكته التي أصبحت الأولى في جزيرة العـرب ، وان أهل مدينة موزا اليمنية يتولون شؤونها لقاء دفعهم ضريبة له٠

ويرسلون سفنهم الى مدينة رابتا التي يقيم فيها ربابين وعملاء أكثرهم عرب تزاوجوا مع أهلها ، وأصبحوا خبراء في طبيعة أماكنها ولغتها · ويحتمل أن يكون هؤلاء المعالمة الحميريون قد وصلوا الى سفالة جنوبي مدينة بيرا الحديثة ·

ب ـ السفرة الآسيوية في الطواف حول البحر الأحمر :

تتبع هذه الرحلة سواحل البحر الأحمر الحالي الشرقية ، وساحل جزيرة العرب الجنوبي وتقطع البحر العربي الحالي حتى مصب نهر الهندوس ، وتجاري ساحل ملبار حتى رأس كمهري ، وتصعد على ساحل كورومنديل حتى مصب نهر الغانج ، وتعطي فكرة موجزة جداً عن ساحل بورمة وتايلند حتى شبه جزيرة ماليزية · وتبدأ من لفكي كومي (القرية البيضاء : الحورة أو ينبع البحر) التي تستقبل السفن القادمة من الجنوب ومن ميوس أورمس وتصلها طريق برية طولها ٥٠٠ ميل بالبتراء عاصمة مملكة الانباط ومقر مالخس · وتمتلك لفكي كومي سفناً وفيها مركز جباية ضرائب وحصن وحامية · ويليها ساحل الحجاز واليمن الشمالية الوسخ الخالي من البنادر الكثير القراصنة الذي تتحاشاه المراكب وتعرّج على جزيرة الزبير البركانية وقيل على جزيرة جبل الطير ، على بعد ١٢٠ ميلا شمالي غربي موزا ·

وموزا (موشج أومخا) أعظم سوق في أعظم منطقة يمنية حضارة آنذاك ، تشتهر بربابنتها وبحارتها وسفنها · وتدير شؤون مستعمرة ازانياس العربية · وتقع في بلاد المعافر التي يحكمها خلبيس (كليب) من مدينة سفي (لعلها اذين) بالاتفاق مع كرب ايل ملك حمير وسبأ المقيم في سفار (ظفار) قرب بريم الحديثة على بعد ١٠٠ ميل تقريباً شمال شرقي مخا ، وعلى طريق صنعاء ·

وتذهب السفن بعد موزا الى أوكلس (الشيخ سعيد) « فالعربية السعيدة » (عدن)، التي يليها ساحل حضرموت ويسكنه آكلة الأسماك حتى قنا (حصن غراب) في مملكة البخور (مملكة اليازوس) أو العزيلط الواقع فيها رأس سيغرس (حرفيا رأس خرطوم الخنزير البري ، وهو رأس فرتك) العالي الذي يشاهد من البحر عن بعد ٦٠كم وتقابله جزيرة ذيوسكوريذو (سقطرة) الخاضعة للعزيلط مثلما تخضع ازنياس لكرب ايل وملك المعافر ·

ويمثل خليج سخليتس في رأي الجغرافيين القدامى الخاطىء فرضة واسعة وعميقة واقعة على جانبي رأس سيغرس على ساحل جزيرة العرب الجنوبي ، بين رأس الكلب (عرض ١٤° شمالا ، طول ٤٥ً ٤٨° شرقاً) ورأس حاسك (عرض ٢٣ً ١٧° شمالا، طول ١٠ً ٥٥° شرقاً) ويدعى القسم الشرقي منه بعد رأس فرتك خليج عمانة (خليج قمر اليوم) نسبة الى بر عمان خلفه · ويتصل جبل القمر بجبل سمحان وراء بندر موسخا (سلالة على الأرجح) ويعيش سكانه في الكهوف · وتظهر شرقي جبل سمحان جزر زينوبيوس (خوريا موريا) التي يسكن اهماج مقابلها على الساحل · ويقطن عرب

مقدسون من أكلة السمك في جزيرة سرابس(مصيرة) بعدها • ثم يتجـه الشاطىء الى الشمال باتجاه خليج عمان ، وفيه تقع جزركلايو (الديمانيات) التي لا يبصر سكانهـا في الليل •

ويبدأ الخليج العربي الحالي ، حسب الطواف ، من جبل كالون (الجبـل الأخضر على الارجح) وتنتصب عند مدخلـه جبـالاسبون (بني عصب) وجبـل سمـيرأميس (لعله جبل كوه ـ أي ـ مبارك) وينتهيعندأبولوغو (الابلة) وبسيتوخاركس(المحمرة) وفيه سوق عمانة الفارسية • وهنا يتم مـايتعلق بجزيرة العرب (الفصول ١٩ـ٣٦) • وتستعرض الفصول ٣٧ـ٦٦ الباقية سواحلبلاد برسيده (فارس وكرمان) التي يحتلها الفرثيون ، وبيلوشيستان وباكستانباختصار بالغ (في أربعة فصول) ، ثم ينتقل المؤلفالى سواحل شبه جزيرة كاثياوار وشبـه جزيرةالدكن ، ويتحدث عنها بشيء من التفصيـل النسبي ، ويختم كلامـه باشـارة عابرة الىالصين والشرق الأقصى • ويذكر في الفصل ٥٧ قطع السفن البحر العربي مباشرة منطلقةمن قنا أو رأس التوابل الى بنادر ساحل الدكن الغربية •

للبحث صلة

☐ الحواشـي :

١ ـ اعتمدنا في أداء الأسماء اليونانية اللفظ اليوناني الشرقي الصحيح المستعمـل في اليونـان سابقا ولاحقـا ، لا لفظ الأوربيين لهـذه اللغـة على طريقـة اوسموس • ثالثةبلهجة البحارة (كيني) ولهجة اثنية ، ثالسة باللغة اليونانية الكلاسيكية •

٢ ـ هيرودوتس ، الكتاب الثاني •

٣ ـ المجلة الجغرافية الأمريكية ، مجلد ٨ ، (١٨٩٦) ، ص٦٢٣ • يناقض هيرودوتس نفسه في مكان آخر عندما يقول ان نكاو باشر فتح القناة وان داريوس اتمها • والواقع انسيتي الأول (١٣١٢ ـ ١٢٩٨ ق•م•) من السلالة ١٩ شق هذه القناة ثم أصلحها نكـاو الثاني ، ونظفهـا داريوس •وسياتي تفصيل كل ذلك فيما بعد •

٤ ـ انحطت هذه القناة مع الزمن وتوقف استعمالها سنة ٣١ق•م• الى أن جاء الامبراطور الروماني تراجانس وفتح حوالي سنة ١٠٦ ميلادية فناة ثانية تنتهي عند القلزم •

٥ ـ بلينيوس ، التاريخ الطبيعي ، كتاب ٦ ، فقرة ٢٨ •

٦ ـ اسمها جزيرة ذيوسكوريذو باليونانية ، وهو تحريف الاسم السانسكريتي « دفيبا سخاذاره » اي جزيرة السعادة أو مقر السعـداء •

٧ ـ سترابون ، كتاب ١٧ ، ١٣/١ •

٨ ـ جواد علي ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزءالثاني ، ص ١٤١ وما يليها وويلفريد هـ • شوف ، الطواف حول البحر الأحمر ، ص ١١ ـ ١٢ •

٩ ـ مكسيم رودنسون ، الأثيوبي والعربي الجنوبي ، ٢ ـ شرح كتابات عربية جنوبية وعربية قديمة ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ وجاك ريكمنس ، التسلسل الزمني لملوك سبا وذي ريدان ، ص١١ وما يليها •

١٠ ـ جاكلين بيرين ، مملكة قتبان العربية الجنوبية وتاريخها، ص ٦٤ وما يليها •
جاكلين بيرين ، قضية رئيسة في تاريخ الشرق : تاريـخالطواف حول البحر الأحمر ، المجلة الآسيوية ، ٢٤٩ ، ١٩٦١ ص ٤٤١ ـ ٤٥٩ •
ه• فون وزمن ، آثار الجنوب العربي وجغرافيته القديمة ، ص ١٣ •

١١ ـ ولتر وودبورن هايد ، البحارة اليونان القدامى . ص٢٠٩ ـ ٢١٤ •

١٢ ـ سترابون ، ١٦ •

دمشق حديقة الإسلام

مريم هاري*

تعريب: أحمد عبد الكريم

عودة الشريف فيصل من رحلة الى باريس

□ **الشريف في بيروت:**

كان الناس في بيروت ـ التي مضى على وصولي اليها شهران ـ ينتظرون بفارغ الصبر عودة الأمير فيصل من فرنسا لكي يوضح لهم الوضع بدقة ويطمئن النفوس. وها هو ذا قد عاد أخيراً ـ عن طريق البحر ـ ووصل الى ميناء بيروت فاستقبلته الطائفة الاسلامية استقبالاً منقطع النظير. وأقامت له احتفالاً عظيماً في « غابة الصنوبر » اشتمل على المهرجانات الشعبية وسباق الخيول. وكانت فرحتي عظيمة عندما دعيت لحضور هذه المهرجانات.

كان الجنرال غورو ـ الذي عينته الحكومة الفرنسية مفوضاً سامياً لسورية ـ أول القادمين الرسميين الى منصة الاحتفال تنقله سيارة رمادية ضخمة. وقد فوجىء بأن الأمير فيصلاً لم يكن قد وصل بعد...

وفي ساحة « الكازينو » ذات الأعمدة، كان الرسميون الفرنسيون يتحدثون باهتمام عن أسباب هذا التأخر، عندما وصل أحد الضباط الفرنسيين وقد ابتلت ملابسه بكل

★ المؤلفة السيدة مريم هاري من الأديبات الفرنسيات المعروفات في بداية القرن العشرين ولها مؤلفات عديدة منها:
- جلال الدين الرومي، شاعر وراقص روحي.
- فتاة القدس الصغيرة ـ رواية.
- تونس البيضاء.
- فلسطين.
- أمير سورية الصغير (رواية).
- وادي الملوك وملكات مصر.
- الأميرة التركية (رواية).
- ليالي القدس.
- قافلة البدو.

الخ .. وقصص أخرى.

أنواع عطور الجزيرة العربية فأخبر الجمع ـ وهو ينفض معطفه الذي تعطر الى الأبد ـ : بأن الحي العربي (في بيروت) في حالة هيجان ،والسكان يرشون الشوارع والمارة بماء الورد، وجميع الاطفال يتراكضون فرحين وهم يحملون« مرَشَّات » ماء الورد ، والنساء يزغردن فوق اسطحة المنازل . أما شباب الحي فقدحرروا الخيول التي تجر عربة الأمير وأخذوا يجرونها بأكتافهم ويهللون ويكبرون ...

وما ان سمع أفراد الجماعة الفرنسية هذا الوصف حتى بدا على وجوههم القلق وأخذوا يعلقون قائلين لا يجوز أن يحضر الأمير الى هنا بهذا الوضع ومعه هذا الحشد الغريب !..

ولكن ما ان أنهى الضابط الفرنسي كلامه ، حتى قاطعته جماعة من (المسلمين) المستقبلين ، هاتفة : « ها هو شريفنا ...ها هو الشريف ...! » .

نظرت الى الناحية التي يشير اليها الجمع :... وفي نهاية « شارع الصنوبر » شاهدت رجلا بمفرده ، يسير الهوينى بخطوات رتيبه ثابتة ، وتبدو عليه البساطة والنبل ، كان شابا مرنا ، فارع القامة ، رشيقاً ، يلتف بعباءة سوداء مقصبة بخيوط الذهب ـ تشبه عباءة والدي التي حملها من دمشق ...وبمقدار ما كان يتقدم من المنصة ، كانت تتجلى لناظري قسمات وجهه الأسمر الرشيق الذي تحيط به كوفية من الحرير الأشقر الناعم تتدلى أهدابها فوق كتفيه وترفرف مع الحركة كأنها رف من النحل ...

وبظهور ـ الأمير ـ بهذا الشكل المفاجىء غير المتوقع ـ هيمن على الحفل جوّ من الوقار والعظمة المتواضعة ، وخيم السكون على الجماعتين العربية والفرنسية ، بينما تابع الأمير تقدمه بين صفين من الأشجار المخضرة ،فكان المنظر أخاذاً فجَّر في ذاكرتي كل أشعار طفولتي .

وعلى مسافة معينة ، كان الضباط الأشراف يسيرون وراء الأمير ، وهم يرتدون الألبسة العسكرية الخاكية ، ويعتمرون بعمرة انكليزية تتميز بجبيلة من الحرير الأحمر والقصب المذهب ، وهي تغطي أعناقهم من الخلف ـ وقد ذكرتني هذه العمرة بتماثيل رمسيس الثاني وعلى رأسه القبعة الفرعونية ـ .

وخلف الضباط ... يسير حشد من الشبان المتحمسين ، يجرون الخيول ويحملون لافتات ضخمة كتب عليها بلغات مختلفة(عربية ، وفرنسية ، وانكليزية) العبارات التالية :

ـ سورية للسوريين
ـ الاستقلال للعرب
ـ لا حياة بدون حرية

وبعد انتهاء المهرجان ، أقيمت على شرف الأمير مأدبة بسيطة في قاعة الكازينو ، وقد شاهدت الجنرال غورو يقف مع الأمير ،وهو يحمل بيده قدحاً من الشمبانيا ، بينما حمل الأمير بيده كوباً من عصير الليمون وكانا يتبادلان بعض أحاديث المجاملة ، ومع ذلك

كانت تسيطر على هذا اللقـاء غمامة خفيفة ظهرت آثارها على وجه الجنرال فأطفأت جمال نظرته الزرقـاء ٠٠! أما الشريف فلم يكـن بامكان أي انسان قراءة ما يختبيء في أعماق حدقتيه اللتين يتطاير الشرر منهما ، وكانت ذوفيته الشقراء الحريرية تنسدل حول كتفيه بكل نعومـة ٠٠٠

ومما لاحظته أن الأمير (فيصل) والجنرال (غورو) كانا متساويين بطول القامة تقريباً ، غير أن التناقض بينهما واضح تماماً ٠ فبينما كان كـل شيء في الجنرال يوحي بالصراحة والحيـوية العسكرية ووضوح خطوط بزتـه العسكريـة ، أما الأمـير فكان على عكس ذلك تماماً ، فهو يتدثر بألبسة مختلفة تختفي تحت طيات عباءته السوداء فلا يبـدو منه الا يداه الملكيتان الناعمتان المرورقتان ٠

ويمكن القـول : ان الأمـير فيصل كان يجسد وحده كل القلق والجاذبية السحرية التي يمتاز بها « الاسلام » ، كما تتجلى به النظرة الثاقبة والنباهة الذكية الأصيلة ـ الكهنوتية ـ لشعب شديد المراقة ٠٠٠ وكل من ينظر اليه يشعر بأن الشعب ـ الذي يمثله ـ قد استيقظ بفتوة صاعقة بعـد سبات دام ألف عام ٠٠٠

قلت في نفسي : كيف يمكـن لهـذيـن الزعيمين اللذين يفرقهما كل شيء ٠٠٠ أن يفهم أحدهما الآخر ، وأن يوفقا بين مطامحهما القوميـة ٠٠٠؟

* * *

□ في الطريق الى دمشـق :

وفي الغد عنـد الفجر سوف أسافر الى دمشق مع موكب الأمير ٠٠ أسافر الى دمشق ٠٠ أجل الى دمشق عاصمة الأمويين ، تلك المدينة التي حُفر اسمها في ذاكرتي منـذ الطفولة بحروف من العنبر والدم ٠٠٠ والذهب ٠٠٠ ذلك أن مربيتي العربيـة كانت تتغنى باسم دمشق بعذوبة وحنـين ! أما والدتي فلم تكن تتلفظ باسمها دون أن ترتعش فرائصها لأنها ما زالت متأثرة بمذابح المسيحيين التي كادت تمتد الى القدس(١) أما والدي ، الذي حمل معـه من دمشق ذكريات حلوة وعباءة رائعة مقصبة بالخيوط الذهبيـة وكوفيـة مزينـة بصور النحل الأشقر الراقص ، فكان يتحدث عـن دمشق بلهجـة شعرية متهدجة وتظهر في عينيه آلام الأحلام الزاهيـة ٠٠٠

وهكذا أصبحت دمشق بالنسبة لي شيئاً معطراً ومخيفاً ، ويجسد السعادة السحرية في الوقت نفسه ٠

ومـع ذلك ، فان ظروفي الخاصـة لم تسمح لي بزيارة دمشق ، الا بعد فترة انتظار طويلـة ٠ كـان ذلك لأول مرة في عام ١٩٢٠ عندما سُمي الجنرال مفوضاً سامياً لسورية ، بعد أن تقرر وضعها تحت الانتداب الفرنسي، وقد أوكلَ الي بهذه المناسبة مهمة خاصة ٠٠٠

قلت ٠٠ أخيراً ٠٠ سوف تكتحل عيناي برؤية عاصمة الأمويين ، وسوف استنشق عبير أزهار الاسـلام ٠٠٠

ومن أجل هـذا ـ بشكل خاص ـ قبلت المهمة وغادرت فرنسا الى سورية . ها قد حانت الساعة فأسرعت عند الفجر الى محطة القطار في بيروت ... كانت المحطة صغيرة جداً ومكتظة بالاشباح وأكداس الحديد ... والسماء ملبدة بالغيوم والامطار تنهمر بغزارة، وكنت أرتعش من البرد داخل معطفي الفرو .

قادني مرافق الأمير الى حجرة حجز لي فيها آخر مقعدين .. وما لبث القطار (الشريفي) أن بدأ يتحرك ويهتز، ماراً بمحاذاة مرفأ بيروت ، ثم قفز فوق البحر الأبيض المتوسط وتوغل داخل حقل كثيف من قصب السكر والموز ، وأخذ يعدو بين بساتين البرتقال ، حيث كانت الثمار الذهبية تلمع في الضباب كقناديل الليل ... وبعد قليل أخذ القطار بالصعود متعلقاً بشبكة الكوابح يستعين بها على تسلق جبال الألب اللبنانية بين غابات الآس، والتوت ، وسقائف « الزل » المخصصة لنشر دود القز والقرى ذات الأديرة المحصنة ...!..

كان في الحجرة التي جلست فيها ، بعض الأوربيين الذاهبين الى دمشق وهم : قناصل فرنسا وبلجيكا وايطاليا بالاضافة الى عدد من الآباء العازاريين . وكان الجو بارداً للغاية والرياح الجليدية تنفخ من خلال النوافذ البلورية المكسرة والمطر يتسرب من سطح الحجرة عبر مشمع ممدود تبرع بنشره أحد المستشارين الأجانب لوقايتنا من «الدلف» ...

كل ذلك من آثار آخر الغارات التي شنها الثوار السوريون على القطار وهو يحمل العساكر الفرنسية ، ولم تسمح سرعة سفر الأمير الى دمشق باصلاح هذه التخريبات ... هكذا قال القنصل الفرنسي .

كنت أسرح الطرف من النافذة ، أثناء عبور القطار بين جبلين فشاهدت البحر ـ بحر الأمس ـ الأزرق بخلجانه الواسعة الحارة التي تتعانق مع اليابسة التي تُوشّيها البساتين ذات الروائح العطرة التي تنعش النفوس وتأخذ اللب .

قلت في نفسي : ان مغادرة الشواطىء السورية الرائعة هذه في يوم شديد الكآبة من أجل مواكبة الزعيم العربي الذي يتوجه الى صحرائه المتغطرسة .. ان ذلك ضرب من الجنون ؟.. وشعرت بالأسف على حماسي بالأمس ... ولكن مع كل ذلك ..

انها « دمشق .. دمشق .. هذا الاسم الذي يغرد ويُنشد في أعماقي منذ نعومة أظفاري .. ومنذ أيام الأغنيات التي كانت تهمس بها في أذني مربيتي العربية لكي أنام .. ومنذ أيام القصص العذبة التي كان يقصها عليّ خادمنا الأسود ... عندما كان ينصت اليه والدي باسترخاء واهتمام ، وهو يتدثر بعباءته وكوفيته الشاميتين ويدخن أركيلته فيتصاعد منها دخان التنباك المُصمَّغ بالورد المستورد من دمشق ...

في تلك الليلة، بعد أن اتخذت فيها قراري السريع في حديقة الصنوبر ومثولي أمام الأمير فيصل ، لم تذق عيناي طعم النوم أبداً ، لقد كنت أعد نفسي بمشاهدة جبال لبنان وعبور وادي هليوبوليس(؟) ، وقضاء بعض الليالي في (دمشق) مدينة الورود والمياه المدمدمة الصافية في دمشق مقر الخلفاء والفاتحين العظام .. في تلك المدينة المتكبرة العظيمة ..

وقـد تصورت أن الشمس نفسها سوف تواكب القطار الذي سيحملنا الى تلك المدينة السحرية ٠٠٠

آه يا دمشق ٠٠٠ هل يمكن أن يكون هذا البرد القارس وهذه المناظر السويسرية الخلابة هي التي تقودنا اليـك ؟٠٠٠

وبين وقت وآخر كان القطار يمر بمحطات غارقة بالضباب أذكر منها: محطة بحمدون التي غناها الشاعر لامارتين ، وعاليه ، وعين صوفر ٠٠ وجميعها من قرى الاصطياف ذات الشهرة العاليـة في الشـرق بكامله ، بسبب (كازينوهاتها) وصالات اللعب ٠٠٠

تابع القطار سيره البطيء بـين شعاب جبـال صـنين وحرمون (جبـل الشيخ) ذات الصخور الألبيـة(٢) ٠

« ان صـنين وحـرمـون يرضخـان لصوتك »(٣) ٠

بعد ذلك بقليل غاب عن ناظري جبـل صنين ، وبقي جبل حرمون وحده يضيء الأفق بلمعان عمامته البيضاء الثلجية الناصعة ٠٠٠ وفي هذه المرحلة أخـذ القطار بالانحدار على السفح الآخر باتجاه الوادي المؤدي الى سهل البقاع ٠٠ هـذا السهل الخصب الجميل الذي طالما حلمت برؤيتـه ٠٠٠

كنا نشاهد على جانبي سكة القطار الكثير من الكهوف والسيول العارمة والشعب الجبلية المتوحشة، والهضاب الصخرية الشقراء وكروم العنب الشهيرة ، التي تغنى بهـا الشعراء في « طيبـة » عاصمة الفراعنة واحتفل بهـا في « نينوى » على موائـد بالتازار(٤) ٠٠٠ كان القطار يتلوى ماراً بين هذه المناظر كأنه أفعى البوا ٠٠٠ وفجأة ٠٠٠ شعرنا بشيء غير متوقـع ٠٠٠ نظرت مـن خلال النافذة ٠٠٠ فصعقت ٠٠٠ ماذا أرى ؟ هل اسكرتني المناظر الرائعـة وأحلامي ؟ كـلا ٠٠ انهـم فرسان يتسابقون بجنون ويهتفون ويحدون بأصوات تصمُّ الآذان ٠٠٠ ويقذفون بنادقهم بالجو ، وتصفق خلفهم كوفياتهم فوق حمالات الذخيرة ٠٠ وقـد اضطـر القطـار للتوقف نظـراً لاصرارهم الشديد ٠٠٠ وهكذا أخـذت تعلو أصوات الشبابات(٥) والدربكات وزغاريـد النساء ، وتضوع في الجو روائح الورود ودخان المبـاخر ٠٠٠

كان الحشد يرفع الكثير من الأعلام واللافتات ، ومرت بمحاذاة القطار العديـد مـن المواكب والقيت الكثير مـن الخطب ، القاهارجال يلبسون الطرابيش الحمر التي يسـيل من تحتها خيوط حمراء من العرق ٠٠٠

استجاب الأمـير لرغبة هـذه الجماهير المحتشدة ، فأطل من القطار تعلوه مظلة تحميه مـن المطر ٠٠ وألقى كلمـة قصـيرة قوبلت بالتصفيق والهتـافات ٠٠

ومن الجدير بالذكر أنه كان وراء هذه اللوحـة البشرية « المبلّلة » رتل من الجنود الفرنسيين يراقبـون الاحتفـال الذي يفصله عنهم جـدار من الوحول والسيول ٠٠٠

تابع القطار سيره بعد أن فسح له الجمعطريقه ٠٠ وما هي الا دقائق حتى وصلنا الى قريـة « المعلّقـة » بالقرب من مخفر على الحدود السورية اللبنانية ٠٠ والواقع انهـا اسم على مسمى ، فهي معلقة فعلا على جانب أحد الشعاب الجبلية ، وسكان القرية نصفهم مـن المسيحيين والنصف الآخر من المسلمين ،وفـوق كل سطح مـن سطوحها قطعة حجرية اسطوانية مثقوبة منجانبيها(٦) ـويالمهزلةـانهـا من بقايا عمود قـديم لمعبد الشمس في بعلبـك ، يستخدمها القرويون حالياً لرص أسطحة المنازل الترابيـة للوقاية مـن أضرار المطر ٠٠٠ ومـن المؤسف أننا لم نتمكن مـن رؤية « معبد الشمس » لأن القطار يمر بعيداً عن « مدينة بعلبك » التي تحجبها ثنية احدى الهضاب ٠٠٠

★ ★ ★

□ دعـوة للأمير ومرافقيه في محطـة رياق :

في محطة « ريـاق » حيث يتفرع الخط الحديدي الى فرعين أحدهما يتجه الى دمشق والآخر الى مدينة حلب ، عنـد هـذه المحطةدخلنـا الأراضي الأميرية(٧) (أي السورية) ٠ وقد توقف القطار ونزل الموكب الأميري الى صالة المحطة التي تدفئهـا مدفأة ضخمة مـن الصلب وكان فيها مائدة هائلة أعدت للأمـيروجميع حاشيته التي تعد حوالي مائتي شخص٠

دُعيت شخصياً الى مائدة الأمير الطويلة،وجلست بـين نوري باشـا السعيد والدكتور عبدالرحمن الشهبندر اللذين عادا مع الأميرمن باريس ٠

جلس الأمير فيصل على رأس المائدة ، ووقف الى جانبـه رجل أنيق الملبس ، بهـي الطلعة ، مهيب الشكل ، كان يتلقى الصحاف من النُدل ويقدمها بنفسه الى الأمير وينحني بكل احترام ، كما كان بـين الفينة والأخرى يشعل لفـافة الأمير ويحييه في كـل مرة ثلاث مرات على الطريقة الشرقية ٠ همست في أذن نوري باشا السعيد متسائلة عمن يكون هـذا الرجل المهـذب الأنيق ؟ فأجابني انه الزعيم الماروني السيد ت. ف. (T. Ph.) وهو مـن أغنى أغنياء لبنان ، ويملك جزءاً كبيراً مـن أراضي سهـل البقاع ٠ وهو صاحب الدعوة التي أقامها على شرف الأمير فيصل هذا اليوم،وحسب التقاليد العربية فان صـاحب الدعوة لا يجلس مع مدعويه(ضيوفه) بل على العكس،فان من واجبه القيام بخدمتهم بنفسه وبأقصى التواضع، لأن الضيف في التقاليد العربية هودائماً مرسل من الله عزّ وجل ٠٠٠

قلت : ان هذه العادات النبيلة لا يمكن مصادفتها الا في البلدان الاسلامية فقط ٠٠٠ وقد لاحظت ـ كما أعتقد ـ يا سيدي الجنرالـ عندما كنت في باريس ـ كم تتعاطف فرنسا مـع الاسلام ٠٠٠!٠٠

فما كان من الدكتور الشهبندر ـ الذي يتابع حديثي مع نوري السعيد ـ الا أن بادرني معلقـاً على كلامي بلهجته الخطابية الحاسمة فقـال :

•• اننا نشكرك أيتها السيدة المحترمة باسم الاسلام ••• ولكني مع ذلك أريد أن أؤكد لك بهذه المناسبة ـ أن الأمر الذي نحن بصدده لا يتعلق بعادة أو تقاليد اسلامية ••• ان هـذا التقليـد عربي يمارسه كـل سكان المشرق ••• وأضاف: قد تعتقدين أنه يسعدنا أن تقولي لنا انكم (في فرنسا) تتعاطفون مع المسلمين !•• كلا ••• يا سيدتي ••• فنحن في سورية ، لسنا مسلمين ، ولا مسيحيين •••ولا دروز ولا يهود •• اننا سوريون فقط •• وأرجو ألا تهتمي كثيراً بثقافاتنا المتنوعة ، بل عليك أن تركزي أهتمامك كثيراً على وحدتنا الوطنيـة ••• » •

وعلى المائدة المجاورة ، استرعى انتباه عدد من الشباب السوريين الحديث الذي جرى بيني وبين نوري السعيد والدكتور الشهبندر، وقـد صفقوا طويـلاً لسماع رد الدكتـور الشهبندر وسمع الأمير تصفيق الشباب فطلب الى السيد (ت.ف.) اعلامه عن أسباب التصفيق وموضوع الحديث •

وفي هذه اللحظة انزلقت عباءة الأمير مـن على كتفيه فظهر تحتهـا « الردنكوت » الأسود ذو الثنيات الحريرية ، وكذلك أهداب كوفيته الذهبية ، وبدا وجهه الدقيق القسمات وعيناه اللتان تشعان ذكاءً •

قلت في نفسي : « ان المرء ليشعر بمدى السحر الذي يمكن أن يمارسه هـذا الرجل الفذ على الجماهير، دون أن يعرف بدقة ما اذا كان ذلك صادراً عـن مدى السعادة في تعابير وجهه ، أو أنه من تأثير رأسه المتكبر ببساطة، هـذا الرأس الـذي يشبه رؤوس الفرسـان المتطلعين الى النجوم •••

وان ما يدهشني بشكل خاص ، في هذا الرجـل ، هو بساطته الأصيلة ، وعزة نفسه الطبيعية المترفعة التي تدل أكثر من أي شيء آخر على نبالته وأصالة محتـده ••• انهـا والحق يقـال : تميز الأصالة العربية •••

لقد بدا الأمير أثناء مائدة الغداء مرحاً، وسعيداً ، وكانت نظراته الثـاقبـة كالبرق الخاطف ، تعانق الحضور على الموائد كافـة وكأنه يهتم بكل مدعو على حدة ويشكر كل الحضور الذين يحتفلون بعودته •••

وبعـد انتهاء حفل الغداء صعدت الى القطار ، وفي لحظة عودتي الى حجرتي السابقة سمعت صوتاً ناعماً يناديني بهمس •• رفعت رأسي فاذا بي أمام باب حجرة كتب على بابها عبـارة « للنساء فقط » •• وشاهدت يـداً تمسك حجـاباً تداعبه الرياح ولجت البـاب بسرعة فاذا بي التقي ببعض النسوة الصديقات اللواتي سبق أن تعرفت عليهن في بيروت ومن بينهن : الآنسة ليلى ووالدتها وخمس أو ست سيدات (هوانم ••) كنّ قد عدن لتوّهنّ من تناول الغداء ، وكانت حجرتهن مليئة بقشور البرتقال ••• وبقـايا الفستق الحلبي ••• وأخـذن يدخنّ السجائر والأراجيل ، بينما كانت احـدى الخادمات السود منحنيـة على ركوة القهوة الموضوعة فـوق نـار « المنقـل النحـاسي » الذي تحيط بـه أقـدام النسوة وأيديهن للتدفئة مـن البرد •••

رحبت السيدات بي ، والقيّن على نار«المنقل» حفنة من البخور لهذه المناسبة وأخذت الخادم تحرك مروحتها لتساعد على انتشار الرائحة الطيبة في الحجرة٠٠٠ وسرعان ما أمطرتني النسوة بوابل من الأسئلة المختلفة باللغتين الفرنسية والعربية مثل :

ـ ماذا قال الشريف ؟ وماذا أكل ؟ وهل كان يتكلم بلغتكم ؟٠ الخ ٠٠٠

أما الآنسة ليلى التي احمرت وجنتاها خجلاً فقد سألتني عما اذا كنت شاهدت الأمير عن قرب ؟ وهل نظر اليَّ ؟٠٠ واستطردت قائلة : آه يا شريفنا !٠٠٠ آه يا مليكنا ٠٠٠ أحقاً انه نبيل ؟ أحقاً انه جميل ؟ وهل هو رصين ووقور ؟٠٠٠

انه يشبه تماماً « أمير النحل » !٠٠٠

قلت لها : من هو أمير النحل هذا ؟٠٠٠

أجابت :٠٠ نعم ٠٠٠ انه الامام علي(رض) ابن عم الرسول (ﷺ) زوج فاطمة الزهراء (الطاهرة) ٠٠٠ ان الشريف فيصل من أحفاد الامام المنحدرين من بني هاشم٠٠ انه قرشي حقيقي ٠٠٠ وبعد هذا الحديث بادرت ليلى بتعريفي على ثلاثة من زميلاتها المتحمسات لقضية المرأة العربية ، ترافقهن أمهاتهن٠٠٠ وأضافت أنهن يذهبن الى دمشق ليرفعن للأمير فيصل عريضة بمطالبهن ٠ واستطردت الآنسة فأشارت الى احدى السيدات وقالت :

« هذه نخله هانم « رئيستنا » ٠ لقد أعدم الأتراك شقيقها وخطيبها في ساحة بيروت ، كما عذبوا والدها لكي ينتزعوا منه أسماء الوطنيين الأحرار الآخرين ، أما هي فكان من المحتمل أن ينفيها جمال باشا السفاح خارج البلاد لو لم يهزم الأتراك لأنها كانت تنوي اغتياله ٠٠٠

قلت : كيف ٠٠٠ هل هي نسخة مسلمة عن شارلوت كورداي(٨) ؟

ثم نظرت برعب تقريباً الى هذه الفتاة المتوسطة الجمال ، الرشيقة القوام كاسمها (كالنخله) ، ولاحظت القسوة في قسمات وجهها، مما يدل على قوة شخصيتها وقدرتها الكبيرة على التآمر ٠٠٠

تابعت الآنسة ليلى كلامها فقالت : عندما طرد فرسان الملك حسين ، بقيادة ابنه الأمير فيصل ، الجيشين الألماني والتركي من سورية ، كُلّفت السيدة نخله هانم رفع العلم الشريفي على سراي بيروت ٠٠ ، قاطعتها متسائلة ٠٠٠ ماذا تقولين هل صحيح أن علم الشريف حسين رفرف على سراي بيروت ؟٠٠

ـ قالت ليلى٠٠ نعم٠٠ لقد ارتفع العلم الشريفي فوقها طوال خمسة أيام أثناء ولاية الأمير فيصل على بيروت ٠٠

قلت : وهل شملت مملكة فيصل بيروت ؟

أجابت ليلى : نعم لقد استمر ذلك مدة خمسة أيام وكان خلالها ملكنا ٠٠ ومن أجل

ذلك نحن نحبه لأننا عشنا ساعات من الأمجاد العربية خلال هـذه الايام الخمسة ... ذلك أن نضالنا في سبيل الاستقلال يرجع الى ما قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ، ولو لم تنشب هـذه الحرب فاننـا كنـا سنثور ضد طغمـة الامبراطورية العثمانية ... وبمن كنا سنفكر في مثـل تلك الأيام ؟ ومـن كنا سنفاديه من أعماق قلوبنا المحطمة ؟ .. أجل انه فيصل .. فيصل هو الذي كان و لايزال ملكنا العربي ..

قلت : ولكن يا ليلاي العزيزة المتحمسة ... اذن فالانتداب الفرنسي يشكل خيبة أمل هائلة بالنسبة لجميع المسلمين ؟ ...

أجابت : نعم .. ولا .. ففي عائلتنا هناك بعض الافراد الذين يحبون فرنسا كثيراً، فأشقائي مثـلاً تلقوا تعليمهـم في مـدارس « الجيزويت » .. أما أنا فأتابع دراستي لدى « راهبـات الناصرة » .. وفي منزلنـا تُقرأ مؤلفات فولتير وروسو وتاريخ الثورة الفرنسية .. ونحن نقدر فكركم الحر .. وتطلعاتكم الكريمة .. كما نعلم أيضاً أننا لم نتوصل بعد الى مرحلة نستطيع معها أن نحكم أنفسنا بأنفسنا .. ولهذا فاننـا نفضل فرنسا على بقية الحلفاء ... أفلم يحلم نابليون بونابرت بانشاء امبراطورية عربية ؟ .. ولتعلمين أن رابطتنا (النسائية في بيروت) وقّعت عريضة بتأييد الانتداب الفرنسي ... وقلنا لبعض أفراد الطائفة الدرزية (في لبنان) ممن يفضلون الانكليـز ، وللأرثوذكس الذيـن يميلـون لأمريكـا .. (؟) : ان فرنسا وفيّـة وسوف تكون صديقة ومستشارة نزيهـة .. وسوف تعلمنا بكل أخوة لكي نصبح أمة عظيمة ... ولكننا عندما رأينـا هـذه المدافع والدبابات والطائرات .. وهذه الوحدات السنغالية (التي نسميها نحن العرب وحدات العبيد) ـ عندما رأينا كل هـذه القوات التي تحل محل قوات « مسيو بيكو »(٩) التي لم يكن يزيد تعدادها على خمسة آلاف جندي .. عندها أيقنا أن فرنسا كغيرها مـن المستعمرين ليست مؤهلة لمساعدتنـا لضلوعها بالجريمـة ... وهـي لا تستحق أن يكون لهـا جنود أحرار وأنهـا حضـرت الى بلادنا لتحتـل أرضنـا ولتزرع قواتها مكان الجيش العربي ... » .

وهنا تدخلت السيدة نخلة « المتأمرة » .. فوجهت لي الكلام قائلة : هل تسمعين هتافات الناس .. وهل أدركت الى أي حد يحب شعبنا الشريف ؟ .. وحبذا لو أنك حضرت الى بلادنا قبـل عام .. لقد كان شبابنا ينامون على سكة القطار لكي يخرج اليهم ويحييهم .. أما نحن النساء فقد علقنا أثمن وأجمل مجوهراتنا وحليّنا على أقواس النصر احتفالاً بالأمير .. أما اليوم فقـد فتر الحماس .. وكثير مـن الأنصار يعيبون على الأمير « فتوره » .. فهو لم يصمُد أمام كليمنصو .. ولم يعرف كيف يفرض على فرنسا ما وعدتنا بـه في مؤتمر السـلام ...

قلت موجهة كلامي الى ليلى : أوه يا ليلاي العزيزة ... انك تمثلين دور الرجل السياسي الكامـل ... ولكن قـولي لي ماذا تطلبين ـ بصفتك امرأة ـ من الأمير فيصل ؟

أجابت : أوه .. انني لن أفرض عليه شيئاً .. وسوف تقوم نخلة هانم بشرح مطالبنا للأميـر .. وسأقتصر من جانبي على القـاء بعض أشعاري الوطنيـة وأقدمهـا له باسم رابطتنا النسائية ... انها بمثابة اكليل من الذهب ...

قلت : وكيف ستلقين قصائدك ؟ هـل ستكونين ملفعـة بالملاءة وتلقينها مـن وراء خمـارك ؟٠٠

أجابت : أجل ٠٠ وبلهجة مازحة ٠٠ سوف نكون ثلاثـة « أبو الهول أسود » كمـا تقولين (تشير بذلك الى الأمهات٠٠) وأربعة نسـاء متحررات مكفنـات ٠٠٠ (تشـير الى عضوات الرابطة النسائيـة) ٠٠٠

حدقت بالآنسة ليلى ٠٠ فوجدتها متعبةولكنها جميلة حقـا ولها عيون براقة وخدان أرجوانيـان ٠٠ وصوت انطفـأ حماسه كماأعتقد ٠ وقلت في نفسي : « يا للأمير المسكين انه لا يعرف مقدار خسارته ٠٠!٠٠(١٠) ٠٠ثم استطردت :

ـ ولكن يا ليلى ٠٠ اذا أصغى الأمير الىأشعارك وأراد أن يتعرف على الشاعرة ورغب في رفـع خمارك ؟

احمر وجـه ليلى خجلا ٠٠ وسارعت بالاجـابة قائلـة :

ـ انه وحده الذي يستطيع ذلك ٠٠٠ وليفعل ذلك لن يضيرني٠٠ انه مليكنا٠٠!٠٠

* * *

□ وادي بـردى :

كان المطر قد توقف عندما دخل بنا القطار وادي بردى ٠٠ ولم نكن نرى على جوانب السكة الحديـدية سوى الجداول والشلالات المغنية والينابيع والحقول وأشجار الصفصاف والحور الرجراج وبساتين المشمش والتفاح٠٠ وعندما نرفع أعيننا تصبح المرتفعات جرداء ذات منحدرات مخيفة ، وذراها شامخة تصعد نحـو السماء ٠٠ وكأنها الجدار الهائل الذي تتخلله بعض الكهوف وبقايا القبور القديمة٠٠٠

وخلف كل ذلك رأيت جسراً رومانيـاً وصخرة تاريخيـة هائلـة وطريقـاً محفـوراً بالصخور فوق واد يتفجر منه نهر مُزبد يقفزمعربداً مـن كتلة الى كتلة وتتموج مياهـه وكأنها تغلي من شدة الانفجار ٠٠ ثم يستسلم لمجرى متعرج فيثـور أحيـاناً ثم لا يلبث أن يرضخ بغباء فيتسلل صاغراً داخل « توربينات شركة الكهرباء البلجيكيـة »(١١) ٠٠٠ انـه « بردى » نهر العرب المتجمـد ٠٠٠ و « نهرفرفار »(١٢) الذي ذكر اسمه في التوراة ، و « نهر الذهب »(١٣) كما كان يسميه قـدماءاليونان ٠٠ أما هذا « الشق الصخري » الذي نشاهده في أعلى الجبـل فقد حُفر في عهـدالامبراطور الروماني أورليان(١٤) عندما أعاد احتلال سورية واستولى على خزائن زنوبيـاالهائلة امبراطورة الشرق ٠٠٠ لقـد حاول الصليبيون القادمون مـن الجنوب (فلسطـين)الوصول الى دمشق ففشلوا ٠٠ وقد ساعدت السواقي المتشابكة والغابات الكثيفة المحيطة بالمدينة على صمودها ٠٠٠

وبمقدار ما كان القطار يقترب من المدينة كنا نشاهد حولنا الخمائل الهرمية الخضراء، وعرائش العنب والحدائق الغنـاء والبيوت الملونة (الفيلات) كأنها الأقفاص ، والأكشاك

البلورية الزاهية كأنها الشمعدانات ،والصواوين المبنية بجذوع الحور ٠٠ والشرفات الطينية، والمقاهي المعلقة المطلة على الشلالات، والمقاهي التي تغمس أقدامها بمياه النهر ، والمقاهي القائمة على الجسور الخشبية ، والمعششة في الجزر الصغيرة أو المتوغلة بين أشجار الصفصاف ٠٠٠

ان ما نشهده هذه الايام في دمشق ليس نتيجة سكرة المياه الهادرة ونشوة الخضرة ٠٠ فسورية الكبرى العربية العطشى لا تعرف الاستماع الى خرير الينابيع ولا تعرف المياه الرقراقة التي تعكس ظلال الحور ٠٠٠

أما أنت يا دمشق ٠٠٠ يا « عين الشرق » ويا « منافسة الخلد » ويا « فردوس الأرض » فانني الآن أفهمك وأفهم نبيك (ﷺ)(١٥) الذي تأملك وهو على ظهر البراق المجنح خلال ليلة مقمرة ٠٠٠ فاختار العودة الى الجزيرة العربية الجرداء لأنه رفض استبدال لذات خضرتك الارضية وهدير مياهك الصاخبة بفردوس السموات ٠٠٠

* * *

☐ دمشق :

وفجأة أصم آذاننا الصراخ ٠٠ الصراخ الحاد والهتافات ٠٠٠ « الاستقلال المحبوب » « الحرية » « المسيرة السورية » ٠٠ الضوضاء ٠٠ والصخب والزحام ٠٠ سيل عرم من البشر وحركة مستمرة ٠٠ أسرعت الى نافذتي ٠٠ قلت : « سبحان الله » كما يقول العرب ان الشمس تسطع دائما فوق دمشق ٠٠ انها شمس لامعة تداعب الجماهير الحاشدة التي لم تشاهد عيناي أكثر منها بريقاً والواناً زاهية ٠٠ ٠ انها جماهير شرقية حقيقية شديدة الزخرفة ٠٠ انها جماهير ألف ليلة وليلة ٠٠ ومن بينها فرسان في منتهى الروعة ورجال يحملون اللافتات والأعلام ومرشات ماء الورد والمباخر ٠٠ وهناك على جوانب الشوارع العديد من الباعة والتجار والحمالون واللصوص والشحاذون وقارعو الطبول ٠٠ والأطفال الصغار الذين يرتدون أجمل الملابس الزاهية فهم يحتفلون مع آبائهم بالأعياد العربية ٠٠٠ انهم كحوريات الجنة ، أو كالأطفال في عيد القربان المقدس ٠٠ انهم محمولون على أكتاف الآباء بكل حنان ٠٠ يضمون أرجلهم حول أعناق آبائهم أو محمولون على بغال مزينة بريش النعام والقلائد الزرقاء ٠٠٠

كان كل هذا «الاسلام الاسطوري» يتدفق كالبحر أمام فندقي فيسرع أحياناً ، ويتلاطم أحياناً أخرى ثم ينسحق بعنف على حافتي نهر بردى ٠٠ ذلك أن « بردى » حاضر هنا في قلب دمشق ٠٠ انه مظلوم صامت ومسجون بين رصيفين ضيقين حديثين ولكنه مع كل ذلك مبتهج بكل ما ينعكس على صفحة مياهه الصافية(١٦) ٠٠٠ وبكل الألق والألوان التي تلمع في أمواج مياهه الباردة مما يعيد اليه اسمه القديم « نهر الذهب » ٠٠٠

وبين هذه الحشود شاهدت بقعة ملونة تشبه الواحة الغناء في حالة المسير ، فيتضاعف مع تحركاتها توهج نهر بردى وتنعكس على صفحته الألوان البرتقالية والليمونية والمشمشية ٠ انها جماعة من النساء السوريات خرجن لتحية الأمير والمشاركة بالأفراح ٠

وعند بزوغ شمس اليوم الثاني لوصولنا الى دمشق ، أسرعت بالخروج من الفندق وتسللت داخل الحشود الصاخبة يحرسني اثنان من الضباط الشريفيين ، كانت الاحتفالات في دمشق قد بدأت قبيل بزوغ الشمس · اجتزنا أحد الجسور تحت أقواس النصر المصنوعة من أغصان الشجر الخضراء ·· ووصلت الى الضفة الأخرى أمام سراي الحكومة ··· وهي عبارة عن بناء ضخم حديث ، حبس فيه الأمير فيصل لاستقبال الوفود والموالين وسوف يُلقي فيه خطابه الرسمي ·

وفوق السدة المنصوبة أمام السراي ، التقيت بصديق قديم هو : توفيق طارق بك الرسام الأول والوحيد في دمشق · كانت تفوح منه روائح العطور شأنه في ذلك شأن بقية الضباط الشريفيين والرجال الرسميين والوجهاء ··· ذلك أن العطور في دمشق هي اللغة السرية التي تُعبر عن الفرح ···

دخلت القاعة الكبرى في السراي ، وكانت تغص بالوفود ، مما اضطرني للخروج الى الشرفة لمشاهدة الاستعراضات :

كانت هناك جمهرة من رجال الدين والنواب تقترب من السراي بخطى رصينة ، ويرتدي أفرادها العمائم الخضراء والبيضاء ·· بعضها ضخم والبعض الآخر صغير متموج ·· قيل لي ان بين هؤلاء السادة : المفتي والقاضي والأئمة وخطباء المساجد ·· انهم شيوخ حساسون يتدثرون بالبستهم التقليدية ولا يُرى منهم سوى أشباح متكاتفي الأيدي «كالرهبان» وتتدلى من أكفهم مسابح العنبر ·

وخلف هذه الجمهرة يسير جماعة « المولوية » برتل رباعي ، يتقدمهم المصلي الأعظم الموقر ، وهم متشابهون تماماً بأرديتهم الفضفاضة الزرقاء وطرابيشهم اللبادية العالية ·· وخُيل الي كأنهم فُصّلوا بالجملة ··» ···

··· يا الهي ·· كيف يمكن أن يحلم الانسان بمواكب أكثر عروبة ، وأكثر تلويناً من مواكب حرفيي دمشق ، بدءاً من بائعي السجاد الى عمال المقاهي الذين يحضرون الأراجيل للزبائن ··· ان هؤلاء الحرفيين يتميزون براياتهم وأعلامهم التي يحملونها أثناء الحج الى مكة ·· هذه الرايات التي بقيت مطوية ستة أعوام(١٧) لم تخرج خلالها من الزوايا والمساجد ···

يا له من منظر أخاذ ··· انهم يحيطون بنهر بردى وينشدون ويهتفون على أنغام الدربكات والمجاوز(١٨) ··· ويرفعون أعلامهم المقدسة الحمراء والزمردية والنرجسية المطرزة والمزركشة بخيوط الذهب ···

وها هم قد أخذوا يرقصون ·· فتنتشر ألبستهم كأنها الأجنحة وتتلألأ مسابحهم وتلمع الأهلّة المركبة على ذرا حراب أعلامهم ، انهم في حالة نشوة عارمة تحت وهج شمس الشرق المقدسة وعلى ضفة النهر العظيم ·

والآن جاء دور التلاميذ الصغار ·· انمنظرهم يهز النفوس ولا ندري من أية واحة قدموا ··· كانوا يرتدون أثواباً بيضاءكالملائكة وعلى رؤوسهم أغطية تقليدية ، ويحركون بأيديهم مرشات للعطور ويشكلونأثناء مسيرتهم أقواساً صغيرة من الخضرة ، ويحملون فوق أكفهم ألواحاً خشبية تمثلالقرآن الكريم المفتوح ·· كتب عليها بأحرف ذهبية الآية الأخيرة من دروسهم :

« ختم الله على قلوبهم » ···

وقد أخذوا ينشدون لحناً حماسياً عند اقترابهم من المنصة ···

كان هناك ما هو أروع من الاستعراضاتوالمواكب ·· ألا وهو الجماهير نفسها التي كانت تتزاحم وتتعاظم على ضفتي النهر ··لدرجةعجز عنتنظيمها الفرسان النظاميون··

كل ما في دمشق من دواب (من حمير وبغال وخيول رهوانية ·· وخيول أصيلة ·· وخيول سباق ··) كلها كانت تتجول وعلىظهورها الرجال والأطفال ، وهي مزينة بالسروج الملونة ، وريش النعام ، وبعضهامغطى بعدة كاملة مزركشة تزينها المرايا الصغيرة والخرز الملون ··· والأهدابالصوفية والحريرية الزاهية ··

أما أشجار الشوارع فكان يتدلى منها الأطفال كالعناقيد ·· وكان الباعة المتجولون يطوفون بين هذه الحشود وعلى رؤوسهمالصواني المليئة بالحلويات وأنواع الشراب··

أما اللافتات التي لا حصر لها فكانت تعبر عن طموحات السوريين وآمالهم وقد كتبت بلغات عديدة ، وبتعابير غريبة ···

كان الصراخ يختلط بالأهازيج والهتافات والأنغام المجنونة التي يعزفها بائعو [الليموناضة] عصير الليمون وهم يطقطقونبكاساتهم النحاسية التي يقدمون فيها شرابهم للمارة · أما بائع التمر هندي المثلج فيحملعلى صدره برميلاً زجاجياً مزيناً بالتعاويذ والقلائد ·· وهو ينادي بأعلى صوته أسنانك·· أسنانك ·· يا عطشان ·· انتبه لأسنانك انها مثلجة وباردة جداً ···

وفي بعض الأحيان كان المتظاهرون يقطعون المواكب الرسمية فيختلط الحابل بالنابل ويروح الباعة المتجولون ضحيةالفوضىعندما يتدخل فرسان الشريف لضبط الأمور ·· وفي هذه المعمعة تنقلب الصواني من علىالرؤوس ، وتتدحرج طاسات النحاس على الأرض ، ويسقط بعض الشيوخ من فوقرواحلهم وأطفالهم بين أيديهم ·· ولا تعود الأمور الى حالها الا عندما يندفع عساكرالأمير بخيولهم في قلب الحشود ويلوحون بكرابيجهم مهددين ·· عندها يعود الهدوءويسود الصمت ويسارع الباعة لجمع ما سلم من بضائعهم ، كما يعود الشيوخ الى ظهوررواحلهم ثم تستأنف المواكب سيرها فتنحني الأعلامباتجاه الأمير وتعلو الهتافاتالوطنية··

« الحرية لسورية » ··· الاستقلال ـ يحيى فيصل ···

وهناك على الضفة الثانية للنهر يسمع بعض الضجيج والصياح فنشاهد رجلاً ضخماً محمولاً على الاكتاف وأمامه زمرة من الرجال الذين يسيرون الى الخلف ووجوههم نحوه ، ومن وقت لآخر كانت هذه الزمره تتوقف ويبدأ الرجل المحمول على الأكتاف بالقاء القصائد والأهازيج ، فيرددها أتباعه ويصفقون له بقوة ورتابة ٠٠ ثم يستأنفون السير ٠٠ وهكذا الى أن وصلت الزمرة أمام السراي ، عندها اوعز قائد حرس الخيالة لهم بالتوقف ، وقدم لهم شراب الليمون والتمر هندي المثلج ٠٠ وقد علمت من صديقي الرسام توفيق طارق بك أن « البهلوان » المحمول على الأكتاف شاعر شعبي معروف يُلهب بشعره الحماسي الجماهير، وله جولات مشهورة في مواسم الحج ٠٠٠

ويبدو أنه نظم مقطوعة زجلية بمناسبة عودة الأمير وهو يرددها محمولاً على الأكتاف، وغداً سترددها كل دمشق ٠٠ ومن ثم كل سورية ٠٠٠

وبعد فترة من الراحة اعتلى الشاعر أكتاف بعض زملائه وأخذ يتلو قصيدته التي حفظت معاني بعض مقاطعها :

« **لقد عاد الشريف فيصل**
عاد من أوربا وباريس
أهلاً وسهلاً بشريفنا ٠
تحية يا عيوننا ٠٠٠
لقد عدت يا ملك العرب ٠٠
عدت الى مدينة الينابيع والى بوابة الله
لقد حمل فيصل أعلامه الظافرة
انه ينحدر من أنبل قبيلة عربية
عاد والعطر المقدس يفوح منه ٠٠٠
لقد هزمت جميع أعدائنا أيها الضرغام
وهاجمت ألمانيا وتركيا وعطر المجد يتضوع منك
أهلاً يا قمر الايمان
فيصل النبيل يصول ويجول فوق جواده
فيشتت عساكر جمال باشا
ويمزق جيش غليوم المسكين
ان جنودك يا سيف الله يملأ صدورهم الحماس
فتدفعهم اليها أيها العظيم الى العز والرخاء
انه لا وجود للجائعين في جيشك
يا ابن قريش ٠٠ يا حفيد الرسول ٠٠» ٠٠

* * *

وما أن أخليت الساحة من الشاعر وزمرته ، حتى قفز اليها راقصان يحمل كل منهما بيده اليمنى سيفاً ، وباليد اليسرى ترساً ،وأخذا يتبارزان ويقفزان قفزات غاضبة شيطانية ، ويرددان بالتناوب مقاطع وأهازيج تفاخرية تنتزع ضحكات المتفرجين ، وتثير اعجاب الأطفال المتمعشقين على أغصان الأشجار ...

ويبدو أن المتبارزين يرددان أهازيج شعبية تسخر من الحلفاء(١٩) بلغة غير لائقة ...ذلك ما استطعت فهمه من تعليقات رفاقي المطربين .. لأنهم كانوا يضحكون وتبدو عليهم علائم الحرج .. وعندما استفسرت من صديقي الرسام .. أجابني بما معناه « انه كلام لا يمكن ترجمته ! » ...

في هذه اللحظة بدأت تصل الى السراي بعض العربات ذات النوافذ المغلقة ... وسمعت الضباط يتهامسون ويقولون : ها قد وصلت الحريم ... فالتفت نحو النسوة القادمات وحاولت عبثاً لكي أميز وأتعرف على صديقتي ليلى والسيدة نخلة المأساوية ... لأن السيدات جميعهن ملتفات بملاءاتهن ...

يا الهي .. كيف أستطيع الاستماع الى أشعار الحمامة العاطفية ليلى وهي تلقيها أمام أمير النحل ...؟

عبثاً فليس هناك موطىء قدم في القاعة... هكذا قيل لي ... اذن ليس أمامي الا أن أتابع مرور المواكب الشعبية الباقية :

ها قد وصل الى الساحة رتل من عشرين طفلاً يرتدون الكوفية والعقال الشريفي فتبدو لي رؤوسهم وكأنها : علب جبنة الكاممبير المدورة ... ويعلق أحد المتفرجين :

ــ انهم بؤبؤ عين الأمة

قلت : وهل عندكم أطفال آخرون مثلهم ؟

أجاب زميلي : بالطبع وخاصة أطفال الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا السفاح..

... وأخيراً انتهت المواكب والمظاهرات وحان الوقت لكي يلقي الأمير فيصل كلمته الرسمية.. وبدأ الضباط يدخلون الى القاعة... أما أنا فقد غادرت الشرفة واتجهت مع صديقي الرسام توفيق طارق بك الى المدينة.

وما أن ابتعدنا عن السراي بحوالي مائة متر تقريباً حتى اختفى نهر بردى بشكل سحري تحت احدى الساحات المسماة بـ «ساحة المرجة».. وهي ذات طابع حديث « بَشِع » ، يرتفع وسطها عمود أخضر من الحديد الصب ، وفي قسمه العلوي ما يشبه التاج المسطح وقبة صغيرة تُشبه « السكرية » ، والى جانبها مئذنة تشبه المزهرية ..!!

لقد صنع هذا العمود في معامل «كروب» الالمانية بناء على طلب السلطان عبدالحميد بمناسبة افتتاح الخط التلغرافي بين دمشق ومكة المكرمة) . وفي هذه الساحة أيضاً نصبت مشانق الشهداء الوطنيين أثناء الحرب العالمية الأولى ونفذ بهم حكم الاعدام .. وكان من

بين هؤلاء عمر بك الجزائري ابن الأمير عبدالقادر ، الذي وجهت له تهمة التعاطف مع فرنسا .. لقد كان عمر الجزائري شاعراً عاطفياً هادىء الطبع ، ومتصوفاً .. هكذا وصفه السياسي والكاتب الفرنسي المعروف « موريس باريس » الذي زاره في منزله في ضاحية دمر ...

★ ★ ★

خلت شوارع دمشق تقريباً ، واستأنفت حافلات الترام (الترامواي) رحلاتها ، وقد زينت بالورود وأغصان الحور الخضراء والأعلام الفيصلية .. كانت الحافلات تدور في ساحة المرجة حول النصب التذكاري ، والركاب يرددون الأغاني على أنغام الدربكة بينما يثابر السائق على قرع الجرس البلجيكي باحدى قدميه ...

فماذا كانت تحمل هذه الحافلات ؟

فيها أناس يرتدون ألبسة من كل الألوان ، وبعضهم يرتدي معاطف ذات طابع قديم يعود الى عهد التوراة تصفّق عند هبوطهم أو نزولهم ... وآخرون أثواباً من الموسلين الكهنوتي تتطاير أطرافها عند الأبواب .. انهم يحتفلون بأحلى أعياد سورية العريقة القدم ...

... أسرع أيها السائق .. أسرع في عاصمة عالم السحر .
أسرع على بساط ريح الف ليلة وليلة ...
أسرع الى جبل قاسيون والى أقصى نقطة في حي الميدان ...
أسرع في عربة تسير دون خيول ...
تتزحلق معلقة بخيط في الفضاء ...
وأعلن عن مرورها بأنغام موسيقية عربية مرحة !!

ولكن حافلات الترامواي لا تحول دون تجول الفرسان البدو في شوارع دمشق ، فوق الخط الحديدي .. انهم يمتطون الخيول العربية الأصيلة النزقة ذات الرؤوس الجميلة الناعمة التي تنتصب مرفوعة وكأنها تتطلع الى السماء وتطوي أعناقها الرشيقة كأنها فاتنات البجع ! ...

وأخيراً .. انه عهد البدو(٢٠) وهو على الأقل يمتاز باللباس البدوي المعروف .. الذي بدأ الناس في سورية يستبدلونه بالعمامة والطربوش ...

والحقيقة لا شيء أكثر جمالاً من الكوفية الحريرية وأهدابها المزركشة التي تضيف الى العباءة مظهراً شامخاً متكبراً تفوح منه العذوبة والرقة تذكرنا بوجه السيد المسيح ..

والفتيات السوريات أنفسهن يلبسن هذه الكوفية بألوان بيضاء أو سماوية أو وردية ، أو مطرزة بخيوط الذهب والفضة ويصبحن بذلك أشبه بصبايا « مريم العذراء » ...

وفي الطريق ·· شاهدنا مفرزة من فرسان الشركس يرتدون لباسهم التقليدي ويزينون صدورهم بأنابيب من الفضة ومحارم خضر ملفوفة حول عود مدور من القصب الملون ···

وهذه جماعة من الايرانيين يلبسون على رؤوسهم « قلابق » من الاستراكان ·· وجماعة أخرى من الهنود المتعممين بعمائم ضخمة ذات لون وردي ·· وهذا حشد من الدروز الأشداء المتغطرسين ذوي الشوارب والجدائل الشعر ويبدون وكأنهم من « الغولوا »(٢١) ويغطون رؤوسهم بكوفيات سماوية ·· أما أطفال أولئك وهؤلاء فيشبهون آباءهم : بعضهم يلبس القلبق الاستراكان ، وآخرون يلبسون القبعات الصينية ، وغيرهم يلبسون الحطائط من الموسلين المموج ··· تحملهم أمهاتهم ذوات العيون النجل والثياب الطويلة الملونة ···

أما أطفال البدو فكانت قبعاتهم القماشية الملونة تزين بالمرايا والصدف وريش النعام وكأنهم الخيول ···

لم أصادف بين هذه الحشود البشرية أية قبعة أوربية كما لم أشاهد شبحاً أوربياً ، بل ولم ألحظ أي « ملاءة » نسائية كما هي الحال في شوارع بيروت ، فليس هناك سوى الأغطية (المآزر) السوداء القاتمة التي تتناقض تماماً مع لباس النسوة في المدن الأخرى والأرياف ··

والى جانب هذه الواحات النسائية السوداء ·· كان الرجال يرتدون أنواعاً مختلفة من الفراء ·· ابتداء من فرو الدب الابيض الناعم . والثعالب السيبيرية . الى الكازاك الكردي المبطن بفرو الخروف الأشقر الذي يتدلى على الظهر أكماماً طويلة أسطوانية قاسية تشبه أنابيب الري ···

ومما أدهشني أيضاً رؤية جماعة من الصينيين ذوي الأحذية العالية، وكانوا يلتفون بدثار واسع مبطن ، ويغطون رؤوسهم بقبعات هرمية غريبة الشكل تبرز فوق فوطة حمام ملتفة على شكل عمامة ···

وتساءلت عندما رأيت جماعة من السودانيين : ما الذي جاء بهؤلاء الى دمشق ؟ انهم طوال القامة الى حد ملفت للنظر ،ضعيفو البنية ، يلتفون بقطعة من الكشمير على شكل ملحفة ، ويبدون كأنهم نوع من أشجار الزينة الباسقة ···

وبين المارة شاهدت بعض الرجال الذين يلبسون نوعاً من ثياب النوم بألوان ربيعية بعضها بصفرة الفستق أو اللوز الأخضر ،وبعضها الآخر بلون أزهار الدراق ، كان يرتديها بشكل خاص شيوخ مسنون في منتهى الأناقة ويغطون رؤوسهم بعمائم نظيفة ناصعة البياض يزيدهم وقاراً لحاهم اللامعة والحاشية من المراهقين الذين حولهم وهم يحملون المباخر ومرشات ماء الورد والياسمين ·· يا له من جو حدائقي أخاذ يغمر هؤلاء الشيوخ ··! ·· وقد لفت نظري أن بعض المارة يهرعون اليهم ليقبلوا أكتافهم وينالوا بركاتهم ويتعطروا بعطورهم ·· ثم يقولون شاكرين للشيخ : ليعطر الله قبرك !···

أما الصغار فيبتسمون بحياء ويتابعون مسيرتهم بصمت رافلين بثيابهم المزخرفة وكأنهم يسيرون في جنازة ٠٠٠

تابعنا السير فتخطينا شارعا يمر في وسطه خط حافلات الترامواي وعلى جانبيه تنتشر الحوانيت اليونانية ، والمطاعم التركية، مطاعم فاخرة ، حيث القدور النحاسية اللامعة مصفوفة فوق ما يشبه المائدة في المدخل ، وهي تغلي بهدوء على نار خفيفة بمرأى من المارة ، أما رواد المطاعم فيجلسون في المداخل حول فستقية ماء رخامية تتراقص مياهها من نافورة في وسطها ٠٠ وفي أحد أركان الحانوت شجرة ليمون متوهجة ٠٠٠

مررنا بمعرض المدينة القديمة جانب مسجد السنجقدار (أي المكان الذي كانت تحفظ فيه راية الحج أو السنجق) ؛ والمسجد بناء جميل ذو خطوط أفقية من الرخام الابيض والرخام الأسود ، وقد اكتسب مع مرور الزمن لونا صلصاليا فاتحا وأصبح اللون الأسود بلون الباذنجان المُحمَّر ٠٠٠

وغير بعيد عن المسجد يوجد سور دمشق القديمة ، وهناك الى جانب جدار القلعة يوجد ما يشبه « سوق البراغيث »(٢٢) ٠٠٠ انه السوق الذي يجسد الفوضى الشرقية المتناغمة بكل انسجام ٠٠ فهنا هم الحلاقون يمارسون مهنتهم تحت مظلات مشققة ، والى جانبهم بعض الغجريات اللواتي يفترشن الأرض ويقرأن الكف ، وأمامهن مربعات من الرمال الناعمة أو القواقع وهناك جماعة من ماسحي الأحذية (البويجية) ٠٠٠ وعدد من كتاب العرائض (العرضحلجية) المنهمكين بتدبيج الرسائل والعرائض العجيبة وحولهم رجال (أو نساء) يتحلقون بوجوههم بانتظار الفرج ٠٠

وفي بعض الزوايا يقبع السباكون المختصون بسبك الأختام وحفرها ، ونقشها وأمامهم عدد كبير من مشايخ البدو الذين يجلسون القرفصاء متدثرين بألبستهم الفضفاضة ، وهم ينظرون بحذر ودهشة للغبار الذي يتطاير من النحاس الذي يعالجه السباكون ٠٠٠ وتبدو على وجوههم الفرحة عندما يجرب السباك أختامهم الخاصة التي تطبع على الورق أسماءهم العجيبة !٠٠٠

والجدير بالذكر بهذه المناسبة أن « النقاشين » ومعظمهم من اليهود ، مشغولون جدا في هذه الأيام ، بل ومرهقون من العمل من كثرة الزبائن البدو الذين يطلبون الأختام، لأنهم يتوقعون لجوء الحكومة الى مصادرة الحبوب وقطعان المواشي والرجال ٠٠(٢٣)٠٠

وها نحن الآن ندخل حي الأسواق الدمشقية الرئيسي الاكثر شهرة وأكثر انتعاشا من أسواق الشرق قاطبة ، هذا الحي الذي حرق ونهب في القديم مرات عديدة ، وأعيد بناؤه لآخر مرة في عهد السلطان عبدالحميد واستعيض عن المتاهات المتعرجة المظلمة بسوق عريض مسقوف بألواح التوتياء وأصبح يسمى « سوق الحميدية » ٠٠٠

كانت جميع الحوانيت مغلقة ، تعبيرا عن مشاركة التجار في الفرحة ، باستثناء دكاكين الخبازين وبائعي الحلوى وبائعي السجاير الذين يجلسون أمام حوانيتهم الصغيرة

-كأنهم تماثيل بوذا تحيط بهم أكوام علب السجاير وأوراق التنباك العريضة المضغوطة المخصصة للاراكيل ٠٠٠

لم تكن خسارتنا كبيرة بسبب اغلاق الحوانيت لان أعداداً لا تحصى من الباعة المتجولين يجلسون أمامها على مقاعدهم الواطئة ،أو وراء عرباتهم (كرّاجاتهم) وحوانيتهم ٠٠ وكل واحد منهم ينادي على بضاعته بنغمات وعبارات خاصة يتميز بها وغالباً ما تتضمن نداءاتهم بعض الدعابات المضحكة أو الملائمة للظروف مثل : « كعك الاستقلال » و « ملبس الملك ! » و « المخلل السكري ، حامض حلو مثل الحلفاء(٢٤) ٠٠٠!!!! » ومطاطات الجوارب القوية المقاومة مثل فردان٠٠!(٢٥)» ٠٠٠ تين بعل ٠٠ مشمش وعسل يا تين ٠٠!» الخ ٠٠٠

كان السوق يتلألأ بالزينات على الطريقة الشرقية ٠٠ فالسجاجيد العجمية معلقة على مداخل الحوانيت ومتصل بعضها ببعض،وفي الأعلى تتدلى أقفاص ذات أشكال مختلفة تزقزق وتغني فيها أنواع عديدة من عصافير حدائق دمشق مثل : شحرور الصفصاف ٠٠، والهدهد الحكيم ، وعندليب الجنة الذي يتغذى بحبوب الريحان ويبني عشه فوق أغصان أشجار المشمش البلدي ٠٠!٠٠ وفي وسط السوق علقت لوحة ضخمة بعرض الشارع كالغسيل المنشور ، وعلق عليها صور الأمير فيصل ووالده الملك حسين شريف مكة ، وصورتا الأمير زيد والأمير عبدالله (الذي يرتدي بزة ضابط بريطاني ٠٠)٠٠

ولحسن الحظ أننا صادفنا أثناء تجوالنا في السوق (سوق الحميدية) ذلك البهلوان الشاعر الذي كان يعتلي أكتاف زمرة من أتباعه وهو يتابع القاء أهازيجه التي يرددها الجماعة من حوله ٠٠٠كما التقينا بموكب المولوية ٠٠ وشاهدنا أحد الخطباء يعتلي منصة مجهزة مسبقاً ويكرر القاء خطبة الأمير فيصل بواسطة مكبرة للصوت ويلتف حوله الناس بانتباه شديد ٠٠٠

سألت صاحبي الرسام عما اذا كان هذا الخطيب مأجوراً من أجل هذه المهمة الدعائية؟ فأجابني قائلاً : كلا يا سيدي ٠٠ انه يتبرع من نفسه للقيام بهذه المهمة ويعتبرها نوعاً من الخدمة في سبيل الله ٠٠ ولا ينتظر مكافأة من أحد ٠٠ لايمانه بأنه يُرضي وجه ربه وسوف يجزيه الله أحسن جزاء في الآخرة ٠٠٠

وعلى طول الشارع كانت اللافتات لا تغيب عن الأنظار ، وقد كتبت عليها شعارات مختلفة منها مثلاً :

« الدين لله والوطن للجميع » ٠٠٠!

« لا حياة بلا حرية » ٠٠٠!

الخ ٠٠

كنت أستمع لترجمة هذه اللافتات وأقول في نفسي ٠٠ ما فائدتها اذا كان ثلثا الشعب من الأميين !٠٠٠؟٠٠٠

تابعنا جولتنا الطريفة في خضم هذا الزحام الشديد تحت القناطر الظليلة ، وفجأة دخلنا شارعاً مكشوفاً يغمره الضوء ، وتفوح على جوانبه روائح سورية ويعمُره مرح دمشق الدائم ... أغصان خضراء وورود معلقة هنا وهناك .. ومزيد من أقفاص الطيور والزينات ومزيد من الباعة ... وأمام المخابز كانت أنواع من الخبز المنفوخ كبالونات الأطفال منشورة فوق ألواح خشبية .. وكأنها تهمّ بالطيران ...

وفي أحد أركان هذا الشارع شاهدت شيخاً يقف الى جانب شجرتي كبّاد تلمع ثمارهما في أشعة الشمس وتتضوع رائحتهما الزكية .. يا له من منظر أخاذ ... كان الشيخ ينادي .. الكبادة بخمس مجيديات! .. الشجرة ذات العطور الزكية بخمس مجيديات ! ...

ماذا أيضاً .. لقد سبق أن قلت اننا افتقدنا نهر بردى عندما اختفى تحت تلك الساحة الواسعة .. كلا .. لم نفتقده فهناك في كل زاوية فسقية ، أو ساقية صغيرة أو نافورة ... ان مياه هذا النهر تتوزع في كل أحياء دمشق وشوارعها داخل أقنية أو أنابيب فخارية كما في المدن الحديثة ... ان بردى يغيب في عاصمة الأمويين تحت الأرض لتنبجس مياهه العذبة الجليدية بشكل عجيب لتغني في فسقيات البيوت وتمون مساجدها وتصب في أجران رخامية منتشرة في نواحي كثيرة من المدينة ليستقي منها المارة والناس الذين لا يصل الى بيوتهم الماء ...

لقد شاهدت عند احدى النوافير فتاتين تملآن جرتيهما السوداوين وعندما لمحتاني من بعيد اختنقتا من شدة الضحك ... فلعلهن لم يشاهدن من قبل أية امرأة أوربية .. ثم ما لبثتا أن هرعتا موليتين تطقطقان بقبقابيهما الخشبيين المرتفعتين .. والجرتان الشيطانيتان تنتصبان عموديتين فوق رأسيهما ...

كان جرن المياه الى جانب شباك (أو نافذة) مدعم بقضبان حديدية ، واقتربت منه ونظرت الى داخل البناء من خلال العوارض المعدنية فشاهدت فانوساً مضاء وعمامة ضخمة خضراء مثبتة فوق ضريح تغطيه العديد من الأعلام والمرايا ...

سألت صديقي عن هذا الضريح؟ فأجابني بأنه مقام السلطان نورالدين الشهيد ...

قلت : أهو نورالدين العظيم الذي حارب الصليبيين ؟ ولماذا يطلق عليه لقب الشهيد ؟

أجاب : لانه توفي بالحمّى وهو يخوض غمار الحرب المقدسة .. وقديماً كان ضريحه مجللاً بآلاف الأعلام التي استولى عليها من العدو والكن الزمن عفى عليها وأتلفها فتحولت الى رماد تغوص فيه الأقدام حتى الركب .. وفي الحرب العالمية الأولى أعاد جمال باشا اصلاح القبة التي تغطي الضريح وبدأ بعملية تنظيفها من الداخل غير أن دخول الانكليز الى دمشق أوقف هذه العملية ...

وأضاف صديقي الرسام قائلاً : هل ترين هذا الغطاء الحديث الثمين ؟ انه هدية

من نقابة تجار دمشق ·· لتغطية هذا الضريح المقدس ، تكريماً لصاحبه ، بالاضافة الى أنه من تقاليدنا آن القبور يجب أن تُغطى كما تغطى المرأة !! (كذا) ···؟

بقيت فترة طويلة أزج بوجهي بين عوارض النافذة البرونزية وأمعن النظر في هذا الضريح البسيط حيث يرقد ذلك القائد المظفر العظيم الذي طالما انتصر على الصليبيين ··· وكنت احدث نفسي انه منسي لا يعلم به الا القليل · وغارق بين ضجيج المارة وصراخ الباعة وضحكات الفتيات اللواتي يملأن جرارهن من « النافورة المجاورة » ولا يعرفن عن هذا الضريح وصاحبه شيئاً !···

* * *

□ عودة الى الفندق ولقاء مع الوطنيين (المتآمرين) :

يا له من فندق عجيب ·· ذلك الفندق الذي حللنا فيه ·· انه يقوم في الدور الأول من بناء حجري تطل واجهته الرئيسية على نهر بردى ودمشق القديمة ، ويطل من الجهة الثانية على « الصالحية » الحي الاسطنبولي الجديد » ·· ويخيل اليّ أن هذا الفندق يضم جميع الحضارات وبين جدرانه تحاك المغامرات والمؤامرات ···

يتألف مدخل الفندق من درج رخامي طويل وبوابة ضخمة مسلحة بالحديد تُغلق فور غياب الشمس ولا يبقى منه سوى فتحة صغيرة جداً لعلها من أجل دخول القطط وخروجها ···

وفي الوسط بهو فسيح من طابقين يحيط به رواق محمول على أعمدة مغطاة بالرخام ، تذكرنا بأجنحة الكنائس الكاثوليكية ·· كما تذكرنا طريقة انارة سقفه بالسفن ·

وقاعة الطعام جرداء تقريباً الا من الموائد ، وصالة الاستقبال أشبه ما تكون بغرف الأجرة في انكلترا ···

أما غرف النوم ، فأسرتها مغطاة بلحف ناصعة البياض ، وتحتوي على مقاعد مرصعة بالصدف تذكرنا بمغارة كاليبسو (Le Calypso) (٢٦) والندل (الخدم) في الفندق من أصل البناني ، والمحاسبة المانية تجلس وراء حاجز يحميها من المفاجآت ···

وصاحب الفندق عملاق دالماسي(٢٧) نصف أعمى ، وعمره يقارب الثمانين عاماً ، ويقال انه قرصان قديم ومرتزق ذو ماض حافل ··· ومتزوج من فتاة سورية رائعة الجمال يتفنن في سجنها وتعذيبها ·· كما لا يبخل بالانتقام من نزلاء الفندق ·· انه يصرخ دائماً بلغة غير مفهومة وفي احدى المرات حاول منعي من دخول قاعة الطعام ، وأشار لي بأصبع ضخم رفعه باتجاه ساعة الحائط الآلمانية وقال ان وقت الغداء قد انقضى ··· غير أنه ما لبث أن أخلى طريقي بعد تكرار اعتذاراتي له ···

كانت قاعة الطعام غاصة بالنزلاء والمدعوين ·· جلست الى المائدة الطويلة بالقرب

مـن النافذة ٠٠ وكانت هذه المائدة مقسمةقسمين : شرقي وغربي ٠ فأتباع الأمير مـن العرب يجلسون الى اليمـين ، والأوربيـونوالقناصل والرهبـان والمهندسون الأجـانب ـ الذين حجزتهم أحداث الحرب في دمشق منذ ثمانية عشر شهرأمع حقائبهم ـ كل هؤلاء يجلسون الى اليسار ٠٠٠

ومن حسن حظي أن يكون الى جانبي السيد فريد بك (؟) والد الآنسة ليلى (الآنفة الذكر) وقنصل ايران الذكي ٠٠ ـ لقد خلع قلبقه الاستراكان وعلقه على مشجب الملابس ٠٠ وعلمت أنـه متزوج مـن سيدة لبنانية باعتبـاره مسلماً شيعياً ـ وكـان بمواجهتي ضابط ارتباط بريطاني والمندوب الصهيوني الذي جاء مـن القدس ٠٠ والى جانب هـذا الشخص تبدأ الجماعة العربية بضابط شريفي عراقي برتبـة رائـد يَعْتمر بقبعـة تزينها ضفيرة حريرية حمراء ٠٠

وفي أحـد أطراف المائـدة كان الصمت الحذر والدبلوماسية يسيطران ، بينما تميـز الجناح الآخر بالحيوية المفرطة ، حيث يتناقش الجالسون في تلك الناحية حـول استعراضات الصباح والكلمة التي القاها الأمير ٠

لقـد تعرفت على عدد مـن الموجودين الذين التقيت بهم أثناء مأدبة محطة رياق ، ومن بين هؤلاء: الدكتور عبدالرحمن الشهبندر الذي أحاطني بكثير من العناية ٠٠ وعلى رأس المائدة كان يجلس شاب لفت انتبـاهي وأثار اهتمامي بل لقد أقلقني لما لاحظت عليه مـن قوة الشخصية والذكاء المتوقد الذي يشع من عينيـه الجريئتـين ٠

قلت للسيد فريد بك (والد ليلى) : من هو هـذا الرجـل ؟٠٠

أجـابني : انـه الزعيم الوطني الحلبي س٠ بك(٢٨)٠٠٠ الذي شغل منصب السكرتير للغـازي مصطفى كمـال(٢٩) ، ثـم أصبح منافساً له ٠

قلت : غريب انه شديد الشبه بـه ٠٠؟

قال : آه ٠٠ كم نتمنى جميعاً أن يشبهه، وأن يفعل كل شيء من أجـل وطننا العربي المسكين مثلما فعـل الغازي (أتاتورك) لبلده تركيـة ٠٠٠

وهنا تدخل الدكتور شهبندر وعلق بحرارة بالغـة أسكتت الجميـع ٠٠٠ وأخـذوا ينصتون باهتمـام ٠٠٠

بدأت أتفحصهم وأنقل نظري من واحد لآخر فلاحظت أنهم جميعاً من الشباب المتقدين حيوية وحماساً ، وبريق عيونهم يـدل على الطموح والجـرأة ، وشواربهـم المقصوصـة كالفرشاة ترتعش عنـدما يتحدثون فتـوحي بالغطرسة الساخرة ٠٠٠

ومما يلفت النظر أنهم كانوا في منتهى الأناقة والزينة بالمَلْبس ، وأيديهم العصبية ذات الأنامل الناعمة لا تكف عن الحركة أثناء الكلام ٠٠٠ مما يدعو للتساؤل فيما اذا كان هؤلاء قادرين على انجاز أعمال عظيمة ٠٠!٠٠

كانت تسيطر عليهم النشوة بمقدار ما يتقدم الغداء ـ رغم أنهم لا يتناولون سوى الماء ـ وخاصة عندما أسمعهم يتلفظون بكلمات مثل :

« الحرية .. حقوق الانسان .. الخلاص العام .. الاستقلال .. الدستور الثوري .. الخ ... » .

هذه الكلمات تخرج من الحناجر كالنيران الملتهبة .. وكنت عندما أسمعها وأجيل بصري بالطرابيش الحمر التي فوق رؤوسهم أشعر بأنني أمام جماعة من الرجال المجازفين! .

الأب اسطفان :

ولفت انتباهي شاب صغير حاسر الرأس بل لعله أصغر الحاضرين سناً ، وأكثرهم ضجيجاً ... وكان يلقي عباراته وكأنه « شيطان » يجلس على جمر ... أما لباسه الأصفر والمائل للأخضر فيختلف عن ألبسة الآخرين ...

قلت للرجل الذي يجلس الى جانبي : من يكون هذا الشاب النشيط ؟..

أجاب : انه الأب(٣٠) اسطفان ...

قلت : هل هو راهب ؟.. وكيف يمكن أن يكون راهباً ؟...

أجاب : أجل انه راهب .. وما الغرابة في ذلك .. انه بالفعل خوري ماروني كان يعمل في دير سانت هيل (Sainté Héfié) .. وهو من أشهر المبشرين في بيروت . أما الآن فهو أفضل دعاة الحركة القومية .. فهل عرفت الآن أننا لسنا مسلمين فقط ...! وأشار بيده باتجاه أحد الضباط وقال : وهذا أيضاً ضابط مسيحي برتبة رائد وهو من بغداد ...

في هذه اللحظة ظهر صاحب الفندق العملاق عند باب قاعة الطعام ليذكرنا بأن وقت الغداء قد انتهى .. فنهض الجميع وهم يتضاحكون واتجهوا نحو البهو ...

لاحظت أن وفوداً من أنصار الأمير بدأت تصل تباعاً الى الفندق وكان بعض أفراد هذه الوفود من المسيحيين يقفون باحترام أمام الزعيم الحلبي (س. بك)(٣١) والخوري الماروني اسطفان ويسلمانهما بعض الرسائل مما يجعل وجه سكرتير الغازي السابق أكثر وقاراً ، ويزيد في حركات الخوري الماروني المعبرة الذكية ...

كان بين الوفود أميران من البدو يزينان رأسيهما بكوفيتين حريريتين وعقالين(٣٢) مقصبين بخيوط الذهب وعباءتاهما الفضفاضتان تلامسان الأرض من خلفهما ، وعندما يسيران يرفعان ثيابهما الحريرية ـ التي بلون الشمس ـ فتلتمع أحذيتهما الأمريكية .. ويحييان الحاضرين باليد الأخرى بحركات رشيقة .. ثم يجلسان للتآمر (كذا) على الأرائك المغطاة بالبروكار الدمشقي ذي الألوان الحمراء والزرقاء التي تخللها سهام صفر ..

أما النُدل اللبنانيون فكانوا يحملون فناجين القهوة الساخنة وكاسات الماء المثلج فوق صوانٍ نحاسية دائرية ويتنقلون بين الحاضرين ٠٠ في الوقت الذي كانت فيه المحاسبة الالمانية منهمكةً في تسجيل بعض الأمور في دفاترها ، ويقف العملاق الأعمى بين عمودين من أعمدة البهو ويعربد بصوت أجش يذكرني بشمشون الجبار وكأنه يحاول تدمير فندق على رأس زوجته الجميلة السجينة وعلى رأس كل من تسول له نفسه مغازلتها من النزلاء ٠

☐ بهو الفنـدق :

تقضي الأمانة الفنية بأن أعطي صورة موجزة للاطار الذي تجري فيه الأحداث التي عشتها ، ومن أهمها ذلك الفنـدق الغريب : فجدرانه مطلية بلون المشمش الفاتح ، وفي وسط هـذا الجدار لوحة براقة تنـار بضوء مائي يسقط عليها من السقف المخضر ، وهناك لوحات أخرى مرسومة على زجـاج النوافذ بألوان فاقعة مزينة بأطر ذهبيـة ٠٠ وفي اعتقادي أن هـذه الزخارف يمكن أن تكون منفرة بل ومرعبة غـير أنهـا في هـذا الجو الكنائسي ، وتحت الأضـواء السحرية التي تتسرب من أشعة الشمس ، فانها تأخـذ شكل الايقونات المقدسة تقريباً ، أو الصور الفارسية الصغيرة ٠ انها تلفت الانتباه باختيار مواضيعها لا ببساطة تنفيذها ٠ فقـد لاحظت أن هـذه اللوحات تتضمن عشرة مواضيع تتكرر برتابة شـعائرية(٣٣) عزيزة على الروح العربيـة (الاسلامية) المتوترة ٠

ومن أهم هذه اللوحات : صورة البراق ، أو فرس الرسول المجنحة التي تمتاز بأن لها وجه حورية جميلة ، ويقودها الملاك جبرائيل نحو ذروة تعريشة فردوسية ، وصورة الامام علي (أمير النحل) وهو متربع وسيفه المشهور على ركبتيـه والى يمينـه ويسـاره الحسن والحسين والداه الشهيـدان وصورة المحمـل الشريف في طريقه الى مكة المكرمة ، محمولاً على جملين مُجلَّلين بأروع الزينات ؛ وصورة ابراهيم الخليل وهو يستعد لذبح ابنه اسماعيل والى جانبه حمل صغير تبدو على وجهه الكآبة ٠٠ وصورة الشاعر البدوي (المولَّد) عنترة (ابن شداد) يمتشق حسامه كالعملاق وينشد قصيدة يتغزل بابنـة عمـه البيضاء (الحرة) « عبلة » ، وهي تنظر اليـه في خيمتها مـن وراء حجاب ٠٠ وتبدو عبلة مكشوفة الوجـه يغطي جسدها رداء طويل أزرق اللون يشبه ثوب سارة برنار(٣٤) ٠ ومسرحية « الأميرة البعيدة » وتمتطي عبلة فرسها البيضاء وتدلي ساقيهـا الى جانب واحـد ، وتمسك بطرف أناملها الناعمة « إجّاصة » ضخمة دلالة على الحب ، لأن الاجاصة عنـد العرب ترمز الى القلب ٠٠ (؟) ٠

وفي لوحة أخرى نجد عبلة تقدم اجاصتها لحبيبها عنترة وتمتطي الحصان من ورائه ، حيث يطيران الى «ليل أبيض» مفعم بالملذات ٠٠

وهكذا نجد صورة « عبلة » تتكرر بألوان زاهيـة مختلفة فوق هـذا الجدار الأصفر زرقاء أحيـاناً وذهبية أحيـاناً أخرى ولكنها تقـدم دائماً لحبيبها عنترة اجاصة الحب مما يدفعه الى أن يضحي بنفسه في سبيلها ٠٠!!٠٠

كنت أنقل ناظري بين هذه اللوحات وأتساءل : عما اذا كانت هذه اللوحات التعبيرية المغلوطة تاريخياً ، تجسيداً حياًللقدرية التي يؤمن بها هذا الشعب ٠٠؟

☐ المندوبة الصهيونية :

كنت أتنقل في بهو الفندق الفسيح عندما قابلت المندوبة الصهيونية للمرة الرابعة ، رأيتها هذه المرة جالسة أمام المدفأة المدنيةالضخمة تطالع صحيفة عبرية ، وتلقي بين حين وآخر قطعة من حطب الزيتون في المدفأة، فيتضوع من احتراقها عبير لطيف يملأ القاعة ٠٠ وفي أحد أركان البهو كانتالجالية الأوروبية بكاملها ، يتوزع أفرادها في حلقات، فهناك ثلاثة رهبان يسوعيونايطاليونيجلسون على أريكة ضخمة ويجلس القنصل الايراني الأسمر على طرفها ويتبادلالفكاهات مع رجال الدين ٠ وعلى أريكة مقابلةيجلسمدير شركة الحافلات(الترامواي)البلجيكية وزوجته ويتحدثان مع مهندس محطة توليد الكهرباء الفرنسي ٠

أما خارج الفندق فكنا نسمع الهتافاتالمتكررة ٠٠٠ سورية حرة ٠٠ يعيش الشريف فيصل ٠٠ بل ٠٠ ويعيش الملك فيصل٠٠!٠٠

كانت وجوه أفراد الجالية الأوربية تعبر عن القلق ، لأنهم كما يبدو لم يكونوا يتوقعون مثل هذا الحماس الجماهيري الهائل٠٠كما لم يتوقعوا أن يلاقي الأمير فيصل هذا التأييد الواسع وينادى به ملكاً على سورية ٠٠!٠٠

ولهذا سمعت أحد الآباء اليسوعيين الطليان يقول : « انها لمؤامرة ملكية حقيقية !٠ ومن المحتمل أن الأمير لا علم له بها ٠ ولكنهمع ذلك لا يستطيع أن يحشر نفسه في السلطة المحدودة التي يمكن أن تسند اليه في اطارالانتداب الفرنسي ٠٠ ولذا فانه سرعان ما سيجد نفسه متخلفاً وراء المتطرفينالسوريينفيعرض حياته للاغتيال من قبل الشعب ٠٠ وأضاف الراهب قائلا ، وفي هذه الحالة ماذاسيكون مصير المسيحيين في هذه المدينة المتعصبة ؟٠٠ من المؤكد سيكون هناك مذبحةجديدة كتلكالتيحدثت عام١٨٦٠ ٠٠٠»!٠٠

وهنا تدخل القنصل الايراني الذي كانينصت لحديث الراهب الطلياني وقام بحركة هزلية تدل على عدم الاكتراث وأخذ يتأرجحعلى حافة الأريكة ثم قال : « انكم يا سادة لا تعرفون السوريين على حقيقتهم ٠٠٠ ومنالخطأ الحكم عليهم من خلال سلوك عشرات المهووسين المتحمسين الشباب الذين تخرجوا من المدارس الالمانية والتركية ٠٠٠ ان السوريين لا زالوا كما كانوا في أيام صلاحالدين الأيوبي الذي وصفهم بقوله : « انهم أناس يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا » ٠٠لذلك أعتقد (والكلام للقنصل الايراني) انه عند أول طلقة مدفع سوف ترون ذلك ٠٠٠

قاطعته المندوبة الصهيونية فقالت : لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث عندما تنضم الى هؤلاء المتحمسين عشائر شمّر البدويةوالدروز وسكان الريف الأشداء ٠٠٠

قال مدير الترامواي البلجيكي : « انني أشاطر القنصل الايراني رأيه ، ثم أضاف : تذكرون يا سادة أن الجنرال الألماني « ليمون فون ساندرز » كان يهزأ بجمال باشا (والي سورية) عندما وضع تحت تصرفه مائة ألف مجند الزامي من سورية فيقول له: « ان المائة ألف مقاتل الذين وضعتهم تحت تصرفي من السوريين سوف يفر منهم خمسون ألف ، والخمسون ألفاً الباقون سيركضون وراءهم ليعيدوهم الى المعركة ... » .

وقد ضحك الجميع لسماع هذا الحديث.. غير أن المهندس الفرنسي لم يشاركهم ضحكهم بل علق قائلاً :

« لماذا يقاتل السوريون في هذه الحرب ؟ هل سيقاتلون من أجل الدفاع عن الاتراك الذين يستعبدونهم ؟.. الواقع ان السوريين كسكان الألزاس ، واللورين بالنسبة للشرق كله.. فهل كنتم تلومون الالزاسيين اذا انضموا الى جانب الفرنسيين ؟.. انكم سوف ترون السوريين على حقيقتهم عندما سيقاتلون من أجل استقلالهم !! » .

بعد هذا الجدل غادرت الجالية الأوربية البهو واحتل مكانهم الوطنيون .

رأيت الأب اسطفان وهو يختال بالسيف الحربي المسدل على جانبه ، وفي قدميه حذاء لامع .. وعندما لمحني توجه نحوي وكلمني بلغة فرنسية دقيقة وسليمة ، مستأنفاً موضوع حديث الغداء فأكد لي « أنه عندما يتركز الاهتمام على المشاكل الدينية سيؤدي ذلك الى تقسيم سورية بدلاً من توحيدها ... وان سورية لم تعرف السلام والرخاء الا في عصور الوثنية ، حيث كان الناس يعبدون جميع الآلهة والشياطين .. كما يحلو لهم ... فهل تذكرين أسطورة « نعمان » قائد جيش ابن حاداد ملك دمشق ، هذه الأسطورة التي وردت في التوراة : لقد شُفي نعمان من الجذام بعد أن اغتسل بمياه « فارفاد » المقدسة ، هذا النهر الذي يجري على بعد خطوات منا (ويسمى الآن بردى) ...

غير أن الأسطورة تروى بشكل آخر على لسان النبي ايليا اذ يقول : ان نعمان اغتسل في « نهر اسرائيل » أي نهر الأردن ، ولم يعد النبي ايليا بعبادة « يهوه » بل قال له : « عندما يدخل سيدي ابن حاداد ملك دمشق معبد ريمون Rimmone ، أي عندما يدخل سيدي معبد الرمانة (الشهوة) ليتعبد فيه مستنداً على يدي فانني أنا أيضاً أنحني متعبداً أمام ريمون .. ولتسامحني أيها النبي ... » .

هل تعلمين ماذا أجاب النبي ايليا عندما سمع كلام القائد نعمان ؟ لقد أجابه قائلاً : « لتذهب بسلام » !.. فهل تعتقدين أن هناك في أيامنا رجل دين قادراً على مثل هذا التسامح ؟.. ففي عصور الرومان واليونان من قبلهم كانت سورية احدى البلدان الأكثر ازدهاراً وأكثر ثقافة .. لماذا ؟ لأن اليونان والرومان لم يكونوا يقلقون من آلهة البلدان التي يحتلونها ... وكان اهتمامهم ينصب على بناء هذه الروائع التي لا تزال قائمة حتى هذه الأيام والتي نقف أمامها حائرين ..مثل بعلبك ...

نعم يا سيدتي : انني مسيحي ، ومبشر ماروني ، ولكنني أريد أن تنتشر العلمانية ، وأن تترك الأديان جانباً .

وتركيز جميع الجهود من أجل سلامة الوطـن ٠٠ » ٠

بعد هذا الحديث البليغ شرح لي الأب اسطفان مطالب الوطنيـين وهدفهـم الأسمى القومية العربيـة ، وذكر لي باسهاب عيـوب الانتـداب الفرنسي ٠

وقد أكدت للأب اسطفان جهلي بالأمور السياسية ، وأن اهتمامي الوحيد ينصب على سـورية الجميلة الرومانسية ٠٠ ولكنـه لم يصدقني واعتبر كلامي نوعاً مـن التحايـل الصحفي ٠ وقال :

« ماذا ٠٠ كيف أصـدق أنك تهملـين القضية الأساسية التي تشغل أذهـان جميـع الناس ، وتحضرين الى دمشق لتطلعي على آثارها ومناظرها الخلابة ، ولا تلتفتـين الى تلك الجماهير الحاشدة وتتعرفين على تطلعاتها الى الحرية ٠ ان ما تشاهدين الآن في دمشق هو عبارة عـن حركة شعبيـة أصيلة سـوف يترتب عليها تجديد وتغيير أكثر روعة وأكثر نفعاً ـ لشعبنا ـ من الثورة الفرنسية ٠٠!»٠

وهكـذا اضطرتني بلاغة هـذا الراهب الماروني والداعيـة الشريفي الى الاصغـاء لحديثه الجـذاب رغم أنفي ، وتلقنت منـه الكثير عن آمال السوريين وطموحاتهم الخيالية، ومع ذلـك بدأت أشعر بالملـل بسبب تأخـر صديقي الرسام (توفيق طارق بك) الذي تبرع بمرافقتي ثانية الى دمشق القديمة ، ولذلك أخذت أتطلع من النافذة لعلي أراه ٠٠ وقد لفت نظري في هذه اللحظة منظر شاعري جميل مؤلف من مئذنتين رشيقتين ترتفعان في الفضاء بين مجموعة مـن الأشجار الخضراء وحولهما عدد مـن القباب القديمة ٠٠ فالتفت ناحيـة الراهب اسطفان وسألتـه بصوت مرتفـع :ما هو هذا المنظر الساحر ؟٠٠٠

هزَّ الراهب كتفيه وقال : لعله مسجد قديم من مساجد دمشق الجميلة ٠٠٠

وعلق الطبيب اللبناني لطفي بك باللغة الانكليزية ـ لأنه نسي اللغة الفرنسية بسبب اقامته الدائمة في مصر ـ ٠٠ انها التكية ٠٠٠

وهنا قاطعته المندوبة الصهيونية فقالت: « انها درويشية السلطان سليمان ، التي بناها المهندس التركي « سـنان » الذي بنى مسجد مدينة أدرنه الكبير كما بنى العديـد من المساجد في اسطنبول ٠٠٠ وعادت هـذه السيدة لتتابع قراءة الصحيفة العبرية وتمون المدفأة بقطع جذوع الزيتون ، ولكنها ٠٠ مع ذلك كانت تتابع أيضاً أحاديثنا بكل انتباه ٠٠!

قلت : هـل تعني أنه السلطان سليمان(٣٥) دو روكسيلان(٣٦) ودو بايزيد(٣٧) ؟
(Soliman de Roxelane et de Bayazid ?)

أجابت المندوبة الصهيونية : نعم انـه السلطان سليمان القانوني الذي تحالف مـع الملـك فرانسوا الأول وفرض على أوربـا معاهدات الاستسلام !٠٠٠

قلت : ماذا ؟ معاهدات الاستسلام ؟٠٠ان هذا ما نريد الغاءه أيضاً ٠٠!٠٠

وهنا قاطعها الدكتور لطفي بك وقال : لقد حول السلطان سليمان المساجد الى مراكز علمية ومدارس ومستشفيات ... وعند ذلك تدخل الدكتور عبدالرحمن الشهبندر فأضاف معلقاً : ان بلادنا وشعبنا الآن بحاجة الى المدارس والمستشفيات أكثر من حاجته الى المساجد والكنائس .. لذلك عليك يا سيدتي أن تعودي لزيارة بلدنا مرة ثانية بعد الاستقلال لكي تشاهديها عندما سنقيم « المملكة العربية » ...

قلت : ماذا ؟ المملكة العربية ؟ يالها من نغمة شعرية أعادتني الى أيام طفولتي .. يا لروعتها من كلمة ساحرة .. انها تشبه روعة القصص الخيالية ..!!

□ القائد سلطان باشا الأطرش :

وفي هذه اللحظة فتح باب الفندق فجاة ،فانبعثت منه رائحة المسك , والعنبر ، ودخل ثلاثة رجال تبدو عليهم أمارات الغطرسة والكبرياء .. وكان أصغرهم يتميز بقامة فارعة وطلعة مهيبة . وهيئته تدل على أنه فارس ماهر، ورأسه يوحي لمن يراه بأنه مقاتل أصيل أما شارباه فيشبهان شوارب (قدماء الفرنجة) الفولوا(٣٨)، وعيناه كعيني أدونيس (Adonis) (٣٩) مخضبتان بالكحل ، ويلف جسمه بعباءة من الحرير اليكثير ، ويتمنطق بحزام من الحرير الأزرق الملكي مزين بعناقيد ذهبية وفضية وقرنفلية مضفورة بخيوط سوداء تنتهي بأطراف ذات زخارف خمرية .. وتحت العباءة صدرية من الساتان المخطط بلون عسلي فاتح وعسلي داكن .. وكان لعباءته الجذابة قبَّة من الاستراكان ولها أطراف من جلد السمُّور ..

أما الحارس الذي يرافقه ، فكان يحمل في نطاقه خنجراً لامعاً مرصعاً بالمجوهرات ، وتتدلى من كتفه جديلة حمراء قانية ، والى جانبه سيف عربي ثمين ، وضعه على ركبتيه بعد أن جلس على المقعد ...

همست في أذن المندوبة الصهيونية سائلة : من هم هؤلاء البدو ؟..

أجابت مستغربة : انهم ليسوا من البدو، بل هم أمراء الدروز وفي مقدمتهم سلطان الأطرش ...

قلت : يبدو لي أنهم أغنياء جداً ؟..

أجابت .. هذا أمر طبيعي عندما تسعى ثلاثة أمم لكسب ودهم أو حيادهم على الأقل ...

وأخيراً وصل الى الفندق الرسام توفيق طارق بك ليأخذني لزيارة دمشق .. وعندما اجتزت بهو الفندق في طريق الخروج خُيِّل الي أن الفارسة عبلة تمد لي قلبها الاجاصي وعلى شفتيها بسمة ساحرة ...!!

كنت أتمنى الصعود الى قمة جبل قاسيون لكي أتأمل هذه المدينة الخلابة « التي تنافس الفردوس » كما تأملهـا الرسول وهو يعتلي ظهر البـراق !... ولكن لسوء حظي هبَّت آنذاك عاصفة عنيفة فحملت الرمال الحمراء واضطرت معظم الفرسان الذين كانـوا في دمشق لمغادرتها والعودة الى البـاديـة ...

□ جـولـة في أسواق المدينـة ومقاهيهـا :

اكتفيت بالنزول الى المدينة حيث وعدني الرسام بتنـاول « المقبـلات » في احـدى المقاهي العربية الحقيقية التي يؤمهـا أحـد« الحكواتية » المعروفين في كل مساء ليستأنف قراءة مسلسلاته المشوقة ...

وصلنا الى ساحة رائعـة تعج بالحركة وتسمى « ساحة سوق التبن »(٤٠) والتبن هو القش الناعم الذي يلعب دوراً رئيسياً في بناء البيوت وتغذية الدواب . وسوق التبن يمتاز باسطبلاته، وأقفاص الدجاج وأبنيته القديمة والجديدة وأشجار الدلب المقدسة ، التي تقول الأساطير انها تنمو باعجوبة عنـد الفجر يوم ميـلاد الرسـول ...

دخلنا أحد المقاهي الواقعة قبالة مسجد قديم تزينه كتابات جميلة بالخط الكوفي ... ولهذا المقهى مظهر هادىء ، وفي داخله شرفة بلوريـة تُطـل على نهر بردى الذي ينساب بين العديد مـن الشجيرات المتسلقة (اللبلاب) وأشجار الصفصاف والحور .. والواقع أن هذا النهر هو أحد فروع بردى السبعة التي تتوزع في نواحي دمشق فتساعد على اتساعها .. ويبدو لي أن الرواد لم يكتفوا بمنظر النهر في الخارج ولذلك أقيـم لهـم حوض رخامي مثمن الزوايـا في منتصف المقهى وفي وسطه نافورة تقـذف الماء باستمرار وتطرب الرواد بخريرها ... أما الرواد فيلتفون حول هذا الحوض المائي ، ويحتسون المشروبات المثلجة والشاي ، ويتمايلون طـربـاً عنـد سـماع الحكـواتي ...

كان نُدل المقهى يتنقلون بخفة عجيبة يلبون الطلبات ، ويعلق كل منهم منشفة حمام في حزامه، ويضع باقة من براعم زهر البرتقال خلف أذنه . فتراهم تارة يغسلون الأقـداح الخزفية في حوض الماء ، ثم يملؤونها من ماء النافورة الجليدي الذي يتساقط فوق ميـاه الحوض فينتج عـن سقوطه دمدمـة رتيبة(بق.. بق ــ بق ..) . والغريب أن الرواد لا يتوقفون عن طلب ماء الشرب ...!! ولعـل سبب ذلك أن الناس هنـا لا يستهلكون سوى المـاء والقهوة (مخـا) والقضامـة (الحمص المحمّص) وبعض أنواع المخلّل، وهم يدخنون بأراكيل مزدانة بنقوش جميلة كأنها اللُّعب.لها عنق طويل رشيق ورأس صغير توضع فيه جمرات حمراء من الفحم الحجري ويصدر عنها عند التدخين قرقرة مُسليَّة ...

والمقهى المذكور يرتاده دائماً أناس متواضعون من الأحياء المجاورة ومن بينهم تجار سوق التبن نفسه ، وبعض الحرفيـين مثـل صانعي أقفاص الطيور والبراذع والأسرجة ، وجميعهم يرتـدون ألبسة السهرة النظيفـة وينطي معظمهم الرؤوس بطرابيش حُمر ،

والقليل منهم يلفون حول الطربوش قطعة قماش بيضاء مزركشة بخيوط حريرية صفراء (اللّفة الأغبانية) والبعض الآخر يعتمّ بعمامة بيضاء تقليدية ...

كنت أنقل الطرف بين رواد المقهى وأتفحصهم الواحد تلو الآخر، وأنا أجلس في مقعد الشرف في الشرفة البللورية، وكانوا يرتشفون القهوة أو يدخنون الأراكيل ذات النرابيش الحمراء الأفعوانية، ويطقطقون بمسابحهم العنبرية بأنتظار «الحكواتي»..

لفت انتباهي الرسام توفيق طارق بك الى اثنين من الرواد جالسين غير بعيد عنا، وقال لي هل تلاحظين تلك «الندبة» التي في جبهة كل منهما والتي تكاد تكون بحجم بيضة الحمامة؟ قلت نعم.. فما هي؟ قال: انها «حبّة الصلاة»، وهي اشارة يفتخر بها الأتقياء بين أقرانهم من سكان الحي لأنها لا يمكن أن تصبح بهذا الشكل الا بعد سنين طويلة من السجود والتعبد...

لقد تأخر «الحكواتي» هذا المساء.. وكنت أتصوره شيخاً ذا لحية بيضاء أو تلميذاً يضع على عينيه نظارات طبية لكي يعطي لشخصيته طابعاً مميزاً.. وكم دهشت عندما دخل الحكواتي فاذا هو شاب في مقتبل العمر، له شاربان منتصبان ومثبتان بالشمع، وعينان تقدحان ذكاءً ويرتدي معطفاً عسكرياً ميدانياً مزرراً وسروالاً منفوخاً... صفق له الحاضرون، فأسرع الى صدر المقهى وقفز الى منصته ثم جلس مصلباً ساقيه، وافتتح الجلسة (الأمسية) بصوت عال فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم تلا بعض الدعوات والصلوات فران الصمت على المقهى واتجهت الأنظار نحوه، ولم أعد أسمع حتى طقطقة المسابح وقرقرة الأراكيل!.. وعندما انتهى من البسملات والأدعية فتح كتابه الاصفر وبدأ بتلاوة سلسلته...

انها ليست قصة من قصص ألف ليلة وليلة وحديث شهرزاد الى شهريار لقد أسمع في حديثه بعض العبارات التي سمعتها من جماهير المتظاهرين بالأمس، كالاستقلال... والحرية... وسورية... وبيان الأمير... ومع ذلك كان رواد «مقهى سوق التبن» وأصدقاء أشجار الدلب (النبوية)؟... يصغون منذهلين. أما أولئك الأتقياء المشهود لهم بالورع، فكانت عمائمهم مائلة الى الخلف، كدليل على اصغائهم واهتمامهم الشديد بحديث الحكواتي، بالاضافة الى أن وضع العمامة هذا يبرز «حبة الصلاة» بشكل ظاهر لا يخفى على أي ناظر.. وأذرعتهم ممدودة خارج معاطفهم تداعب رماد جمرات الفحم لكيلا تنطفىء أراكيلهم...

أما النافورة الرخامية الجميلة فكانت تقذف مياهها الى الأعلى باستمرار فتتساقط كحبات المزن فوق سطح مياه الحوض المثمن فتحدث أصواتاً رتيبة وقورة وكأنها تردد عبارة «المملكة العربية»!...

الحواشـي :

١ ـ تشير الكاتبة الى الفتنة التي وقعت في دمشق عام ١٨٦٠ موالتي كان وراءها الدول الأوروبية الاستعمارية ، وخاصة منها بريطانيا العظمى وفرنسا ، لكي تمهد لاقتسام تركة الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية) وذلك بحجة حماية المسيحيين ·

٢ ـ تشبه الكاتبة صخور سلسلة جبال لبنان بصخور جبال الألب الفرنسية ·

٣ ـ مقطع من التوراة ·

٤ ـ بالتازار : ولي عهد مملكة بابل وابن الملك نبوخذ نصر· وقد هزم وقتل في عام ٥٣٩ ق·م عندما احتل سيروس مدينة بابل ·

٥ ـ الشبابات : جمع شبابة ، وهي عبارة عن أداة موسيقيةمن القصب تعتبر من أشهر أدوات الموسيقى في الفولكلور الشعبي في بلاد الشام ·

٦ ـ يطلق الفلاحون على هذه القطعة الاسطوانية اسم «المدحلة» وتستخدم لرص أسطح المنازل في مواسم المطر في كل من سورية ولبنان ·

٧ ـ وتقصد الكاتبة اراضي سورية الخاضعة لسلطة الأميرفيصل ·

٨ ـ شارلوت كورداي : Charlotte Corday (١٧٦٨ ـ ١٧٩٣) هي الفتاة الفرنسية التي اغتالت مارا (Marat) في حمام منزله انتقاما للجيرونديين الذين حكمهم بالاعدام· وقد اعدمت بالمقصلة · ومارا هذا كان المدعي العام لمحكمة الثورة الفرنسية ، ونائبا عن باريس ·

٩ ـ المسيو بيكو : هو وزير الخارجية الفرنسية آنذاك ، والذي سميت معاهدة اقتسام سورية باسمه واسم زميله البريطاني سايكس ·

١٠ ـ تقارن الكاتبة بين الحماس الذي ودعته به الجماهير السورية قبل سفره الى باريس كما أشارت الى ذلك السيدة نغنة ، والحماس المعتدل الذي يلاقيه بعد العودة ···

١١ ـ تشير الكاتبة هنا الى محطة توليد الكهرباء في موقع التكية ، عند مدخل نهر الزبداني ·

١٢ ـ Le Pharphar.

١٣ ـ Le Chrysorrhoas.

١٤ ـ الامبراطور أورليان هو (Lucius Dominius Aurelianus) (٢١٤ ـ ٢٧٥ ميلادية) ، أصبح امبراطورا لروما في الفترة بين (٢٧٠ ـ ٢٧٥) وقد هزم الملكة العربيةزنوبيا ملكة تدمر ، وكان يعتبر نفسه مجسدا للاله على الأرض (لا روس) ·

١٥ ـ تلمح الكاتبة هنا الى أن الرسول ﷺ لم يدخل دمشقتحسباً من الافتتان بسحر جمال وطيب مناخها ···

١٦ ـ رحم الله بردى ··

١٧ ـ تشير الكاتبة الى فترة الحرب العالمية الأولى والثورةالعربية الكبرى ، حيث توقف الحجيج الى مكة ····

١٨ ـ المجاوز : جمع مجوز ، وهو عبارة عن مزمار مزدوجيستعمل بكثرة في الريف السوري ، ويصنع من أعواد القصب ·

١٩ ـ والمقصود هنا من الحلفاء بشكل خاص فرنسا وبريطانيا···

٢٠ ـ تلمح الكاتبة الى أن عهد الملك فيصل في سورية هوعهد البدو الرحل ··· وهي غمزة ذات معنى ·

٢١ ـ الفولوا هم سكان فرنسا القدماء اشتهروا بشواربهم الضخمة المتدلية على ذقونهم …

٢٢ ـ سوق البراغيث . Le Marché aux Puces : له شهرة خاصة في باريس والمدن الفرنسية الكبيرة حيث توجد فيه كل السلع القديمة والالبسة واللوحات والمفروشات والأدوات المستعملة الخ …

٢٣ ـ لعل الكاتبة تشير في هذا التلميح الى ما يمكن أن يحدث من صراع بين حكومة الأمير فيصل والقوات الفرنسية الغازية بقيادة الجنرال غورو .

٢٤ ـ الغمز بالحلفاء الانكليز والفرنسيين .

٢٥ ـ فردان : هي الموقعة التاريخية الشهيرة التي اعتبرت افظع معركة في الحرب العالمية الأولى ـ شباط ١٩١٦ . وتكبد فيها الفرنسيون خسائر هائلة ، ولكنهم صمدوا أمام هجوم الألمان .

٢٦ ـ Le Calypso : هي حورية ماء ، وملكة جزيرة اوغيجي التي تقع بالقرب من جبل طارق . وهي الحورية التي استقبلت أوليس عندما نجا من الغرق ، كما تقول الأساطير اليونانية …

٢٧ ـ دالماسي : نسبة الى دالماسيا : وهي منطقة في يوغوسلافيا من جمهورية كرواتيا .

٢٨ ـ س. بك : أرجح أن يكون هذا الشاب هو المرحوم سعدالله بك الجابري …

٢٩ ـ مصطفى كمال : هو الزعيم التركي أتاتورك .

٣٠ ـ الأب : تعني أنه من رجال الدين المسيحي …

٣١ ـ أرجح ان المقصود هنا (بالزعيم الحلبي س . بك)هو المرحوم السيد سعد الله بك الجابري .

٣٢ ـ عقل : جمع عقال ، وهو ضفير مجدولة ومزدوجة يلبسها أهل الشام والجزيرة العربية فوق الكوفية ، وهي عادة من العرير المرعز الأسود ، وأحيانا تكون من الحرير الأبيض المزين بالخيوط الذهبية والحمراء كتلك التي يرتديها الأمراء المذكوران …

٣٣ ـ وتعني بالشعائرية : ذلك القصد الذي أرادته الكاتبة من كلمة (Rituel) الفرنسية وتعني الطقوس الدينية أو اقامة الشعائر الدينية …

٣٤ ـ ساره برنار : احدى الممثلات الفرنسيات التي اشتهرت في بداية القرن العشرين .

٣٥ ـ هو السلطان سليمان الثاني (١٤٩٤ ـ ١٥٦٦) واعتلى العرش في الفترة (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) وقد تحالف مع ملك فرنسا فرانسوا الأول ضد ملك اسبانيا شاركان . وقد احتل هنغاريا ، ولم يستطع احتلال فيينا وقد أطلق عليه اسم « سليمان القانوني » نظرا لما عرف عنه من مهارة في التشريع وتنظيم الدولة . وفي عهده احتل العثمانيون جميع البلدان العربية باستثناء المغرب .

٣٦ ـ Roxelane : روكسيلان : هي الزوجة المفضلة للسلطان سليمان الثاني ووالدة السلطان سليم (١٥٠٤ ـ ١٥٥٨) م .

٣٧ ـ بايزيد الأول : (١٣٥٤ ـ ١٤٠٣) أحد سلاطين بني عثمان (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) ، احتل آسيا الصغرى وانتصر على الغرب ولكنه هزم من قبل تيمورلنك وأخذه هذا أسيراً أما بايزيد الثاني (١٤٤٧ ـ ١٥١٢) فقد اعتلى السلطنة العثمانية في الفترة بين (١٤٨١ ـ ١٥١٢) وهو والد السلطان سليمان .

٣٨ ـ الغولوا : وتعني Les Goulois : أجداد الفرنسيين .

٣٩ ـ أدونيس : هو اله الخصب عند اليونان ، وأسطورة موته وبعثه هي رمز دورة النبات السنوية .

٤٠ ـ سوق التبن : هو الشارع الذي يصل بين المرجة وحي العمارة .

المخبَّل السَّعْدِيُّ

ميلاده ونشأته

بسّام الزعبي

ما من خلاف في أن المخبل من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ، وعمّروا طويلا فيهما(١) ٠ وقد امتدت حياته في الاسلام الى نهاية خلافة عمر ، وربما عاش طرفاً من خلافة عثمان . وهـــذا يعني أن شاعرنا عاش نحو ربــع قرن بعد هجرة الرسول ﷺ الى المدينة ، واذا أضفنا الى هذه المدة تلك السنين التي تفصــل مبعث النبي ﷺ عن هجرتـــه ، فيكون المخبل قد سلخ من حياته نحو خمسة وثلاثين عاماً في الاسلام ٠ ولكن الأمر المحيّر هو مبلغ عمر الرجل بشقيه الجاهلي والاسلامي ٠

ولعل ما يزيد الأمر تعقيداً هو ذلك الاضطراب الذي يعتري أخباره ، فلا تكاد تعين في أن نقيم منها تصوراً واضحاً ودقيقاً لمراحل حياته ، شأنها شأن ما نراه في اسمه واسم أبيه وجده ، وما أصابها من اضطراب واختلاف ٠

وهذه الأخبار ــ على قلتها وتناثرها في بطون الكتب ــ يغلب عليهــا التعميم وتتسم بالاثارة والطرافة ، وهي في مجملهــا تصور الشاعر رجلا ناضجاً ، ذلك أن الرواة يضنون بأخبار نشأته الأولى ، حاله حال الكثير مــن شعراء الجاهلية ٠ وعليــه فليس مــن اليسير الوقوف على زمن ولادتــه أو كيفية نشأتــه وترعرعه ، فضلا عن معرفتنا يقيناً بزمــن وفاتـــه ٠

ولذلك كله لا بد من ضم جميع الأدلة المستقاة من أخباره وأخبار من كانت لهم صلة به بعضها الى بعض ٠ اضافة الى ما يمكن أن يستخلص من شعره فيعين في تحديد مولده على وجه التقريب ويسهم في رسم صورة ــ شبه واضحة ــ لهــذا الرجل الذي امتدت حياتــه زمناً طويلا في الجاهلية والاسلام ٠

ان المتتبع لشعر المخبَّل يلحظ أن ثمة تبايناً حاداً بين شعره رجلا في شرخ الشباب وشعره كهلا ، وشعره وهو شيخ كبير آمن بالله ودخل في الدين الجديد الذي عمَّ نوره الجزيرة كلها . فتارة نرى اندفاعة الرجال وثقتهم وما يستتبع ذلك من جنوح الى المبالغة والغلو في الفخر والهجاء ، وتارة نرى حصافة الكهول الذين لم تلن لهم قناة ، وطوراً آخر نجد المخبَّل الشيخ الذي عركته الحياة فحبَّته الحكمة ، وثاب الى الرشاد ، وأدرك أن الحياة غَرور بأهلها ، كما نجد تقى المسلم وورعه بعد أن عمَّر الاسلام قلبه بالايمان .

وهذا التباين وذاك الاختلاف انما تأتى له من عمره المديد الذي يدفع بنا الى القول : انه كان من المعمرين وانه عاش ما يقرب من مائة وخمسة عشر عاماً ، ولعل هذا ما أخَّر أبا حاتم السجستاني عن ذكره في كتابه لأن من شرطه ألا يسلك فيه الا من بلغ مائة وعشرين عاماً فأكثر(٢) .

وفي أخبار من كانت لهم صلة بالمخبل نجد ما يُستنبط منه أن الرجل قد عاش نحواً مما ذكرنا ، فقد جاء في الخزانة أن الأضبط بن قريع أخا جعفر بن قريع — وهو أنف الناقة جد المخبل — عاش قبل الاسلام بخمسمائة سنة(٣) . وهو قول فيه شيء كبير من الغلو والمبالغة مما يجعل التحديد الذي ذكرناه غير مقبول ، اذ أن النظر في سلسلة نسب المخبل ترد هذا ، وتشير الى أن بين الأضبط وأخيه جعفر — وشاعرنا ثلاثة آباء ، ومهما بالغنا في تقدير النقلة الزمنية التي تفصل بين جيل وآخر ، فلن يستقيم لنا تحديد عمر المخبل استناداً الى ما ذكرنا . ولكن ما من شك في أن الأضبط عاش مائة وعشرين عاماً على الأقل فقد ذكره أبو حاتم في المعمَّرين(٤). وبفرض أن بين جيل وآخر خمسة وعشرين أو ثلاثين سنة ، فان ما قدرناه من عمر المخبل لا يبعد كثيراً عن الحقيقة .

وكذلك فاننا نجد في أخبار الشاعر وفي شعره ما يؤكد طول عمره . فقد شهد المخبل مع قيس بن عاصم حرب ربيعة بالبحرين(٥) . وهي قطعاً غير حرب السعديين التي أشار اليها أبو الفرج لأن هذه كانت بعد يوم الصفقة الذي كان حوالي سنة ٦١٠م(٦) .

ثم ان الرجل شهد يوم جبلة — فيما يبدو — الذي كان قبل الاسلام بأربعين سنة ونيف ، وفيه كان مولد الرسول ﷺ(٧) . كما شهد رحرحان الذي كان قبل جبلة بعام(٨) فقال :

فان تكُ نالتنا كلاب بغزة ... فيومك فيهم بالمضيقة أبردُ

هم قتلوا يوم المضيقة مالكا ... وشاط بأيديهم لقيط ومعبد(٩)

ومالك هذا الذي يشير اليه المخبل هو مالك بن ربعي النهشلي الذي قُتل يوم جبلة(١٠) . فثار به خالد بن مالك يوم ذي نجب وقتل عمرو بن الأحوص بواءً بأبيه(١١).

وربما تظاهر مع هذا الخبر على توكيد ما نذهب اليه ، ما ورد في شعر المخبل من افتخاره بقيامه وقومه بني سعد بنصرة أبرهة بن الصبَّاح أحد تبابعة اليمن المتأخرين الذين

حكموا منذ مطلع القرن السادس الميلادي أوبعد ذلك بقليل(١٢) . وقد تكون هذهالنصرة لأبي يكسوم أبرهة الحبشي(١٣) ، واذا صحما قدمناه فهذا يعني أن المخبل كان معاصراله في منتصف القرن السادس الميلادي ، وهوآنئذ فارس قوي من أسد الفِزر(١٤) ، له من العمر ما لا يقل عن خمسة وعشرين عاماً ،فشارك في هذا اليوم وقال يفخر ببني سعد ونصرتهم أبا يكسوم(١٥) :

ويوم أبي يكسوم والناس حضَّرٌ ... على حَلَبان اذ تقضَّى معاصلُه
فتحنا لــه باب الحصير وربُّه ... عزيز تمشي بالحراب أراجلُه(١٦)

بل اننا نجد في شعره ما يشير الى ثقافةومعرفة بأحوال الماضين وأخبارهم لا يمكنأن تكون وليدة طفرة ، أو تحوّل مفاجيء منحال الى أخرى ، وانما لا بد له من أن يكون قد أنفق زمناً طويلا حتى يكون قد وعاهابحافظته وأدرك تفاصيلها ، كما في حديثهعن الزبّاء وعمرو بن عدي اذ يقول :

يا أم عَمرة قد هويتُ جِماعكم ... ولكل مــن يهوى الجِماع فِراقُ
بل كم رأيت الدهر زايــلَ بينه ... مــن لم تزايل بينـــه الأخلاق
طابت بــه الزبَّا وقد جعلَت له ... دُوراً ومسربـــة لهـــا أنفـــاقُ
حملَت لهـا عَمراً ولا بخشونةٍ ... مــن آل دومــةَ رَسلةٌ معنـاقُ
حتـى تفرّعهـا بأبيضَ صـارمٍ ... عَضبٍ يلــوح كأنه مِخراق(١٧)

فاذا ضممنا ما قدرناه له من عمر يوم أبي يكسوم الذي توفي سنة ٥٧٠م (مفترضين أن هذا اليوم لم يكن بعيداً جداً عن عامالفيلوأن أبا يكسوم المذكور هو أبرهة الحبشي) الى ما عاشه الرجل حتى وفاته في خلافة عمرأو عثمان كان لنا أن نُقدر له من العمرعند وفاته حوالي مائة وخمسة عشر عاماً ، وعليهتكون ولادته نحو سنة ٥٢٨ م .

والى هذا فان شاعرنا كان يتولى السفارة لقومه ولمن يفد عليه من العرب عند القبائل الأخرى سعياً في حقوقهم ، ولاصلاح ذاتالبين . فقد ذكر الأصفهاني أن المخبل سعى بابل لرجل كان المنتشر بن وهب الباهليأخذها منه وهو مجاور في بني قشير(١٨) فقال :

ان قشيراً مــن لقاح ابن حــازمٍ ... كراحضةٍ حيضاً وليست بطاهـرِ
فلا توكلوهــا الباهلي وتقعـدوا ... لدى غرضيأرميكمُ بالنواقرِ(١٩)

فلما بلغهم قول المخبل سعوا بابله فردهـا عليهم حزن بن معاويـة بن خفاجـة بن عقيل »(٢٠) . وتذكر المصادر أن : « ناسأمنالعرب اجتمعوا بعكاظ ، منهم قُرّة بنهبيرة القشيري والمخبــل في جــوار قرة بن هبــيرةالقشــيري في سنــين تتابعت علــى النــاس ، فتواعدوا وتوافقــوا أن لا يتغاوروا حتـىيخصب الناس(٢١) . ويبدو أن هــذا الاجراء

كان اجراء وقائياً تلجأ اليه القبائل في سنوات الأزمة ، فيكون هناك نوع مـن المهادنة وحياة السلم برغم « أنه كانت تكون في عكاظ وقائع مرة بعـد مرة »(٢٢) • ويكفي أن نذكر أن الذي هاج يوم النّسار الذي كان بعد يـوم جبَلة على الأرجح(٢٣) هو مجـاورة هوازن لسعد وضبة في ديارهم في سنة مجدبة ، فعدا الضبيون على ابل لبني قشير فشد عليهم بنو سعد ، فما كان من ضبة الا أن رحلت وحالفت أسداً وطيئاً وكان النسار •

أما ما يمكن الركون اليه فهو ما وجدناه في شعر المخبَّل ـ ان صحت له هذه الأبيات ـ من أنه عاش ستة وتسعين عاماً حتى سنة ١٤هـ .حيث خرجت جيوش الفتـح بقيادة سعد بن أبي وقاص وكان فيمن خرج معه شيبان بن المخبل فجزع عليه أبوه جزعاً شديـداً فقـال قصيدة منها :

وما للعظام الراجفات من البِلى ... دواء ومـا للركبتيـن طبيبُ
وانّ امرأً عاش ستّاً وتسعين حجة ... الى منهلٍ مـن وِرْدِه لقريبُ
اذا ذهب القرن الذي أنت فيهمُ ... وخلّفتَ في قرنٍ فانت غريبُ(٢٤)

ومعنى هذا أن الرجل عاش حتى وفاته في خلافة عمر أو عثمان قرابة مائة وخمس سنوات •

وكان هذا العمر الطويل وراء امتداد الأحداث بحياة المخبل امتداداً طويلا ، دفـع الشاعر الى الاشارة الى بعض مظاهر الضعف والكبر التي لازمته فيقول في القصيدة السابقة التي جزع فيها على ابنه شيبان :

فان يك غصني أصبح اليوم ذاوياً ... وغصنكَ من ماء الشباب رطيبُ
فاني حنَت ظهري خُطوب تتابعت ... فمشيتي ضعيف في الرجال دبيبُ(٢٥)

وفي قصيدة أخرى يشير الى توالي الأيام والليالي طويلة عليه حتى لاح الشيب بعارضه، فأنكرت غواسله عليه ذلك :

وان هي لم يودِ الشباب ولم يلُح ... برأسي شيبٌ أنكرته غواسله(٢٦)

وفي موضع آخر يقول :

ولئن رأيتِ الشيب خوّص لمّتي ... مـن طول ليـل دائبٍ ونهـارِ
اني لترزَؤني النوائب في الغِنى ... وأعِفُّ عنـد مشحّة الاقتارِ(٢٧)

ويغلب هذا الأمر على قسم لا يُستهان به من شعره ـ أو المتبقي منه ـ فتراه يصور نفسه يدب على الأرض كالرجل المقيد ،وقد شح بصره ، وتولى بنوه تصريف أموره ،فهو لشدة ضعفه حاضر غائب ، فيقول :

ومشيتُ باليدِ قبل رجلي خطوها ... رسَفَ المقيّدِ تحتَ صُلْبٍ أحدبِ

فاذا رأيتُ الشخص قلت : ثلاثةٌ … أو واحــدٌ واخالُه لــم يقربِ

وقضــى بنيَّ الأمر لم أشعر بــه … واذا شهدتُ أكون كالمتغيِّبِ(٢٨)

وفي قصيدة أخرى يقول :

اذا قال صحبي : يا ربيع الا ترى … أرى الشخص كالشخصين وهو قريب(٢٩)

ومن خلال هذا الشعر ، والاحتكام اليه، نلاحظ أن مظاهر ضعفه تجلت في حرصه المفرط على ولده ، وجزعه الشديد عليه ،ولابد أن يكون هذا الحرص وذلك الجزع نتيجة طبيعية لكبر سنه وضعف قواه ، ولأن المخبَّل لم يرزق بولد في الجاهلية(٣٠) . ولهذاكانت حاجته الى ابنه كبيرة فلم يستطع الصبر علىفقده حتى كاد أن يُغلب على عقله فعمد الى ابله وسائر ماله ليبيعه ــ وكان به ضنيناً ــويلحق بابنه فمنعه ابن عمه علقمة بن هوذة من ذلك ، وكلم له عمر في رد ابنــه وأنشدهقصيدة المخبَّل فبكى عمر « رض » ورقَّ له وكتب الى سعد يأمره أن يرد شيبان علىأبيه،فكان ذلك . ولم يزل شيبان في خدمة أبيــه الى أن مات(٣١) . والى هذا العمر الطويل ألمحالمخبل في غير قصيدة وموضع من شعره ، فهو يرى أن صروف الدهر لا تبقي على أحد ،فلم يسلم منها حتى نعمان وتُبَّعٌ فقال :

أتهــزأ منــي أم عَمرة أن رأت … نهاراً وليــلا بلَّيانــي فاسرعــا

فان أكُ لاقيتُ الدهاريس منهما … فقدأفنيا النعمان قبلُ وتُبَّعا(٣٢)

وفي قصيدة أخرى يصور كيف أن يد الدهر أخطأته فامتد به العمر ليرى ما لا يحب، وما لم يكن ليخطر له ــ أو لغيره ــ على بالمــن مناوأة الزبرقان له ولقومــه في عزهــم ومجدهم الذي ورثوه كابراً عن كابر ، ورسَّخوه بمساعيهم ومآثرهم ، وصانوه من كل ما يثلبه فقال :

ألــم تعلمي يــا أم عمرة أننــي … تَخاطأنــي ريبُ الزمــان لأكبرا

وأشهــد مــن عوفٍ حلولا كثيرةً … يحجّونَسِبَّ الزِّبرقانِ المزعفرا(٣٣)

واذا ما نظرنا في ما وقع الينا من أخباره فانها بمعظمها تصوره شيخاً كبيراً بلغ من العمر عتياً ، اضافة الى أنه كان قد فقد بصرهأو كاد بأخرة من حياته كما يصرح في شعره ، وكما نجد في خبر لقائه بخليدة أختالزبرقانالتي مر بها وكان قد « أسن وضعف بصره ، فانزلته وقرّبته وأكرمته ، ووهبت لهوليدة،وقالت له : اني آثرتك بها يا أبــا يزيد . فاحتفظ بها ، فقال : ومن أنت حتى أعرفكوأشكرك ؟ قالت لا عليك . قال : بلى والله أسالك . قالت : أنا بعض من هتكت بشعركظالما ! أنا خليدة بنت بدر فقــال : واسوأتاه منك ، فأني أستغفر الله عز وجل ،وأستقيلكوأعتذر اليك ثم قال :

لقد ضل حلمي في خُليدة انني … سأعتــب قومــي بعدهــا وأتــوب

فاقسمُ بالرحمن اني ظلمتُهـــا … وجرتُ عليهاوالهجاءُ كذوبُ(٣٤)

وكان المخبَّل أحب خليدة هذه فخطبها الى أخيها ، ولكنه منعه اياها ، ورده لشيء كان في عقله ــ كما تزعم الروايات ــوزوّجهارجلا من بني جُشم فهجاه المخبل وشبب بها ، ويبدو أنه ظل على حبه لها حتى زمن متأخرمن حياته(٣٥) ٠

وتبقى مسألة عدم وجود المخبل في وفد تميم الذي قدم المدينة سنة ٩ للهجرة لاعلان اسلام تميم ، وتخلفه عن هذا الوفد أمراً لايمكن تسويغه الا بما قدمناه من تقدمه بالسن، وضعفه وشح بصره في المدة الأخيرة من حياته٠ولولا هذا لكان المخبَّل في طليعة هذا الوفد، ذلك أنه كان شاعر بني سعد في زمانه ــوسعدمعظم تميم- فضلا عن كونه أحد وجوه القبيلة وسادتها وفرسانها ، وقد عرفت له قبيلتــه والقبائل الأخرى هذه المكانة ، وهذا الحطيئة يمدحه فيقول :

أنخنــا ببيت الزبرقان وليتنــا مضينا فقلنا وسط بيت المخبَّلِ

ظللنــا لديــه نستقي بحبالنــا بذي المتن منهاوالضعيف الموصَّلِ(٣٦)

والحطيئة لم يكن ليقول هذا لولا أنه يعرف مكانة المخبل ، وأنه في الصميم مــن قومه بني قريع الذين مدحهم بغير قصيدة ، فقال :

لقــد شــدّت حبائــل آل لأيٍ حبالي بعد ما ضعُفت قُواهــا

فمــا تنّام جــارةُ آلِ لأيٍ ــ ولكــن يضمنون لهـــا قِراهــا

كــرامٌ يفضُلــون قُروم سعــدٍ أولي أحسابِهم وأولــي نُهاهــا

وهم فرعُ الذرا مــن آلِ سعدٍ اذا ما عُدَّ مــن سعدٍ ذراها(٣٧)

ولكن يكاد يودي بهذا التفسير الذي قدمناه ما ذكرته المصادر من أن المخبل كان في وفد بني أنف الناقة الذي ذهب لاستمالــة الحطيئة ، وحضه على ترك جوار الزبرقان ابن عمهم وهجائه ، وكان هذا في سنة مجدبة من بداية خلافة عمر كما تذكر المصادر(٣٨)٠ وربما كان هذا العام هو الذي عرف بعــام الرمادة الذي كان سنة ١٨ للهجرة(٣٩) ٠

ومعنى هذا ان المخبل كان آنئذ قادراً على السفر والتنقل بما يجعلنا نقف مترددين، وفي حيرة من أمرنا ازاء ما قدمنا من تعليل لعدم وفادته على الرسول ﷺ ٠ ولكن هــذا التردد وتلك الحيرة يمكن دفعهما وتبديدهما بأن اشتراك شاعرنــا في وفــد الانفييــن الى الحطيئة لم يكن ليؤدي بحال من الأحوال الى اجهاد الشيخ ، بل ربما هيأ له قومه ما يعين على هذه الرحلة التي مهما قيل فيها فانهــا تبقى في اطــار مضارب بني سعد وديارهم ٠ في حين يحتاج المسافر أياماً للوصول الى المدينة مع ما في ذلك من مشقة وعناء ٠

وهكذا نرى أنه ليس من المبالغة القول:ان الرجل قد ناهز المائة بل تجاوزها عنــد وفاته سنة ٢٠ للهجرة أو بعد ذلك بقليل كماسنرى في الحديث عن وفاته ٠ واذا صح ما ذكرنا فان ما قدرناه من أنه ولد نحو سنــة ٥٢٨ م ليس ببعيد عن الواقع ٠

أما ما يتصل بنشأة المخبل وشبابه فليس بين أيدينا ما يسعف لرسم صورة لهذين الطورين من أطوار حياته ، اذ أن شعره ينم في معظمه عن رجل صلب العزيمة ، لايعرف التردد سبيلا الى قلبه ، ويأبى الظلم لنفسه وللآخرين فيقول :

وقالوا أخانا لا تَضَعضعَ لظالمٍ ... عزيز ولا ذا حقُ قومك تظلمِ
رأوا أنني لاحقَّهم أنا ظالمٌ ... ولا ناصري انجاوز الحقَ مُسلمي
وانا أناس تعرف الخيلُ زجرنا ... اذا مطرت سُحب الصوارم بالدمِ
وانّا لنعطي النّصف من لو نضيمه ... أقرَّ ونأبى نخوة المتظلم(٤٠)

وتلوح في هذا الشعر أيضاً ، صورة الفارس الذي يسقي الكماة من دمائها ، دفاعاً عن الحقيقة ، وحماية لها حتى أصبحت نساؤه مضرب المثل في المنعة ، فقد قال هشام بن عبدالملك لجرير معلقاً على أبيات له: « لِمَ تركت نساءك حتى أُردِفنَ ؟ ألا جعلتهن كنسوة المخبّلِ ، فما سمعنا بعربيات قط أمنع منهن ، حيث يقول :

وساقطة كورِ الخمارِ حييّةٍ ... على ظهر عُريٍ زلَّ عنها جِلالُها
تشدُ بأيديها السنام وقد رأت ... مسوّمة يأوي اليها رعالُها
نزلنا فساقينا الكماة دماءها ... سجال المنايا حيثُ تُسقى سجالها(٤١)

والى هذا تشير المصادر الى أنه كان يجتمع بشعراء القبيلة كعمرو بن الأهتم ، وعَبَدة ابن الطبيب والزبرقان ، وعلقمة الفحل ، وانهم احتكموا مرة الى ربيعة بن حُذار الأسدي حكم العرب فحكم للمخبل بالتفوق وبأن شعره « شهب" من نار يلقيها الله على من يشاء من عباده»(٤٢) • وقيل ان الذي حكم بينهم هو عَبَدة بن الطبيب فقال له : « فأما أنت يا مخبل فان شعرك العِلاطُ والعراضُ»(٤٣) •

ومهما يكن الحكم الذي صدر على شعر المخبل فان الذي يهمنا هنا هو اجتماعه بعلقمة ابن عبده مما يعني أنه كان معاصراً له ، وعلقمة هذا توفي حوالي سنة ٦٠٣م(٤٤) •

أما المخبل الكهل فنراه يصدف عن متاع الدنيا الغرور بأهلها ، ويرى أن خلود المرء انما يكون باتباعه سواء السبيل والبعد عن الآثام ، والتزام التقوى • ذلك أن المنايا رصَدٌ لكل مخلوق ، فهي تنقب عنه وتأتيه أينما كان ، فيقول :

وتقول عاذلتي وليس لها ... بغدٍ ولا ما بعده علمُ
ان الثراء هو الخلود وان المرء يُكرِبُ يومه العُدمُ
اني وجدك ماتخلدني ... مئة يطير عِفاؤها أدمُ
لتنقبنْ عني المنية ان ... الله ليس كعلمه علمُ
اني وجدت الأمر أرشده ... تقوى الاله وشره الاثمُ(٤٥)

وعلى ما في هذه الأبيات من معان اسلامية، فأغلب الظن أن هذه القصيدة ، قدقيلت قبل الاسلام ، ولهذا النمط من الشعر الذيتتردد فيه المعاني الاسلامية أمثلة كثيرةنراها عند شعراء الجاهلية ، كالنابغة الذبياني(٤٦)وعبيد بن الأبرص(٤٧) وسلامة بن جندل(٤٨) وأمية بن أبي الصلت(٤٩) وزهير بن أبي سُلمى(٥٠) وأوس بن حجر(٥١)•وغيرهم(٥٢) اذ أن العرب لم يكونوا بعيدين بتفكيرهم عن هذهالأمور وهو ما هيأهم لتلقي الدينالجديد، ونزوله بين ظهرانيهم •

والى هذا فاننا نجد في شعرهحكمة الشيوخ الذين عركتهم الحياة ، وعجمت عودهم ، فوجدت معجمهم صليباً • يظهر ذلك منالحكمالمبثوثة في شعره ، فيقول :

اذا أنت عاديت الرجال فلاقهم ... وعرضك من غَشِّ الأمور سليمُ
وانَّ مقاديرَ الحمامِ الى الفتى ... لسوءاقةٌ ما لا يخافُ هَمومُ
وقد يسبقُ الجهلُ النُّهى ثم انها ... تريعُ لأصحابِ العقولِ حُلُومُ(٥٣)

ومن هذا قوله أيضاً :

وليسالغنى والفقر من حيلةالفتى ... ولكن أحاظٍ قسّمت وجدودُ
ومـا يكسب المرء الغنى بجلاده ... لديه ولكن خائبٌ وسعيدُ
اذا المرء أعيته المروءة ناشئاً ... فمطلبها كهلا عليه شديدُ(٥٤)

وهكذا فان صورة المخبل في أطوار حياتهتكاد تكتمل لولا شح الأخبار المتصلة بطوري النشأة والشباب ، وضياع قسم كبير من شعرالمخبل كان يمكن أن يسهم في اتمام صورة واضحة للشاعر ، تعين على تفسير بعض جوانب شخصيته وخاصة في طور التشكل ، لنرى ما الذي دفعه الى أن ينتهج سبيل الهجاء فيشعره حتى كان أهجى العرب(٥٥) •

* * *

الحواشي :

١ ـ انظر الأغاني : ١٨٩/١٣ ، والاصابة : ٥٠٤/١ ، ٥٢٦ ، و ٤٨٧/٣ وسمط اللالىء : ص ٤١٨ ، ٨٥٧ ، وخزانة الأدب : ٥٣٥/٢ ، وانظر حاشية مغلطاي بهامش الاشتقاق: ٢٥٦/١ •

٢ ـ المعمرون والوصايا : ص ٢ •

٣ ـ هذا ما نقله البغدادي عن التصريح للشيخ خالد في ترجمة الأضبط • الخزانة : ٥٨٨/٤ ـ ٥٩١ • وهذا الزعم ترده سلسلة نسب الأضبط واخيه جعفر ، وفي الأمالي : ١٠٧/١ روى أبو علي عن شيخه عن ثعلب تعليقا على ابيات للاضبط : « ان هذه الأبيات قيلت قبل الاسلام بدهر طويل » •

٤ ـ المعمرون والوصايا : ص ١١ •

٥ ـ الاصابة : ٥٠٤/١ •

٦ ـ الأغاني : ٨١/١٤ • والقول انه كان بعد يوم الصفقة مرده الى ان عبد القيس حاولت أن تفعل ببني سعد كما فعل بهم يوم الصفقة •

٧ ـ انظر النقائض : ١/٢٣٠ ، والعقد ٥/١٤١ ، والتنبيه والاشراف : ص ٢٠٥ ، ومعجم ما استعجم : ١/٣٦٥ ، وفي روايات اخرى انه كان قبل الاسلام بسبعة او تسعةوخمسين عاما انظر النقائض : ٢/٦٧٦ والاغاني : ١١/١٤٠ ، والعمدة : ٢/٢٠٤ ٠

٨ ـ النقائض : ١/٢٣٠ ، ومعجم ما استعجم : ١/٣٦٥ ٠
٩ ـ ديوانه : ق (٦) ٠
١٠ ـ النقائض : ١/٣٠٢ ٠
١١ ـ المصدر السابق : ١/٣٠٢ و ٢/٥٨٨ ٠
١٢ ـ انظر الاكليل : ٢/١٥٧ ، ومعجم ما استعجم : ٢/٤٦١ ٠
١٣ ـ الاكليل : ٢/١٥٦ ، وانظر المعارف : ص ٦٣٦ ٠
١٤ ـ انظر ديوان سلامة بن جندل : ص ٢٥٩ ٠

١٥ ـ الاكليل : ٢/١٥٧ و معجم ما استعجم : ٢/٤٦١ ٠

١٦ ـ ديوانه : ق (٢١) ٠

١٧ ـ ديوانه : ق (١٦) ٠

١٨ ـ الأغاني (ثقافة) : ١٥/١٨٨ ٠

١٩ ـ ديوانه : ق (١١) ٠

٢٠ ـ الأغاني : ١٣/١٩٥ ٠

٢١ ـ المصدر السابق : ١٥/٢٤٠ . و (ط الثقافة) : ١٥/١٨٨ وقرة هذا شهد يوم جبلة ، الاصابة : ٣/٢٣٤ ٠

٢٢ ـ أسواق العرب ، لسعيد الافغاني : ص ٢٨٢ ٠

٢٣ ـ النقائض : ١/٢٣٨ وما بعدها ٠

٢٤ ـ ديوانه : ق (١) ٠

٢٥ ـ المصدر السابق نفسه ٠

٢٦ ـ المصدر السابق : ق (٢١) ٠

٢٧ ـ المصدر السابق : ق (١٢) ٠

٢٨ ـ ديوانه : ق (٥) ٠

٢٩ ـ المصدر السابق : ق (١) ٠

٣٠ ـ الأغاني : ١٣/١٩٣ ٠

٣١ ـ المصدر السابق : ١٣/١٨٩ـ١٩١ ، والاصابة : ٢/١٦٩ ٠

٣٢ ـ ديوانه : ق (١٥) ٠

٣٣ ـ المصدر السابق : ق (١٠) ٠

٣٤ ـ الأغاني : ١٣/١٩٦ ، وانظر القصة في البارع : ص ٢٠١، والمحكم : ٤/٣٠١ ، والمخصص : ٤/١٢ ، والممتع في عمم الشعر وعمله (ط بيروت) : ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ٠ والل (رأس ٠ رها) ٠

٣٥ ـ انظر الظرف والظرفاء (أو الموشى) للوشاء : ص ١٤٨ ٠

٣٦ ـ ديوانه (ط ٠ صادر) : ص ٢٦٧ ٠

٣٧ ـ ديوان الحطيئة (ط ٠ صادر) : ص ٢٦٤ ، وانظر ص ٥٥ ، ٢٣ ـ ٢٤ ، والقصائد (١ و ٥) ٠

٣٨ ـ ديوان الحطيئة (ط ٠ صادر) : ص ٢ ، والاغاني ٢/١٨٠ ، ومختارات ابن الشجري : ٥٠٣ ٠

٣٩ ـ المعارف : ص ١٨٣ ٠
٤٠ ـ ديوانه : ق (٢٦) ٠
٤١ ـ ديوانه : ق (٢٢) ٠
٤٢ ـ الاصابة : ١/٥٠٤ ٠

٤٣ ـ الموشح : ص ١٠٨ والعِلاط : سمة في العنق والعِراض : وسم في فخذ البعير ٠

٤٤ ـ الاعلام (للزركلي) : ٣/٢٣٦ ٠

٤٥ ـ ديوانه : ق (٢٣) ٠

٤٦ ـ انظر ديوانه : ص ٥١ . ٥٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ . ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

٤٧ ـ انظر ديوانه : ص ٢٦ : ١٠٧ ٠

٤٨ ـ ديوانه : ص ١٠٩ . ١٨٤ ٠

٤٩ ـ انظر ديوانه : ق (١٠) ، (١١) ، (٢٣) . (٢٤) وغيره وانظر أميةبن أبي الصلت حياتهوشعره٠ د٠ عبدالحف السطلي : ص ٢٣٦ وما بعدها وص ٢٤١ وما بعدها

٥٠ ـ انظر ديوانه : ص ٢٦ ٠

٥١ ـ ديوانه : ص ٥٧ ، ٧٩ ، ١١٢ ٠
٥٢ ـ انظر المفضليات : ص ١٥١ ، ١٦١ ـ ١٦٢ ، ٣١٥، والاصمعيات : ص ٨٥ ـ ٨٦ ، ١٩٧ ٠

٥٣ ـ ديوانه : ق (٢٤) ٠
٥٤ ـ المصدر السابق : ق (٣٠) ٠
٥٥ ـ انظر النقائض : ٢/١٠٤٨ ٠

★ الاحالات على ديوانه الملحق برسالة الماجستير ، وهو م جمعي وتحقيقي ٠

الكتابة والكتاب والمكتبات لدى الحضارات القديمة في الشرق الأوسط*

ترجمة : د. محمد موفاكو

١ ـ السومريون :

تبدأ قصة الكتاب في السهول الخصبة للجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين ، حيث أقام هناك حضارة متقدمة أحد أغرب الشعوب في تاريخ الانسانية ـ الشعب السومري ·

وفي الواقع ان مصير هذا الشعب فريد من نوعه لأسباب كثيرة · فحتى اليوم ، وعلى الرغم من الأبحاث الأركيولوجية الكثيفة ودراسة الجوانب المادية والروحية لحضارته ، لم يتم التوصل الى الكشف عن أصل هذا الشعب ولا عن الجنس الذي ينتمي اليه · وهناك من يفترض أن السومريين في النصف الثاني للألف الخامسة قبل الميلاد . وحتى أقدم من هذا عند بعض الباحثين ، قد هبطوا من الشمال ـ وربما من منطقة بحر قزوين ـ واستوطنوا الجزء الجنوبي للمنخفضات الخصبة بين دجلة والفرات · وبعد عدة قرون من قدومهم فقط كان هؤلاء قد أقاموا حضارة ممتازة ، ومن هذه الحضارة تشربت كل الحضارات الكبرى التي تطورت في الشرق الأوسط · الا أن السومريين سرعان ما اختفوا من ساحة التاريخ بعد أن فقدوا استقلالهم السياسي في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد · وفي تلك الساحة جاء بعدهم الأكاديون والبابليون والآشوريون وغيرهم، الذين أخذوا وطوروا ما كانت قد وصلت اليه حضارة السومريين ، ولذلك فقد اقترنت لاحقاً بهذه الشعوب الانجازات الحضارية في حقل المعرفة، وتنظيم الدولة ، والادب الخ · وهكذا فقد ضاع في النسيان حتى اسم السومريين وبقي منسياً حتى القرن التاسع عشر ، حين أخذت الحفريات الأركيولوجية تكشف عن المدن السومرية ، وعن أقنية الري ، وعن المعابد الضخمة ، وعن آلاف الألواح الطينية التي نقشت عليها الحروف المسمارية أو الحروف

★ ترجمة للفصل الأول من كتاب : Aleksandar Stipcevic, Povijest knjige, Zagreb 1985

التصويرية • وهكذا أصبحنا نعرف الكثير عن السومريين ، وعاد العلم للاعتراف لهم بالكثير من الاسهامات التي كانت تنسب على مر القرون الى الشعوب الأخرى • وعلى رأس هذه الاسهامات ، التي تضمن مكانة الشرف لهذا الشعب في تاريخ الحضارة العالمية ، تأتي الكتابة والكتاب والمكتبات •

وفيما يتعلق بالكتابة ما زلنا لا نعرف على وجه اليقين هل ان السومريين بالذات هم الذين قاموا أولاً بالتعبير عن الفكر بالحروف ، مع أن هذه الفرضية تعتبر الأكثر شيوعاً • ان أقدم الشواهد على الكتابة السومرية هي تلك الألواح الطينية الصغيرة مع الأسماء التي نقشت بالحروف التصويرية ، وهي التي تعود الى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد • ولكن من المحتمل أن يكون السومريون قد كتبوا قبل هذا التاريخ على مواد أخرى ذات تركيبة عضوية ، وأن تكون هذه المواد قد تحللت وتلاشت للأبد • ومن المحتمل أيضاً ألا يكون السومريون هم أول من توصل الى تطوير الحروف كوسيلة جديدة للتواصل ، أي أن يكونوا قد أخذوا ذلك عن شعب آخر غير معروف كان يعيش قبلهم في الجزء الجنوبي من بلاد ما بين النهرين • وربما هنا تجدر الاشارة الى النظرية الجديدة التي تقول ان السومريين قد تعلموا الكتابة من أحد الشعوب الذي كان يعيش على ضفاف نهر الدانوب ، ولكنهم قاموا بدورهم في تطوير هذه الكتابة • وقد أصبحت هذه الفرضية مقبولة أكثر منذ أن تم العثور خلال ١٩٦١ على الألواح الطينية التي تعود الى العصر الحجري الأحدث في منطقة تارتاريا برومانيا • فالتشابه بين الرموز الواردة في هذه الألواح وبين أقدم الكتابات التي خلفها السومريون واضح للغاية ، ولذلك فقد استخلص علماء الآثار أن هذه الرموز ، بالاضافة الى الكثير من أمثالها التي تم اكتشافها قبل وبعد ١٩٦١ على ضفاف الدانوب ، قد نشأت تحت تأثير الحضارات الكبرى للشرق الأوسط • الا أن نتائج التحاليل الراديوكربونية قد فاجأت وحيرت الخبراء لأنها أوضحت ان تلك الرموز الدانوبية أقدم بمئات السنين من أقدم الالواح السومرية ! وليس من المستبعد أن تفاجئنا التحاليل الراديوكربونية في المستقبل أيضاً ، ولذلك فان الوقت باكر جداً لطرح رأي نهائي حول هذا ، أي من تأثر بالآخر • وبغض النظر عن الأسبقية الآن فهناك حقيقة يمكن أن نؤكدها فوراً ، ألا وهي أن السومريين هم أول من أخذوا الحروف التصويرية تدريجياً بحيث بسطوها وحولوها الى نظام رموز لكل الخصائص الصوتية البارزة •

لقد تم العثور على مئات من الألواح الطينية بالحروف التصويرية ، وهي أقدم الحروف التي طورها السومريون ، في مدينة أوروك Uruk ، وهي تعود الى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد • وفي ذلك الوقت كان السومريون يستعملون حوالي ٢٠٠٠ حرف تصويري ، الا أن هذا العدد أخذ يقل تدريجياً نتيجة التزايد ترابط الحروف بالأصوات حتى وصل الى ٥٠٠ ــ ٦٠٠ حرف خلال الألف الثانية قبل الميلاد • وبالاضافة الى ذلك فان شكل الحروف السومرية في حد ذاته قد تغير على مر القرون • فالرسوم الأساسية من المرحلة التصويرية ستتحول الى رموز تنسجم من تصور معين لا تشبه كثيراً الأصول الأولى التي تطورت منها • وقد ساهم بالنمو المورفولوجي للرموز الأسلوب الجديد في

تدوينها على الطين اللين وذلك بالأقلام الحادة من القصب أو الخشب ، التي كانت تخلّف على الطين آثاراً ثلاثية الشكل تشبه المسامير · ومن هنا جاءت تسمية هذه الحروف ـ الحروف المسمارية · وقد نجح السومريون في تطوير هذه الحروف الى حد أنهم استطاعوا أن يدونوا بها أدق المفاهيم التجريدية وأرق المشاعر ·

الا أن الحروف التصويرية في البداية ، وحتى الحروف المسمارية لاحقاً ، لم تنشأ ولم تتطور بدافع الرغبة في أن تكتب بها القصائد والحكايات أو النصوص العلمية ـ التعليمية · فقد طور السومريون الحروف لدواع عملية ، أي لكي يسجلوا بها الاتفاقيات التجارية والمعاهدات مع الدول الأخرى ، أو لكي يدونوا بها البضائع والمواشي التي يدين بها الأفراد للمعابد أو للمسؤولين المحليين الخ · وحتى في القرون اللاحقة ، أي خلال ازدهار الامبراطوريتين البابلية والآشورية وبقية الدول في الشرق الأوسط ، فان الحروف كانت في الدرجة الأولى تستعمل لغايات منفعية · فمن كل النصوص التي تم العثور عليها حتى الآن ، سواء أكانت مدونة على الألواح الطينية أو الأحجار أو على بقية المواد الأخرى التي كانت تستعمل للكتابة ، نجد أن ٩٥٪ من هذه النصوص تتعلق بأمور التجارة والادارة وشؤون الدولة · وهكذا فان هذه النصوص لها أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة للتاريخ السياسي والاداري للانسانية ، ولكن فيما يتعلق بالتاريخ الحضاري فان النصوص الأخرى التي تتضمن الأدب والقوانين والميتولوجيا والفلك والبيطرة والتاريخ الخ · تعتبر ذات أهمية أكبر · ان القراءة المتأنية لتلك الالواح ، التي غالباً ما تكون مفتتة ومشوهة ، قد قادت بالفعل الى معارف مثيرة · فقد كشفت هذه الألواح أن السومريين كان لهم أدب غني ومتطور وكانوا يعرفون أسس الكثير من المعارف الطبيعية ، بالاضافة الى أنهم كانوا يتمتعون بميتولوجيا غنية جداً · وفي هذه الميتولوجيا يمكن أن نرى الكثير من الموتيفات التي استحوذت عليها لاحقاً كل الشعوب في الشرق الأوسط ، والتي عايشت كل التغيرات التاريخية لتصل الى وقتنا هذا ·

كان السومريون يحتفظون بالألواح الطينية في أماكن خاصة داخل المعابد أو القصور الملكية أو المدارس · وقد تم العثور على بقايا هذه المكتبات أو مراكز الوثائق في المدن السومرية الكبيرة ك لاغاش Lagash و أور Ur و أوروك Uruk ونيبور Nippur الخ · الا أننا لا نعرف الكثير عن مظهر هذه المكتبات أو مراكز الوثائق ولا نعرف شيئاً عن تنظيمها وعملها · ومع ذلك فان الخبير الأمريكي بتاريخ وثقافة السومريين س·ر· كرامر قد سلط ضوءاً ساطعاً على هذه القضية المثيرة · فقد كشف عن أن أحد النصوص المدونة على لوح طيني محفوظ في المتحف الجامعي في فيلادلفيا الأمريكية ما هو الا فهرس لاحدى المكتبات · وفي الواقع ان هذا اللوح الطيني يعود الى حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وقد تم العثور عليه في بقايا مدينة نيبور ، المركز الديني والثقافي للسومريين ، حيث اكتشفت أيضاً الكثير من الألواح الطينية الأخرى بالاضافة الى مقر للكتابة ومدرسة أيضاً · وعلى الوجه الأمامي والخلفي لهذا اللوح الطيني نجد سجلاً لاثنين وستين كتاباً في موضوعات مختلفة ، حتى ان الكتب ال ١٣ الأخيرة تنتمي الى مجموعة « الحكمة » · ان

هذه المعطيات تقود الى أن الألواح الطينية في مكتبات ذلك الوقت كانت تتوزع على مجموعات متنوعة حسب الموضوعات المختلفة · واذا كان كرامر على حق في ما وصل اليه فان هذا أول اشعار عن وجود نظام للتصنيف الأولي في المكتبات السومرية ·

ومن نيبور لدينا أيضاً لوح آخر محفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس ، وكان قد عثر عليه كرامر الذي لا يعرف الكلل والملل · وفي هذا اللوح نجد بعض عناوين الكتب التي دونت أيضاً في اللوح المحفوظ في فيلادلفيا ،ولكن تدينا بعض العناوين الجديدة بحيث يصل مجمل عدد العناوين المذكورة على وجهي اللوح الى ٨٧ عنواناً · وهنا لم تخف على عين كرامر الخبيرة بعض التفاصيل في الخط الموجودة في اللوح الأول والثاني بحيث قاده ذلك الى القول بأن هذين اللوحين قد كتبتهما يد واحدة ·

اننا لا نستغرب لكون القائمين برعاية تلك الألواح ، لكيلا نقول العاملين في المكتبات ومراكز الوثائق ، الذين كان عليهم أن يجدوا اللوح المطلوب بين مئات الألواح ، قد عمدوا الى ترتيب تلك الألواح في الرفوف بشكل منطقي · فقد كان في وسعهم مثلاً أن يضعوا الألواح التي تتضمن موضوعات ميتولوجية في أحد الرفوف ، وأن يضعوا في رف آخر الألواح التي تختص بالرياضيات · ومن الصعب هنا أن نقطع بأن هذا الفهرس ، كما نعرفه الآن ، له قيمة عملية ولكنه دون شك يكشف لنا عن جهد العاملين في المكتبات ومراكز الوثائق لوضع وسيلة للتوصل الى ما هو مطلوب وسط الألواح الكثيرة الموجودة في المكتبات ·

لقد سادت الثقافة السومرية في بلاد ما بين النهرين لفترة طويلة تزيد على ألف وخمسمائة سنة ، أي من منتصف الألف الرابعة حتى بداية الألف الثانية قبل الميلاد · وخلال هذه الفترة الطويلة تمكن الكتاب السومريون من تدوين عدد كبير من النصوص في موضوعات مختلفة وفي نسخ متعددة · فبعض الحكايات الشائعة ، كما هو الامر مع البطل السيىء الحظ جلجاميش ، قد حفظت في نسخ كثيرة وروايات متعددة · وقد كان السومريون أول من سجل هذه الحكاية ثم قامت بتسجيلها بعض الشعوب الآخرى التي توارثت حضارتهم في تلك المنطقة · الا أن الكتاب السومريين لم ينسخوا الاعمال الأدبية والميتولوجية فقط بل دونوا أيضاً القواميس والنصوص المتعلقة بالبيطرة والرياضيات وغير ذلك من النصوص التي سجل فيها انسان ذلك الوقت معارفه وانجازاته التكنيكية · وفي الواقع ان السومريين هم أول من سجل تلك الانجازات بهدف واضح ، وهو أن يحفظوها للأجيال القادمة · وبعبارة أخرى فان السومريين هم الذين خصوا الكتاب بالدور الذي ارتبط به حتى هذه الأيام ، أي أن يكون الحافظ للانجازات الانسانية الثقافية والتكنولوجية ، ولكن بالاضافة الى دوره الآخر بخدمة الحاجات الرسمية والتعليمية وغير ذلك من الحاجات اليومية ·

في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد أخذ الأكاديون الساميون ينتشرون في بلاد ما بين النهرين ، وتحت تأثير الضربات من هؤلاء القادمين الأشداء بدأ السومريون يتلاشون من منصة التاريخ · وهكذا بعد صعود قصير وباهر منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، حين عايشت

الحضارة السومرية أهم ازدهار لها ، جاءالاموريون الساميون ليدمروا مقر دولتهم ، مدينة أور ، وليضموا اراضي السومريين الىحكمهم • وعلى أنقاض دولة السومريين والحضارة السومرية ستتطور لاحقاً الدولةالقوية للبابليين •

٢ ـ البابليون :

أخذ البابليون وطوروا كل ما خلفه السومريون في المجال الروحي وفي حقل الحضارة المادية • فمن هؤلاء أخذ البابليونالحروف المسمارية وكل المعارف الرياضية والفلكية الخ ، بالاضافة الى أسلوب بناء المدنوالسدود الخ • ولكي يفهموا النصوص التي ورثوها عن السومريين فقد كان على البابليينأن يضعوا المعاجم العديدة وأن يترجموا النصوص الأدبية وغيرها ، وأن يتابعوا تطويرالمعارف من حيث توقف السومريون • وهكذا فقد تفوق المنتصرون الساميون ، الذينانبهروا بالتركة الروحية ، على السومريين المهزومين في مجال الثقافة والمعارف • فقدتحولت ملحمة جلجاميش وغيرها من الأعمال الأدبية الى جزء لا يتجزأ من الادب البابلي •

ورث البابليون أيضاً عن السومريينالموهبة الكبيرة للكتابة ، بل ان البابليين قد تفوقوا هنا على أساتذتهم السومريين • ففيعصر الازدهار الكبير ، وخاصة خلال عهد حمورابي في القرن ١٨ ق•م ، توصلالبابليونالى انتاج كتابي ضخم مما دفع العالم الاركيولوجيالألماني ر.غولدوي R. Goldewey الذي قام بالتنقيب عن العاصمة بابل ، الى أن يطلق على البابليين « عشاق الكتابة » •وفي الواقع ان عدد الالواح الطينية البابلية التي تم اكتشافها حتى الآن يتجاوز ٦٠٠ ألفلوح تتضمن مختلف الموضوعات •

وكما في العصر السومري فقد كانالبابليون أيضاً يدونون وينسخون الألواح في مكاتب خاصة ويحفظونها في المكتبات ومراكزالوثائق ، التي كانت تنتشر في اطار المعابد أو قصور الحكام • وقد تم اكتشاف مكتباتمن هذا النوع ، تحتوي كل واحدة على عشرات الآلاف من الألواح ، في مدن كيش Kish وسيبار Sippar وفي بقية المراكز الثقافية البابلية •

وبالاضافة الى البابليين فقد استعملتالحروف المسمارية والألواح الطينية شعوب أخرى في بلاد ما بين النهرين وفي البلاد المحيطةبها ، وقد تمكن أيضاً بعض هذه الشعوب من انجاز انتاج كتابي ضخم وتنظيم جيدللمكتبات •

٣ ـ المكتبة الرسمية في ايبلا :

ان هذه المكتبة أو مركز الوثائق تستحقعناية خاصة بسبب بعض التفاصيل المتعلقة بها • وقد تم اكتشاف هذه المكتبة مؤخراً فيتل مرديخ ، الذي يقع على بعد ٥٥ كم في جنوب غرب مدينة حلب بسورية ، حيث كانتتقوم في الأزمنة القديمة المدينة القوية والغنية ايبلا • ففي خلال ١٩٧٤ كشفت الحفرياتالأركيولوجية ، التي كان يقوم بها منذ ١٩٦٤ خبراء من جامعة روما ، عن مكتبة أو مركزللوثائق في حالة جيدة ، بحيث يمكن القول أن

هذه أقدم مكتبة تم اكتشافها حتى الآن في الشرق الأوسط • وخلال الأبحاث الأركيولوجية الكثيفة تم اكتشاف بقايا القصر الملكي الكبير الذي كان يحتوي على قسمين خاصين بالكتب، ومن هنا أخرج العلماء ١٧ ألف لوح طيني مدونة بالحروف المسمارية ولكن في اللغة المحلية ، أي في اللغة الايبلية • وقد كان هذا القصر قد تهدم سنة ٢٢٥٠ق•م نتيجة للحريق الذي شب فيه خلال هجوم الملك الأكادي نارامسين • ونتيجة لهذا الحريق فقد التهمت النار الرفوف الخشبية التي كانت تحمل الألواح الطينية، مما سبب تساقط هذه الألواح بعضها فوق بعض وهذا ساعد العلماء على اعادة تصور كيفية توزع هذه الألواح كما كانت في ذلك الوقت • وهكذا اتضح أن هذه الألواح كانت مرتبة الواحد وراء الآخر بحيث كان في الامكان « تصفحها » كما يتصفح المرء اليوم البطاقات المفهرسة في المكتبات العامة • أما الألواح الكبيرة ، التي كانت تتعلق بشؤون الادارة والدولة ، فقد كانت تسند على الجدار في الأرضية •

ان التحليل المتأني للمواد المكتشفة يكشف عن تفاصيل مثيرة ، وهي تكشف بدورها كيف أن العاملين في تلك المكتبة قد توصلوا الى حل جيد للوصول بسهولة الى اللوح المطلوب • فقد كانت كل الألواح مرتبة بحيث يبدو منها بداية النص ، وفي رأس اللوح كان يكتب العنوان بشكل مختصر ولذلك كان يمكن قراءته بسهولة دون أن تكون هناك حاجة الى تحريك اللوح من مكانه ، وكان يمكن أيضاً بالاستناد الى ذلك معرفة محتوى اللوح •

بعد ذلك الحريق لم يتم تجديد المكتبة أو مركز الوثائق ، ولا حتى القصر الملكي بكليته ، ولذلك فقد كانت هذه فرصة نادرة للعلماء الأركيولوجيين لكي يقوموا بأبحاثهم في هذه المكتبة التي بقيت كما تركها الجنود الأكاديون • وهكذا فقد وجد العلماء ما يكفي من العناصر لاعادة تصور القصر الملكي كما كان في الواقع الى حد كبير • فالغرفة التي عثروا فيها على النصوص الأدبية والتاريخية الخ كانت تصل مساحتها الى ٣,٥ × ٤ م ، وعلى جدران تلك الغرفة بقيت آثار المحامل التي كانت تسند الرفوف الخشبية المخصصة للألواح الطينية الثقيلة • وعلى الأرضية أيضاً كانت توجد وبأبعاد مناسبة شقوق للمحامل العامودية التي كانت تسند الرفوف الأفقية المملوءة بالألواح الثقيلة • وبالاستناد الى ذلك أصبح في الامكان معرفة عرض الرفوف (حوالي ٨٠ سم) والارتفاع الذي يفصل كل رف عن الآخر (حوالي ٥٠ سم) •

ومن هذه الألواح المكتشفة لم يتم حتى الآن الا قراءة عدد قليل ، حوالي الألف فقط• ومن هذه النصوص التي تمت قراءتها يبدو بوضوح أن القسم الأكبر من هذه الألواح يحتوي على نصوص ادارية وقانونية وسلطوية • وفي هذه الألواح سجلات كثيرة للبضائع التجارية التي كانت تصل الى ايبلا ، وأوامر ملكية مختلفة ، واتفاقيات تجارية مع المدن والدول المجاورة الخ • ولكن في هذه الألواح نجد أيضاً سجلات مختلفة لحكام ايبلا ورسائل تاريخية وأناشيد وأعمالاً أدبية بالاضافة الى عدد كبير من المعاجم الايبلية ـ السومرية والحكايات الميتولوجية والأمثال الخ • ومن هذه النصوص نجد أن بعضها قد حفظ في أكثر من نسخة •

لقد كانت المعاجم توضع على رف خاص، بينما كانت النصوص الادبية توضع على رف آخر خاص بها ، وهكذا أيضاً بالنسبة لبقية الموضوعات . ومن هذا يمكن أن نستخلص ان العاملين في ايبلا كانوا كزملائهم في نيبور يضعون الالواح في مجموعات منفصلة حسب الموضوعات .

ومن المحتمل جداً أن بقية المكتبات أو مراكز الوثائق في الشرق الاوسط كانت تشبه هذه المكتبة المكتشفة في ايبلا ، الا أن الحظ قد حالف العلماء هذه المرة ليجمعوا عناصر كافية تساعدهم على اعادة تصور كل الأمور الجوهرية لمكتبة من هذا النوع ، وعلى التثبت من وجود نظام للتصنيف فيها .

٤ ــ الكتاب والمكتبات في أوغاريت :

فيما يتعلق بتاريخ الكتاب في الشرق الأوسط ، وبشكل خاص بالمكتبات ، فان المكتشفات الأركيولوجية في أوغاريت تعتبر ذات أهمية خاصة . وقد تم العثور على بقايا هذه المدينة في رأس شمرا ، بالقرب من اللاذقية على الساحل السوري .

لقد كانت مدينة أوغاريت تمتد في موقع مناسب جداً حيث كانت تتقاطع الطرق التجارية والمؤثرات الحضارية للعالم في ذلك الوقت . فالتجار والدبلوماسيون والكهنة وغيرهم من أصحاب الغايات من مصر وبلاد الحثيين والبابليين والآشوريين والميكانيين والقبارصة كانوا قد أوجدوا في أوغاريت تجمعاً شرقياً وحضوراً متموجاً وبارزاً في شوارع هذه المدينة . وهكذا لم تكن أوغاريت مكاناً للتجارة فقط بل كان يتم فيها تبادل الرأي ومعرفة كل ما يحصل في البلدان الأخرى ، مما كان يخلق فيها شرطاً مثالياً للمركز الديناميكي والخلاق الذي تبرز فيه الأفكار الجديدة والذي يضمن لنفسه التطور المتواصل .

لقد وجد العلماء أنفسهم أمام كنز لا يقدر بثمن بعد أن تولت بعثة التنقيب الفرنسية برئاسة ك. شافير C. Shaffer العمل منذ ١٩٢٩ بشكل واسع ومنظم في رأس شمرا . ومن بين الأشياء التي استخرجت كانت الألواح الطينية الكثيرة التي نقشت عليها الحروف المسمارية للغة مجهولة حتى ذلك الحين ــ اللغة الأوغاريتية ، بالاضافة الى ألواح كثيرة بلغات تلك الشعوب التي كان الأوغاريتيون يقيمون معها صلات تجارية ودبلوماسية . وقد اتضح على الفور أن مضمون تلك الألواح مهم للغاية فيما يتعلق باعادة ترتيب الحوادث التاريخية في النصف الثاني للألف الثانية قبل الميلاد ، أي في الوقت الذي كانت فيه أوغاريت تعايش أعظم ازدهار اقتصادي وثقافي . وبشكل خاص فقد كانت بعض الألواح تتمتع بقيمة كبيرة ، وبالتحديد تلك الألواح التي تتضمن نصوصاً أدبية وقانونية ومعرفية ودينية . وبعبارة أخرى فقد كان قد تجمع في أوغاريت جزء كبير مما أبدع خلال آلاف السنين في الشرق الأوسط . وقد كان التجار والأفراد العمليون والأوغاريتيون قد بسطوا الحروف المسمارية الى حد كبير حتى ان عددها وصل الى ثلاثين فقط ، وبهذا كانوا قد وضعوا واحدة من أقدم الكتابات الصوتية في العالم ، أي تلك الأبجدية التي تعود الى القرن ١٥ ق.م .

وفي وسط من هذا النوع كان لا بد بالطبع أن تكون هناك مكاتب للكتابة ومدارس للكتاب ومكتبات أيضاً ، وهي التي برزت بسرعة خلال الحفريات · ففي بداية أعمال التنقيب ، خلال ١٩٢٩ ، تم اكتشاف مكتبة بالاضافة الى مكتب للكتابة في البناء ذاته · ومن خلال الكتابات الجدرانية اتضح أن ذلك البناء كان مقراً لسكن ومكتب رئيس الكهنة في أوغاريت · وفي مكتبة رئيس الكهنة كان هذا يحتفظ بكتب دينية وثقافية ، نظراً للمنصب الرفيع الذي كان يحتله ، بالاضافة الى كتب أدبية ومعاجم وحتى رسالة غير عادية بعنوان « معالجة الحصان المريض » ·

ومع استمرار الحفريات الاركيولوجية تم اكتشاف عدد آخر من المكتبات في هذه المدينة ، وبين هذه كانت المكتبات الخاصة هي الاكثر عدداً · ومن المثير فعلاً أنه حتى الآن لم يتم العثور على مكتبة رسمية أو مركز للوثائق ، كما هو الأمر مع بقية المراكز الثقافية الكبرى في الشرق الأوسط ·

فخلال ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨ تم اكتشاف مكتبة خاصة في بيت أحد الموظفين الملكيين في ذلك الوقت · وفي هذه المكتبة وجدت رسائل كان هذا المسؤول قد تسلمها من حاكم قبرص ومن عدد آخر من الشخصيات الهامة في تلك الفترة · وبالاضافة الى هذه الوثائق فقد كان هذا المسؤول يحتفظ في مكتبته بمعاجم متعددة ، ومن هذه معجم بأربع لغات سومري ـ آكادي ـ حوري ـ أوغاريتي · ومن الواضح أن هذا المعجم كان ضرورياً له للاتصال مع المحيط المتنوع الذي كان يتعامل معه من خلال مسؤولياته الرسمية ·

وفي ١٩٥٩ اكتشفت مكتبة خاصة أخرى في هذه المدينة · وقد كانت هذه المكتبة موزعة على قسمين ووجد العلماء فيها معاجم كثيرة ونصوصاً فلكية وأدبية ، ومن بين هذه كان هناك مقطع للحكاية السومرية ـ البابلية الشائعة عن جلجاميش ·

وخلال أعمال التنقيب الأخرى التي جرت سنة ١٩٦٢ ظهرت مكتبة خاصة أخرى بالقرب من أكروبول المدينة تحتوي على كتابات قانونية ومعرفية · كانت هذه المكتبة تخص أحد الموظفين الكبار في الدولة (نهاية القرن ١٥ وبداية القرن ١٤) الذي لم يكتف بتجميع النصوص التي يحتاج اليها خلال عمله الرسمي وانما كان كغيره من المثقفين حريصاً على أن يكون لديه في المكتبة مجموعات من المعاجم والأعمال الادبية الأوغاريتية والسومرية وغيرها · وفي هذه المكتبة نجد مجموعات مثيرة من الالواح الطينية التي كانت لدينا معروفة من خلال المكتبات الأخرى الخاصة في أوغاريت كتلك التي تتضمن تعابير الحكمة ، التي تكشف عن الاهتمامات الفكرية للشريحة المثقفة في المجتمع الأوغاريتي · ففي أحد الألواح نقرأ ما يلي : « هل هناك حياة تافهة هي أفضل من الموت ؟ » ، وفي لوح آخر نصادف مثلاً : « من الذي لا يتجاهل الضعف ؟ » أو « هذا هو قدر الأبرياء ! » الخ ·

وهكذا من المعطيات الكثيرة التي توصل اليها العلماء خلال أعمال التنقيب في هذه المدينة القديمة يمكن لنا أن نستخلص أن الكتاب كان مُقدراً جداً في الشرائح العليا للمجتمع الأوغاريتي ، حتى ان بعض النصوص الأدبية والمعرفية كانت نصوصاً مقررة

للمتعلمين . ومن الواضح هنا أن معرفة الأعمال الأدبية وبقية الأعمال السومرية ـ البابلية كانت في ذلك الوقت جزءاً أساسياً من التعليم الأساسي . وبالاستناد الى ذلك فمن المؤكد ان أفراد الطبقة الحاكمة من المسؤولين والكهنة والتجار كانوا يزدرون كل فرد يجهل ما يعرفونه ، أو كل من لا يحتفظ في مكتبته الخاصة بالكتب المعروفة والشائعة كملحمة جلجاميش مثلاً .

لقد تعرضت أوغاريت للغزو والتدمير على يد شعوب البحر ، وربما كان من حسن الحظ فعلاً أنه لم يتم تجديدها لاحقاً . فقد وجد علماء الآثار بقايا هذه المدينة كما قد تركها الغزاة ، ودلت أبحاث أولئك العلماء على أن أوغاريت لها مكان مشرف في تاريخ الكتابة والكتاب والمكتبات .

٥ ـ المكتبة الرسمية الحثية في هاتوشاش :

كان للحثيين أيضاً في عاصمتهم هاتوشاش Hattushash مكتبات أو مراكز للوثائق غنية ومنظمة بشكل جيد . وكان علماء الآثار قد حددوا ونقبوا عن هذه العاصمة في بوغازكوي Boğazköy ، التي تبعد حوالي ١٥٠ كم عن شرق أنقرة الحالية في تركيا . وخلال الحفريات ، التي استمرت منذ سنة ١٩٠٦ وحتى الآن ، تم اكتشاف آلاف الألواح الطينية التي تحتوي على كتابات حثية بالحروف المسمارية البابلية ، والتي دونت خلال القرنين ١٤ـ١٣ ق.م . وتتضمن هذه الألواح نصوصاً دبلوماسية وادارية وسلطوية على الأغلب ، ولكننا نجد فيها أيضاً نصوصاً كثيرة تحتوي على موضوعات تاريخية وعلى حكايات سومرية ـ بابلية ، ومن ذلك بطبيعة الحال ملحمة جلجاميش . الا أن هذه الحكايات لا توجد فقط في أصولها البابلية وانما في عروضها الحثية أيضاً . وفي الواقع ان وجود النصوص الأدبية والتاريخية كان يدفع الى الاعتقاد أن ما يضم هذه النصوص لم يكن مجرد مركز للوثائق ، بل ان الأمر يتعلق بالمكتبة الرسمية الحثية .

وحول هذه المكتبة أصبحنا نعرف الآن بعض المعطيات المثيرة التي توضح الى أي مدى وصل العاملون في المكتبات بالشرق الأوسط في تنظيم الكتب في المكتبات . فقد استفاد أولئك العاملون من خبرة الآخرين المتراكمة على مر القرون في المكتبات الاخرى للشرق الأوسط وأصبحوا يعرفون في ذلك الوقت كيف يتوصلون الى اللوح المطلوب وسط آلاف الألواح الأخرى . ففي نهاية الألواح الطينية في هاتوشاش نجد معلومات تتعلق بالعنوان ، بل بمضمون النص وبالناسخ . واذا كان النص في أحد الألواح يكتمل في لوح آخر فان الالواح في هذه الحالة كانت ترقم ، وكان النص في كل لوح آخر يبدأ بالجملة الأخيرة الواردة في اللوح السابق . ولمعرفة مكان كل لوح أيضاً قام العاملون في المكتبة بوضع فهرس للمكتبة . وبعبارة أخرى فان هذه المكتبة ، كغيرها من المكتبات الكثيرة خلال ذلك الوقت في الشرق الأوسط ، كانت تحظى بكل العناصر الجوهرية التي تميز المكتبة المنظمة عن المكان الذي تتجمع فيه الوثائق المكتوبة دون أي ترتيب .

٦ ـ مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال :

بالاستناد الى العناصر المذكورة أعلاه فقد تطورت بأبعاد أوسع أهم مكتبة في الشرق الاوسط ، تلك التي أسسها بكل عناية الحاكم الآشوري المثقف آشور بانيبال ، الذي تولى الحكم خلال ٦٦٩ـ٦٢٧ ق.م ·

وقد أدت المصادفة أن تكتشف هذه المكتبة في بداية التنقيبات الأركيولوجية في بلاد ما بين النهرين · فخلال ١٨٤٥ـ١٨٥١ كان قد اكتشفها حينئذ الدبلوماسي الانكليزي الشاب ا. هـ. لايرد A. H. Layard في تل كيونجيك بالقرب من الموصل ، حيث تم اكتشاف بقايا العاصمة الآشورية نينوى · وفي ١٨٥٠ اكتشف لايرد البلاط الملكي للملك سنحاريب (٧٠٥ـ ٦٨١ ق.م) ووجد فيه ما سماه « غرفة السجلات » · وقد تابع عمله بعد ذلك هـ. راسّم H. Rassam خلال ١٨٥٢ـ١٨٥٤ و ١٨٧٧ـ١٨٨١ ، واكتشف بقايا قصر الملك آشور بانيبال ومكتبته التي تحتوي على أكثر من عشرين ألف لوح طيني ·

لقد أثارت قراءة تلك الالواح ، التي انتقلت الى المتحف البريطاني في لندن ، ضجة كبيرة سواء في وسط الخبراء في ذلك الوقت أو في وسط المهتمين بالثقافات القديمة للشرق الأوسط · وهكذا مثلاً تم اكتشاف أن ذلك الحاكم الآشوري الكبير ، الذي روت المصادر التاريخية الكثير عن شدته وحملاته الدموية على جيرانه ، كان في الوقت ذاته عالماً كبيراً ومحباً للكتب · وفي الواقع كان هذا الملك أول من توصل الى الفكرة بأن يجمع في مكان واحد كل ما أبدعته الأجيال السابقة في الشرق الأوسط في حقل الأدب والمعرفة ، وهي المبادرة التي لا مثيل لها في التاريخ ·

ان الألواح التي اكتشفت في المكتبة الملكية تروي بنفسها كيف تم انجاز هذه المبادرة · فمن خلال هذه الألواح أصبحنا نعرف كيف أن جيشاً كاملاً من الكتّاب قد كلف بأمر ملكي بأن ينسخ عدة مرات كل نص قديم يتم الحصول عليه · وقد كان الكتاب يسجلون بفخر أصل النص الأصلي وتاريخه : « نص منسوخ من بلاد آشور التي هي مصدر النص الأصلي » ، أو : « حسب أحد الألواح من بابل » الخ · وهكذا تكشف هذه الاشارات وغيرها عن الجهد والتنظيم اللذين تم بهما نسخ النصوص القديمة لمكتبة آشور بانيبال · وبالاضافة الى هذا تم ببساطة نقل الكثير من الألواح من المدن الأخرى للامبراطورية الآشورية الى هذه المكتبة · فمن هذه الألواح نفسها نعرف الآن أنه تم نقل مكتبة خاصة بكاملها من كلاح Kalah الى نينوى ·

لقد كان الملك آشور بانيبال يشرف بنفسه على اتمام نسخ كل الألواح القيمة التي يُعثر عليها في أرجاء امبراطوريته وتنقل الى مكتبته · ففي احدى رسائله الى أحد المسؤولين في بابل نجده يأمره كما يلي : ابحثوا عن الألواح القيمة التي لا يوجد منها نسخ في بلاد آشور وأرسلوها اليَّ · لقد كتبت الآن الى رئيس الهيكل ومحافظ المدينة في بورسيبا Borsippa عنك وعليك الآن يا شادان أن تحفظ الألواح في مقرك بحيث لا يتجرأ أحد على أن يسرق منها شيئاً · وحيثما تجد أي لوح أو أي نص شعائري يمكن أن يناسب قصري فخذه وأرسله الى هنا » ·

ومن أمثال هذه الأوامر التي كان الملك يوجهها الى العاملين لديه في أرجاء الامبراطورية نستخلص ببساطة ان الأسلوب الذي كان ينتهجه الملك لجمع الألواح المرغوبة لا يمكن أن يُمدح عليه • ولكن مع ذلك علينا أن نكون منصفين له وأن نعترف بان آشور بانيبال لا يقارن بالكثير من الحكام اللاحقين والزعماء العسكريين الناهبين • وبعبارة أخرى نعرف آن القسم الاكبر من مكتبته قد تجمع بنسخ الألواح القديمة وليس بنهب المكتبات الاخرى •

لقد ساهم الكتّاب ـ الذين كانوا يعملون تحت متابعة المسؤولين المتعلمين في القصر الملكي ـ والمصححون، والمصنفون ، والعاملون الذين كانوا يشوون بعناية الألواح الطينية ، وأولئك الذين كانوا يرتبون الألواح على الرفوف ، بالاضافة الى الكثيرين ايضاً ، لقد ساهم كل هؤلاء تحت رعاية الموظفين الملكيين وحسب خطة الملك آشور بانيبال نفسه في انشاء أكبر مكتبة في الشرق القديم • وفي الواقع لقد كانت هذه المكتبة هي النموذج الأولي للمكتبة ، كما هو الحال مع مكتبة الاسكندرية من العصر الهليني، التي ستأخذ أرقى شكل لها•

كان المسؤولون عن تنظيم هذه المكتبة يواجهون المشاكل أيضاً ، مع أن تلك المشاكل لم تبرز لهم لاول مرة في الشرق الأوسط • فقد حاول الآخرون قبلهم حل تلك المشاكل ، الا أن هموم العاملين في مكتبة آشور بانيبال كانت أكثر لأن هذه المكتبة كانت أكبر مكتبة حتى ذلك الوقت • فالسؤال كان دائماً يدور حول أسلوب ترتيب الالواح الطينية وطريقة تصنيفها لكي يسهل التوصل الى اللوح المطلوب • وبالاستناد الى خبرة الذين سبقوهم في حل هذه المشكلات الصعبة كانوا يدركون أنه من الصعب عليهم التوصل الى اللوح المطلوب اذا لم يكن لهذا اللوح ما يحدد موضعه على رف من الرفوف • ولهذا فقد استفادوا من الخبرة المتراكمة من الأزمنة السابقة وقاموا بترتيب الألواح في مجموعات حسب نظام محدد بالضبط • فقد كان لكل لوح رقم يحدد موضعه في أية مجموعة ، بينما كان في وسع المهتمين أن يحددوا بواسطة الفهرس موضع كل لوح •

كان لكل لوح ما يشير الى مضمونه والى ناسخه وما شابه ذلك • وفي نهاية كل لوح نص منقوش بواسطة قالب أو خاتم : « لوح رقم ٠٠٠٠ في صف ٠٠٠٠ قصر آشور بانيبال، ملك العالم ، ملك بلاد الآشوريين » •

ويبدو أن كتب هذه المكتبة كانت تخدم دائرة واسعة من المتعلمين ، وبالدرجة الأولى أولئك الذين يدخلون القصر الملكي • فوجود المعاجم اللغوية المتعددة وكتب القواعد وما شابه ذلك من الكتب يدل في ذاته على كثرة تداولها ، الا أن ذلك لا يقودنا الى أن مكتبة آشور بانيبال كانت مكتبة عامة بالمفهوم الشائع في وقتنا هذا • وبعبارة أخرى لم يكن في وسع اي شخص أن يأتي ويستفيد مما هو متوافر في هذه المكتبة •

وأخيراً لقد أصبحنا نعرف لقب المنصب المهم لمدير هذه المكتبة : رب جرجيناكي rab girinakki ، بينما كانت المكتبة ذاتها تسمى جيرجيناكي girinakki وذلك نسبة الى اسم الخوابي الطينية التي كانت تحفظ فيها بعض الألواح الطينية • وبالاضافة الى ذلك

نعرف أنه في هـذه المكتبة كان يطبق نظـام تصنيفي وعلى هذا الأساس كانت توزع الألواح في رفوف المكتبـة ٠

بعد موت الملك آشور بانيبال جاء دور المكتبة أيضاً ٠ ففي سنة ٦١٢ ق٠م قام الملك الميدي كيازارس Kyaxares بتدمير نينوى من أساسها ٠ وحتى هذه المدينة لم يتم تجديدها ولذلك فقد تمكن العلماء من اكتشاف بقـايا مكتبـة آشور بانيبال كما قـد تركها الجيش الميـدي ٠

٧ ـ المكتبات الأخرى في الشرق الأوسط القديم :

تعرضنا حـتى الآن الى أهم المكتبـات المكتشفة في الشرق الأوسط القديم ٠ وتجدر الاشارة هنا ، لكيلا يستخلص القارىء صورة مشوهة عـن أهميـة الكلمة المكتوبة وتطـور المكتبات في تلك المنطقة ، الى أن عـدداً كبيراً من الشعوب التي تعاقبت هنا ، أو التي عاشت متجاورة في وقت واحـد ، قـد خلفت كتبـاً ومكتبات كثيرة الى حد يصعب فيه أن نذكرها فقط في هذا المجال ٠ ومن هنا سنكتفي فقط بذكر البعض منها ٠ ففي مدينة لاغاش Lagash السومرية مثلا التي نقب فيهـا أولاً القنصل الفرنسـي أرنسـت دي سرزيـه E. Serzec خلال ١٨٧٧ـ١٩٠٠ ، ثم بقية العلماء بعده، تم اكتشاف أكثر من ألف لوح طيني ٠ وفي مدينة شوروباك Shuruppak اكتشفت عدة مكتبات خاصة ، وفي بورسيبا Borsippa عثـر على مكتبة كبيرة في هيكل الاله بعل ٠ ومن المصادر التاريخية تعرف أن مدينة بابل الغنية كانت فيها مكتبات كثيرة ٠ ومن هذه نذكر على سبيل المثـال مكتبة أسـرة أغيبي Egibi الغنيـة ، بينما نقلت من هذه المدينة ألواح طينية كثيرة ورقائق جلدية الى مدينة نينوى خلال عهـد الملك سرجون الثاني (نهاية القرن الثامن ق٠م) وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت كثير من الألواح الطينية في بابل واستمرت هـذه المدينة غنية بالكتب حتى انهيارها خلال العهد الفارسي ٠ وفي مدينة أوروك Uruk كانت هناك المكتبة الشهيرة للملك الآشوري تيجلات بيلسر الثالث Tiglatpileser (القرن الثامن ق٠م) ، التي كانت تحتوي على ترجمات مـن الأكادية الى الآرامية والآشورية ، وكتب كثـيرة للقواعد ومعاجم أيضاً ٠ وفي هذه المكتبة كان يوجد لوح دونت عليه ملحمة جلجاميش ولوح آخر يتضمن حكاية عـن الفيضان الكبير الذي يغرق كـل العـالم ، وهو اللوح الذي طلبـه الملك آشوربانيبـال لكي يُنسخ ويُحفظ في مكتبتـه في نينـوى ٠ وكان هناك الكثير من أمثال هـذه المكتبات لأنه من بدايـة الكتابة حتى العهـد الفارسي كانت كل الشعوب في بلاد ما بـين النهرين تحظى بثقافة مكتبية غنية ٠ وفي هذه المنطقة كان الحكام الأقوياء والامبراطوريات والمدن الغنية بين مـد وجزر ، الا أن الكتاب كان هو الذي وحـد كل هذه في مجموعة كبيرة للشعوب المثقفة ٠ فملحمة جلجاميش وبقيـة النصوص الأدبيـة والمعرفية هي ملك لكـل الشعوب في تلك المنطقـة ، بغض النظر عـن الدين واللغة والأصل ٠ ولقد كانت الحروف المسمارية أيضاً تربط بين تلك الشعوب ، اذ ان غالبية تلك الشعوب كانت تستعمل هـذه الحروف بينمـا بقي البعض يستخدمها حتى القرون الأولى بعد الميلاد ! وفي الحقيقة لقد كانت هذه الحروف تتغير وتتطور نحو الأحسن ٠ ومع أن بعض الشعوب اتخذت لنفسها لاحقـاً أبجديات خاصة بهـا ، الا أن البداية بالنسبة الى الجميع كانت في الحروف المسمارية ٠

٨ ـ الطين كمادة للكتابة :

كنا قد ذكرنا أن السومريين وبقية الشعوب في الشرق الأوسط قد استخدموا على الأغلب الطين مادة للكتابة · وفي الحقيقة ان الفضل فيما نعرفه عن ثقافات الشعوب في الشرق الأوسط يعود الى مقاومة الطين للتأثيرات المناخية ، وبالتحديد الى صلابته ·

كانت تلك الشعوب تأخذ المادة الخام لصنع الالواح من ضفاف دجلة والفرات ، وكانت طريقة صنع تلك الألواح بسيطة للغاية · ففي البداية كان الطين يوضع في اناء مع الماء بغرض تصفيته بحيث تسقط الحصى والمواد الثقيلة الأخرى نحو الأسفل بينما يطفو على السطح القش وفتات الخشب وغير ذلك من الشوائب · وفي هذه الحالة كان يلقى ما يطفو على السطح بحيث كان يسهل أخذ الطين بعد فصله عما هبط منه نحو الأسفل · وعلى هذا النحو كان يتم الحصول على الطين النقي الذي كان يستعمل لصناعة الألواح · وكان في الامكان أيضاً العثور على الطين النقي، الجاهز للاستعمال، على ضفاف دجلة والفرات، حيث كانت تقوم هناك الطبيعة بتصفية الطين عوضاً عن الانسان كما رأينا سابقاً · فهنا أيضاً كانت تسقط الحصى نحو الأسفل بينما كان ماء النهر يجرف الشوائب في طريقه ، ولذلك فقد كان الطين مناسباً للاستعمال ولايحتاج الى أي تحضير · أما حجم الألواح الطينية فقد كان مختلفاً، من ٥ ـ ٦ سم الى ٢٥ ـ ٣٠ سم من حيث الارتفاع ·

كان الكتاب ينقشون الاشارات على الطين النقي ، ثم كانت توضع هذه الألواح تحت أشعة الشمس الى أن تجف · أما الألواح التي كانت تتضمن اتفاقيات تجارية هامة ووثائق للدولة وأعمالاً أدبية ومعاجم ، أو أي نص مخصص للاستخدام العام ، فقد كان يتم شيّه لحمايته من التشوه ·

كانت الألواح الطينية تحفظ في الخوابي الطينية أو كانت ترتب بعد ذلك على الرفوف· وكانت الألواح غير المشوية حين تتصل بالرطوبة، وهي ليست حالة نادرة ، تمتص كثيراً من الرطوبة مع مرور الوقت حتى تتحول ثانية الى طين طري · وقد سبب هذا متاعب كثيرة للعلماء أثناء الحفريات ، الا أنه اليوم لدينا وسائل فعالة جداً لانقاذ ألواح من هذا النوع· ولكن في الماضي كان يحدث من حين الى آخر أن تضيع الى الأبد بعض الألواح بسبب هذا ·

٩ ـ مكتبات أو مراكز للوثائق ؟

لقد استعملنا حتى الآن تعبير «المكتبات» حين كنا نتحدث عن مجموعات الألواح الطينية المكتشفة في مدن الشرق الأوسط ، وقد آن الأوان هنا لنتوقف عند هذا التعبير لكي نرى الى أي حد ينطبق على تلك المجموعات من الألواح الطينية · اننا في الوقت الحاضر نقسم النصوص المكتوبة الى مواد وثائقية (رسائل الحكام والكهنة والتجار، سجلات بيع وشراء البضائع، سجلات أصحاب الديون ، عقود بيع الاراضي الخ) والى مواد خاصة بالمكتبات اذا كان الأمر يتعلق بنصوص أدبية ومعجمية وبيطرية وقانونية الخ ، الا أن هذا التقسيم يصعب تطبيقه على الألواح الطينية المذكورة · ولكن مع وجود العدد الكبير من الألواح التي تتضمن

نصوصاً ادارية وما شابه ذلك فان تلك المجموعات من الألواح تجد مكانها في مركز الوثائق وليس في المكتبات • الا أن السومريين أنفسهم وغيرهم من شعوب الشرق الأوسط لم يهتموا كثيراً بالأمور التي ستحير المؤرخين لعدة آلاف من السنين : هل هذه مواد خاصة بمراكز الوثائق أو بالمكتبات ؟ ومن هنا فقد كانت كل الألواح حينئذ توضع في مكان واحد بغض النظر عن مضمونها ، الا أن هذا لم يكن يمنع تصنيفها الى مجموعات حسب الموضوعات التي تتضمنها • ولذلك يمكن لنا في أغلب الحالات أن نستعمل تعبير المكتبة كمرادف لمركز الوثائق ، أي مكتبة ومركز وثائق معاً • الا في الحالات الخاصة حين يتعلق الأمر بمركز للوثائق أو بمكتبة فقط •

١٠ ـ الفينيقيون :

في تاريخ الكتاب ، وبشكل خاص فيما يتعلق بالكتابة ، يحتل الفينيقيون فصلاً خاصاً ، وهم الذين تربطهم قرابة وثيقة بالأوغاريتيين • وقد كان الفينيقيون يسكنون منذ الألف الثالثة الشريط الساحلي الحالي لسورية ولبنان ، وأخذوا يمارسون التجارة منذ وقت مبكر جداً حتى أصبحوا مع مرور الزمن أشهر من مارس التجارة واختراق البحار في الأزمنة القديمة • وفي الواقع لقد أملى عليهم موقعهم الاستراتيجي أن يكونوا في مفترق الطرق للحضارات المتقدمة التي كانت تتطور في البلدان المحيطة بهم كمصر وبلاد ما بين النهرين وكريت وآسيا الصغرى • ومن موانئهم المعروفة بيبلوس وصيدا وصور وغيرها كانت تنطلق سفنهم التجارية السريعة الى كل أرجاء البحر الابيض المتوسط ، حتى خارج هذا البحر • وكان للفينيقيين عدد كبير من المراكز والمستوطنات التجارية ، التي كانت تضمن لهؤلاء البحارة المتازين التجول في البحار وممارسة التجارة الرابحة •

ومن هنا لا نستغرب أن يتوصل الفينيقيون بالذات ، وهم الذين اشتهروا كشعب عملي ، الى المبادرة في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد لوضع نمط جديد من الحروف أسهل وأفضل بكثير من تلك المسمارية والهيروغليفية وغيرها من الحروف التي تطورت في منطقة الهلال الخصيب • وفي الواقع أبدعت هذه المبادرة أبجدية جديدة بحروف مبسطة جداً لكل صوت ، وبالتحديد كانت هذه الأبجدية تتضمن ٢٢ رمزاً للتعبير عن الصوامت فقط • وبعبارة أخرى فان الفينيقيين ، كبقية الساميين ، لم تكن لديهم رموز خاصة للصوائت ، وهي التي أضافها اليونانيون فيما بعد عندما أخذوا لأنفسهم الأبجدية الفينيقية •

لقد اشتهر الفينيقيون منذ العصر القديم ، وبالتحديد منذ هيرودوت ، بكونهم هم الذين أبدعوا الأبجدية بعد أن نشروها في كل البلدان التي على البحر الأبيض المتوسط • ولكن لا بد أن نذكر هنا أن الفينيقيين ليسوا هم أول من توصل الى الحروف التي تعبر عن الأصوات ، اذ ان هذا النوع من الحروف قد ظهرت قبلهم بثلاثة أو أربعة قرون في الشرق الأوسط وشرق المتوسط • كنا قد أشرنا الى أن الأوغاريتيين قد استعملوا الحروف التي تعبر عن الأصوات ، كما أن هذه الحروف كانت معروفة في سيناء وغيرها • الا أن هذا لم يؤثر على الشهرة التي لحقت بالفينيقيين في تاريخ الكتابة لأن الفضل يبقى لهم في أنهم

هم الذين أبدعوا أبجدية جديدة ومبسطة ثم قاموا بنشر هذه الأبجدية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط • ويكفي هنا للتدليل على أهمية ذلك أن اليونانيين قد أخذوا هذه الأبجدية عن الفينيقيين ثم انتقلت بواسطتهم الى بقية الشعوب •

لقد لعب الفينيقيون أيضاً دوراً مهماً كتجار لورق البردي • فمنذ القرن ١١ ق٠م٠ كان الفينيقيون يشترون ورق البردي من مصر ثم يبيعونه لبقية الشعوب ولليونانيين أيضاً • ولقد كان ورق البردي الذي يشتريه اليونانيون يأتي غالباً عبر بيبلوس Byblos ولذلك فقد أطلق اليونانيون أولاً على ورق الكتاب ثم على الكتاب نفسه اسم بيبلوس Biblos ، أي نسبة الى هذه المدينة الفينيقية •

أما عن الكتاب والمكتبات عند الفينيقيين فنحن لا نعرف الا القليل • ففي وقت متأخر أخذ الكتاب يذكرون كتب التاريخ والكتب المقدسة المحفوظة في المعابد ومراكز الوثائق والمكتبات ، ولكنه لم يكتب الاستمرار لشيء من هذا • ولدينا هنا معطيات أكثر حول الكتاب في أهم مستوطنة فينيقية ، في قرطاجة التي تقع ضمن تونس حالياً • فقد كان للقرطاجيين مراكز للوثائق ومكتبات جيدة للغاية ، ويمكن للمرء أن يتعرف على مصير هذه بما خلفه الكتاب الرومانيون • وهكذا نجد أن الكاتب المطلع بلنيوس الكبير قد ذكر في كتابه Naturalis historia (١٨،٢٢) أن مجلس الشيوخ الروماني قد قام ، بعد أن تولى القائد سكيبون الافريقي سنة ١٤٦ ق٠م٠ الاستيلاء على قرطاجة وتدميرها ، بتوزيع الكتب على الحكام الافريقيين المجاورين الذين لم يعارضوا تقدم الجيش الروماني الفاتح • وقد كان من حظ روما أن يصلها كتاب الكاتب القرطاجي ماغوا Magoa عن الزراعة • وقد ترجم هذا الكتاب أولاً الى اللاتينية ثم الى اليونانية ، وقد أثر هذا الكتاب بشكل واضح في الأعمال المشابهة لتي كتبت لاحقاً في روما •

★ ★ ★

القابسي وفكره التربوي
بين الأصالة والتجديد

اعداد : د. محمود مصطفى حلاو

الطفل · جوهرة نفيسة ساذجة ، خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل نقش ، ومائل الى كل ما يُمال به اليه ، فان عوّد الخير وعلّمه نشأ عليه وسعد ··· وان عوّد الشر ···شقي وهلك ·

هكذا قال الغزالي في الاحياء (٣/ ٧٢) ، وهذا هو الأساس الذي بني عليه علماء النفس والتربية والاجتماع نظمهم التربوية ؛ فالانسان ابن بيئته ، وبقدر ما يُعطى يعطي · وهذه المقولة ، وان لم تجد تأييدا تاما من علماء قالوا · « بالفطرة » « والعوامل الوراثية » في بناء الانسان ، النفسي والتربوي والاجتماعي ، الا أنهم لم يستطيعوا انكار أهمية التربية والتعليم في هذا البناء الانساني ·

ان اعداد « المواطن الصالح » ، يعتبر هدفاً تربوياً تسعى اليه جميع النظم التربوية ، باختلاف مفاهيمها ومبادئها ، والأسس العقائدية التي تعتمد عليها فالجميع ينادون بهذا الهدف ، ويسعون اليه ، ويعملون على تحقيقه، لكن الاختلاف بين هذه النظم التربوية ينحصر في نقطتين أساسيتين هما : تعريف « المواطن الصالح » ، وبعبارة أدق : تحديد مفهوم « الصلاح » ، ثم الأسلوب أو الأساليب التي تعتمدها هذه الأنظمة لتحقيق هدفها ·

ولو رجعنا الى الفكر التربوي الأجنبي(١) ، لوجدنا ان المربين الانجليز ، يرون ان « المواطن الصالح » هو ذلك (الجنتلمان) الذي تسعى التربية الى اعداده ، بينما يرى الفرنسيون(٢) ان « المواطن الصالح » هو المواطن المثقف ثقافة عامة ، يستطيع بها أن يكون رجل مجتمع أو رجل صالونات · أما علماء التربية الأميركيون فيرون « المواطن الصالح » ، ذلك المواطن المثقف ثقافة تقنية ، تؤهله ليلعب دوراً ما في الآلة الأمريكية ، أي في المجتمع التقني الأمريكي ·

أما في المجتمعات الشيوعية ، فنرى أن « المواطن الصالح » هو المواطن المؤمن بالعقيدة الشيوعية ، والعامل بأحكامها(٣) ٠

ومهما اختلفت النظريات التربوية في العالم ، فان الفكر السياسي – الاجتماعي ، الذي يسود أي مجتمع ، يطبع الفكر التربوي لهذا المجتمع بطابعه الخاص المميز(٤) ٠

واذا ما وصلنا الى علماء المسلمين ، لنسألهم عن تعريف « المواطن الصالح » وجدنا أنه هو « المسلم الصالح »(٥) ٠ فالتعليم في الاسلام نشأ وترعرع في أوساط الفقهاء ، ولا نكاد نجد نظريات وآراء تربوية اسلامية الا ضمن الكتابات الفقهية(٦) ، وما هو القابسي ينهض دليلا على ذلك ، فيرى أن المسلم الصالح تحدده أربع مواصفات هي : الايمان والاسلام والاحسان والاستقامة ؛ وهي مستمدة من حديثين شريفين ، أوردهما مسلم والبخاري ، الأول حديث الايمان : « كان رسول الله ﷺ ، بارزاً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الايمان ؟ فقال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر ؛ قال : يا رسول الله ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ؛ قال : يا رسول الله ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ... الى آخر الحديث ٠

والثاني حديث الاستقامة : « ... قل آمنت بالله ثم استقم ٠ »

لذلك فالكلام على التربية الاسلامية يطول ويتشعب نظراً لطول المدة ٠ التي دام فيها الحكم الاسلامي ، ونظراً لاتساع رقعة الدولة الاسلامية أيضاً ٠ لذا كان لا بد لنا قبل التطرق الى موضوع البحث من الاشارة الى النقاط التالية :

أولا : بما أن التربية ، حسب تعريف العلماء ، هي عملية تعديل السلوك ؛ والتعليم، هو اكساب المعرفة ، أو تهيئة الظروف المناسبة لاكتساب المعرفة(٧) ؛ وبما أن التربية التي نعنيها هنا تهتم بالانسان مباشرة(٨) ، لذا ، نرى لزاماً علينا تجنب استخدام عبارة التربية الاسلامية بمفهومها المطلق ، على مجموعة المفاهيم والأفكار والآراء التربوية ، التي برزت في العصور الاسلامية كافة ٠ ذلك لأن هذه الأفكار التربوية التعليمية ، اعتمدت على عوامل عدة أهمها : الزمان ، والمكان ، والبيئات الاجتماعية ، والأهداف التي يرجى تحقيقها ، والمذهب الفكري الذي انبثقت عنه هذه الأهداف ٠ وهذا يعني أن أهداف التربية لدى الفلاسفة ، تختلف عما هي عليه لدى المتصوفة أو لدى الباطنية ، أو لدى أهل السنّة والجماعة ٠ كذلك اختلفت في المشرق عما كانت عليه في المغرب ، وفي بيئة الحجاز عن الشام وفارس وغيرها ، وذلك من حيث مواد الدراسة ، وأسلوب التدريس ، والقائمون بالتدريس وغير ذلك(٩) ٠

كما أن التربية في العصور الاسلامية المتأخرة اختلفت عما كانت عليه في العصور الاسلامية الأولى ٠ ولو أردنا أن نمعن في التمييز لقلنا : ان التربية في عصر الخلفاء الراشدين اختلفت عما أصبحت عليه في العصر الأموي ، وكذلك عما أصبحت عليه في العصر

العباسي أو العصر المملوكي • ويكفي أن نقلب صفحات كتب العلماء الذين كتبوا في التربية والتعليم بطريقة مباشرة لنتحقق مما سبق ذكره •

ثانياً : اننا في كلامنا هذا ، سنحاول الابتعاد عن مقارنة التربية الاسلامية بالتربية الغربية ، نعني بهذا اننا لن نبحث عن دعائم تربوية غربية للتربية الاسلامية لاثبات مصداقيتها ، حيث اننا نؤمن أن لهذه التربية الاسلامية أسساً ومبادىء خاصة بها ، وان مصداقية التربية الاسلامية تكمن في اعتمادها على مصدرين رئيسيين من مصادر التشريع الاسلامي ، نعني بهما : القرآن الكريم والسنّة المطهرة •

ثالثاً : ان مفهوم الحداثة في التربية الغربية لا ينطوي بالضرورة على أفكار متقدمة ومتطورة ، كما ان مفهوم القدم في التربية لدى المسلمين لا ينطوي بالضرورة أيضاً على أفكار متأخرة أو غير متطورة ، بل ان التربية الحديثة هي حديثة زمنياً فقط ، والتربية الاسلامية قديمة زمنياً فقط ، فلا حداثة التربية الغربية تجعلها متطورة ومتقدمة ومفضلة ، ولا قدم التربية الاسلامية يجعلها متأخرة وضعيفة ومرفوضة ؛ فكم من قديم فاق حديثاً ، وكم حديث تأخر عن قديم •

وتجدر الاشارة هنا ، اننا في وقتنا الحاضر ، نتعرض لمفاهيم وتيارات تربوية مختلفة، بل متناقضة أحياناً ، لم تثبت صلاحيتها لكل المجتمعات ، بل وأكثر من ذلك ، فقد تراجعت عن بعض هذه المفاهيم التربوية مجتمعات كانت قد تبنتها سابقاً • فعلماء التربية في الولايات المتحدة الذين أيدوا ونادوا باعطاء الحرية الكاملة والمطلقة للطفل ، لكي يعمل على هواه ، ويتصرف بملء ارادته وحريته مطلقاً لرغباته ونزعاته العنان ، بدأوا يتراجعون عن هذه الأفكار ، نظراً للآثار السلبية التي تركتها في المجتمع الأمريكي عامة، وفي العلاقات الانسانية لديهم خاصة(١٠) •

الأصالة في الفكر التربوي الاسلامي :

١ ـ المعرفة والسلوك :

سبق أن عرّفنا التربية بأنها عملية تعديل السلوك(١١) • أما أساس هذا التعديل في الاسلام ، فهو المعرفة الدينية ، التي لا تكون الا مقترنة بالعمل ، حيث ان اقتران المعرفة بالعمل في الاسلام ، أو بشكل أدق ، ان اقتران المعرفة بالعمل بمقتضاها ، يعتبر ضرورة اسلامية لا يمكن تجاهلها أو التهاون فيها(١٢) ؛ فثمرة المعرفة تظهر في سلوك الانسان ، في حياته • « فلو قرأ رجل مائة ألف مسألة عملية وتعلمها ، ولم يعمل بها لا تفيده الا بالعمل »(١٣) •

ولما كانت المعرفة اسلامية ، فالقول والعمل يجب أن يكونا مطابقين لشرع الله تعالى، اذ « العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة »(١٤) •

وليس ذلك فحسب ، بل ان العمل يجب أن يكون مبنياً على العلم ، كما ان العلم بدون

عمل غير مقبول في الاسلام : فليس العلم مطلوباً لذاته ، بل للعمل بمقتضاه • وقد قال تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً)(١٥) • وقال أيضاً : (وأن ليس للانسان الا ما سعى)(١٦) فالعمل ضرورة شرعية ،ولا يمكن أن يكون بغير علم : وعليه ، فان تلازم العلم والعمل كتلازم الغاية والوسيلة ،لا يستقيم أحدهما بدون ملازمته للآخر • وقد قال الغزالي في ذلك : (العلم بلا عمل جنون ،والعمل بغير علم لا يكون)(١٧) •

ولا يعتبر المسلم مؤمناً الا اذا كان عمله موافقاً لاعتقاده • فالعقيدة الاسلامية ترتكز على أركان الاسلام الخمسة وصدق الايمان يرتكز على العمل بموجبه ، فقد قال رسول الله ﷺ : (ليس الايمان بالتمني ،ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل) •

وبهذا يكون الاسلام ، من خلال أصوله وعلمائه ، قد أكد مبدأ تربوياً رئيساً ، ألا وهو تعديل السلوك الانساني ، اعتماداً على الفكر التربوي المبني على أسس عقائدية • وقد سعت معظم الأنظمة الى ذلك ، وما زالت تسعى جاهدة ، لتأصيل العمل على أساس من الفكر الذي تنادي به • فالمعيار الحقيقي هو العقيدة،وبها يقاس العمل ، قربه أو بعده عنها ، وبالعمل وحده يقاس صدق الاعتقاد أو كذبه •

واذا عدنا الى مفهوم الاستقامة في الاسلام ، والتي هي من مقومات الصلاح ، ومن صفات المسلم الصالح ، الذي تهدف التربية الاسلامية الى اعداده ، لرأينا انها لا تبعد عن العمل أبداً ، فهي القيام بما أمر الله ، كمايقول القابسي(١٨) •

ويبدو أن مفهوم العمل الذي تنبثق عنه كلمة الاستقامة ، مأخوذ من قوله تعالى : (فاستقِمْ كما أُمِرْتَ ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير)(١٩) •

٢ ـ التطلع الى الماضي :

يعتبر التطلع الى الماضي ظاهرة اجتماعية عامة ، تبرز لدى كثير من الشعوب ، قديمة كانت أو حديثة ، مهما اختلفت بيئاتها وأزمنتها • وقد يصبح التطلع الى الماضي تعلقاً به وبكل ما جاء فيه ، ورفضاً للحاضر وكل ما يظهر فيه ؛ أو يكون الأمر نقيض ذلك فيرفض القديم لقدمه ، ويستحسن الحاضر لحداثته • وهناك من يقف موقفاً وسطاً ، فلا ينظر الى الماضي بعين الجلالة لتقدمه ، ولا الى الحاضر بعين الاحتقار لتأخره ، بل ينظر بعين العدل للماضي والحاضر ، للاستفادة من أفضل ما فيهما ، من علم وخير ومنفعة ؛ فالأصالة والتحديث هما وجهان لعملة واحدة ،الوجه الأول هو باطن البناء الاجتماعي ، والوجه الثاني هو ظاهره •

آراء القابسي في التربية والتعليم :

القابسي : هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي ، المعروف بابن القابسي(٢٠) ، امام في الحديث ومتونه وأسانيده وجميع ما يتعلق به ؛ فقيه ، شيخ المالكية، صالح تقي ورع ، وكان ضريراً(٢١) •

ولد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة في قابس(٢٢) ، ورحل الى الشرق سنة اثنتين

وخمسين ، فحج وسمع كتاب البخاري بمكة ،ثم رجع الى القيروان سنة سبع وخمسين ، وبقي فيها الى أن تُوفي سنة ثلاث وأربعماية ٠صنف القابسي تصانيف فائقة في الأصول والفروع منها : « المهمَّد في الفقه » ، « والمنقذمن شُبَه التأويل » « وملخَّص الموطأ »(٢٣)و « الرسالة المفصَّلة لا حوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين »(٢٤) وغيره من كتب الفقه والحديث ٠

واذا نظرنا الى القابسي من خلال رسالته « المفصلة لا حوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » ، وجدناه صاحب رأي واجتهاد ،يرفعانه الى درجة كبار المربين ، ولا سيما اذا عرفنا انه عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ، وهو العصر الذي يعتبر أسوأ عصور الظلام والتأخر من الغرب ٠

ويمكننا تقسيم آراء القابسي التربويةالى مجموعة عناصر رئيسة هي :

آ ــ الزامية التعليم ٠
ب ــ المعلم ٠
ج ــ العملية التعلمية ٠
د ــ المتعلم ٠
هـ ــ الاشراف والتوجيه ٠

آ ــ الزامية التعليم :

يقرر القابسي حق الطفل في التعلم ، ذكراً كانأو أنثى، ويؤكد أن على وليأمرهأن يرسله الى الكتّاب ، أكان هذا الولي والداً ،أو أمّاً ، أو وصياً ، أو جماعة المسلمين ، أو السلطان ٠ ويقول : « لوظهر على احد انهترك أن يعلّم ولده القرآن تهاوناً بذلك ، لجهّل وقُبِّح ، ونُقِّص حاله ، ولكن قديخلف الآباء عن ذلك ، قلة ذات اليد ، فيكون معذوراً حسب ما يتبين من صحة عذره ٠

وأما ان كان للولد مال ، فلا يدعه أبوهأو وصيه ــ ان كان قد مات أبوه ــ وليدخل الكتّاب ، ويؤاجر المعلم على تعليمه القرآن منماله حسب ما يجب ؛ فان لم يكن لليتيم وصي ، نظر في أمره حاكم المسلمين ، وسار في تعليمهسيرة أبيه أو وصيه ٠ وان كان ببلد لا حاكم فيه ، نظر له في مثل هذا ، لو اجتمع صالحوذلك البلد على النظر في مصالح أهله ؛ فالنظر في هذا اليتيم من تلك المصالح ٠ وان لم يكنلليتيم مال ، فأمه أو أولياؤه الأقرب ، وهم المرغمون في القيام به في تعليم القرآن ، فانتطوع غيرهم بحمل ذلك عنهم فله أجره ٠٠٠

وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم ، فهوحسن ودن مصالحها ، وانما تعلّم ما يرجى لها صلاحه ، ويؤمن عليها من فتنته »(٢٥) ٠

ب ــ المعلم :

١ ــ وظيفة المعلم :

لما كانت عملية التربية والتعليم في الأساس ، تعتبر واجباً على الآباء تجاه أبنائهم ، يقومون هم به ، وكانت متطلبات الحياة قدحالت دون قيامهم بهذا الواجب ؛ لذا كان لا بد

لهم من اتخاذ معلم ، كما يقول القابسي ،« يكفيهم تعليم أولادهم ، ويلازمهم لهم، ويكون هذا المعلم قد حمل عن آباء الصبيان مؤونة تأديبهم ، ويبصِّرهم باستقامة أحوالهم ، وما ينمي في الخير افهامهم ، ويبعد عن الشر ما لهم »(٢٦) ٠

٢ ـ راتب المعلم :

ان مسؤولية تربية الأولاد وتعليمهم تقع مباشرة على عاتق الآباء ، خاصة في مرحلة الطفولة ، ولم يستأجر الآباء معلمين للقيام بهذا الدور في العهد الاسلامي الأول ٠ ولكن انشغال الآباء عن القيام بهذا العمل ، اما لأنهم لا يطيقونه ، أو للضرورات الاجتماعية ، جعلهم يتخذون لأولادهم معلماً ، يختص بهم ويرعاهم ٠ يقول القابسي : « ولما بعُد أن يوجد من الناس من يتطوع للمسلمين ، فيُعلِّم لهم أولادهم ويحبس نفسه عليهم ، ويترك التماس معايشه ، صلُح للمسلمين من يكفيهم تعليم أولادهم ، ويلازمهم لهم ، ويكتفي بذلك عن تشاغله بغيره ، ويكون هذا المعلم قد حمل عن آباء الصبيان مؤونة تأديبهم(٢٧) ٠

ثم يضيف القابسي قائلا: « وقد اجتمعت الروايات على أن للمعلم حصته بمقدار ما علَّم »(٢٨) ٠ لذلك يجب أن يكافأ ويكارم اذا كان الغلام يتهجى تهجياً حسناً ، ويخط خطاً جميلا ، ويكتب ما يُملى عليه ، ويقرأ نظراً أما أمر بقراءته ٠ فأما اذا لم يحسن الهجاء ، ولم يحكم الخط ، ولم يقرأ شيئاً نظراً ، فلا يجب للمعلم في ذلك شيء ، بل يجب عليه التأنيبَ والتعنيف(٢٩) ٠ ويضيف القابسي قائلا : « فان اعتذر ببله الصبي ، واختُبِر فوجد لذلك لا يحفظ ما علِّم ، ولا يضبط ما فُهِّم ، فلم يحصل لهذا المعلم الا اجارة حوزه وتاديبه ، لا اجارة التعليم »(٣٠) ٠

أما كيفية دفع أجرة المعلم، وهي ما يعرف اليوم بالأقساط ، فقد ترك القابسي أمرها للاتفاق المعقود بين المعلم وولي أمر الصبي ،طالما ان هذه العملية خاضعة لشروط يتفق عليها الطرفان ٠ لذا قال القابسي : « لا بأس أن يقدم الرجل الى معلم الكتَّاب حقه قبل أن يدخل الصبي ؛ ولا بأس أن يستأجر الرجل المعلم على أن يعلم القرآن بأجر معلوم ، الى أجل معلوم ، أو كل شهر ؛ ولا بأس في اجارة المعلمين سنة بسنة »(٣١) ٠

٣ ـ تفرغ المعلم للتعليم :

يرى القابسي أن اشتغال المعلم بتعليم الصبيان ورعايتهم ، يقتضي منه تفرغاً كاملا لهم ، بحيث لا ينشغل عنهم بأمور أخرى ، خاصة وهو يقوم بتدريسهم ؛ كما لا يجوز التشاغل عنهم ولو عوّض لهم ما أضاعه من وقت أثناء انشغاله، حتى ولو كان ذلك لحضور جنازة ، أو عيادة مريض ٠ أما اذا مرض المعلم، فعليه أن يستأجر معلماً آخر يحل محله أثناء مرضه ، على أن يكون بمثل مقدرته في رعاية الصبيان ٠

ويقول القابسي في ذلك : « ولا يجوز للمعلم أن يشتغل عن الصبيان الا أن يكونوا في وقت لا يَعرضهم فيه ، فلا بأس أن يتحدث ،وهو في ذلك ينظر اليهم ويتفقدهم ٠ وليلزم المعلم الاجتهادَ ، وليتفرغ لهم ٠٠٠

ولا يجوز له الصلاة على الجنائز ، الا مالا بد له منه ، لأنه أجير ، لا يدع عمله ويتبع الجنائز وعيادة المرضى • قيل : فهل ترى يكتب العلم له أو للناس ؟ فقال : أما في وقت فراغه من الصبيان ، فلا بأس ، وأما ما داموا حوله ،فلا أراه يجوز له ذلك •

وكذلك اذا مرض أو كان عليه شغل ،فهو يستأجر لهم من يكون فيهم بمثل كفايته لهم ، اذا لم تطل مدة ذلك ، فان طالت ، فلآباء الصبيان في ذلك نظر ومُتكلَّم •

وكذلك ان هو سافر ، فأقام من يوفيهم كفايته لهم ، ان كان سفراً لا بد منه ، قريباً اليوم واليومين وما أشبههما ، فيستخف ذلك انشاء الله وليس له أن يعتاد التشاغل ، حتى يلجئه الى العوض ، لأن ذلك يضر بالصبيان(٣٢) •

٤ ـ تعاون المعلمين في التعليم :

قد يجتمع في الكتّاب عدد كبير من الصبيان ، لا يستطيع معلم واحد أن يقوم برعايتهم وتعليمهم ؛ أو قد يحتاج المعلم الى معلم آخر ،يساعد في تدريس بعض المواد التي لا يجيدها هو • وقد رأى القابسي جواز ذلك ، تحقيقاً لفائدة الصبيان ، وحرصاً على مصلحتهم •

لكن تعاون أكثر من معلم في كتّاب واحد، قد يولد مشكلة اختلاف أو مساواة الأجر بين المعلمين ؛ وتجنباً لهذه المشكلة ، نرى القابسي يقرر مساواة الاجارة بين المعلمين ، اذا تساووا في العلم ؛ أما اذا اختلفوا في ذلك ، فتكون الاجارة متفاضلة على قدر علم كل واحد منهم •

يقول أبو الحسن القابسي : « وأما شركة المعلمين والثلاثة والأربعة فهي جائزة ، الا اذا كانوا في مكان واحد ، وان كان بعضهم أجود تعليماً من بعض ، لأن لهم في ذلك ترافقاً وتعاوناً ، ويمرض بعضهم ، فيكون السالم مكانه حتى يفيق المريض • واذا لم يكن بين المعلمين شيء من الاختلاف، فهذا لا يوجب التفاضل بين أجرتيهما اذا اشتركا ، وتكون الاجارة بينهما على قدر علم كل واحد منهما »(٣٣) •

جـ ـ العملية التعليمية :

١ ـ مواد التدريس :

ترتبط مواد التدريس ارتباطاً مباشراً بثقافة العصر ومتطلباته ، كما ترتبط بقدرة الصبي على الفهم والاستيعاب •

ثم ان هدف التربية هو نقطة الارتكاز في العملية التربوية ، وعلى ضوئه يتم تقرير المواد الدراسية(٣٤) •

ولما كانت التربية الاسلامية تهدف ، كما سبقت الاشارة ، الى اعداد المسلم الصالح ، كان لا بد للصبي من تعلم قراءة القرآن ، نظراً أو استظهاراً ، كما يتعلم الكتابة والاملاء • وليس هذا فحسب ، بل يضاف الى ما سبق ،تعلم بعض العلوم الأخرى ، التي تنفع الصبي وتعينه على الفهم •

وقد ذكر القابسي بعض هذه العلوم قائلا: « وينبغي للمعلم أن يعلمهم (الصبيان) الحساب ، ... والغريب والعربية ، وجميع النحو ... ولا بأس أن يعلمهم الشعر ، مما لا يكون فيه فحش ، ومن كلام العرب وأخبارها»(٣٥) .

كذلك نرى القابسي عندما يجيز تعليم الفتاة يقول : « وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم ، فهو حسن ومن مصالحها »(٣٦) ، دونما تحديد لهذا العلم ، بل يربطه بكل ما يصلح لها في دنياها وآخرتها .

وهكذا يكون القابسي ، قد ترك باب العلم مفتوحاً على مصراعيه ، لينهل منه الصبي والفتاة ، في كل زمان ومكان ، ما فيه خيرهما ومصالحهما .

٢ ـ طريقة التدريس :

تعتمد طريقة التدريس عند القابسي على فهم واستيعاب الصبي كل ما يتلقاه ، وليس فقط على استخدام الذاكرة في حفظ القرآن غيباً .

ويعتمد أيضاً التدرج في التدريس ، بحيث لا ينتقل الصبي من موضوع الى آخر ، الا بعد أن يستوعبه بشكل واع . فهو يقرر أن« من الاجتهاد للصبي الا ينقله (المعلم) من سورة ، حتى يحفظها باعرابها وكتابتها »(٣٧)، وذلك حتى ترسخ في نفسه رسوخاً كاملا ، فلا ينساها بسرعة على مر الأيام . فحفظ السور باعرابها ، دليل معرفة مواقع الكلم ، وارتباطها بعضها ببعض . ثم ان كتابة هذه السور بآياتها ، تركز في الذاكرة شكل كل كلمة من هذه الكلمات ، بحيث يسهل استرجاعها بأقل ما يمكن من الخطأ .

كذلك نرى القابسي لا يقرر طريقة محددة لتعليم الصبيان ، بل يترك الأمر لاجتهاد المعلم ، لينظر في الأسلوب الأفضل لتعليم صبيانه . فمن الممكن أن تنجح طريقة ما في تعليم عدد من الصبيان ، ولا تنجح في تعليم عدد آخر، نظراً لتباين المستوى الفكري ، أو القدرة الاستيعابية لهؤلاء الصبيان . لذا يقول القابسي : « وسألت هل للصبيان الصغار ، أو الكبار البالغين ، أن يقرأوا في سورة واحدة ، جماعة على وجه التعليم ؟ فان كنت تريد أن يفعلوا ذلك عند المعلم ، فينبغي أن ينظر فيما هو أصلح لتعليمهم ، فليأمرهم به، ويأخذ عليهم فيه ، لأن اجتماعهم في القراءة بحضرته ، يخفي عنه قوي الحفظ من الضعيف ، ولئن كان على الصبيان من ذلك خفة ، فيخبرهم أنه سيعرض كل واحد منهم في حزبه ، فيؤدبه على ما كان من تقصير .

وسألت عن الختمة متى تجب للمعلم ، وكيف يكون حال الصبي في حفظه ، وقراءته ، فيستوجبها المعلم ... فهي على وجهين :أحدهما أن يستظهر القرآن حفظاً من أوله الى آخره ، فهذا الذي تجب له الختمة ، وتكون على قدر ما فهمه الصبي ، مما علمه المعلم ، مع استظهاره للقرآن ، والوجه الآخر أن يكون الصبي استكمل قراءة القرآن في المصحف نظراً، لا يخفى عليه شيء من حروفه ، مع ما فهمه الصبي ، مما ينضاف الى ذلك من ضبط الهجاء ، والشكل وحسن الخط(٣٨) .

٣ ـ التقويم المستمر :

يعتبر الامتحان وسيلة من وسائل التأكدمن حسن استيعاب الصبي للمواد الدراسية التي تلقاها أثناء الدراسة على يد معلمه(٣٩) ولما كان القابسي قد قرر أن على المعلم ألا ينقل الصبي من سورة الى أخرى حتى يحفظها باعرابها وكتابتها ، فانه ألزم المعلم باجراء امتحان دوري أسبوعي للصبيان ، وهو ما يسميه في رسالته المفصلة لأحوال المتعلمين ، بالتفقد والعرض ، خلال وقت معلوم محدد ، فيقول :وعليه (المعلم) أن يتفقدهم (الصبيان) بالتعليم والعرض ، ويجعل لعرض القرآن وقتاً معلوماً ، مثل عشية الأربعاء ، ويوم الخميس(٤٠) .

د ـ المتعلم :

١ ـ أسلوب التعامل مع الأطفال :

ان أسلوب التعامل مع الأطفال في المدرسة ، يعتبر حجر الزاوية في علم النفس التربوي(٤١) ، ولهذا تعمل الجامعات ، ومعاهداعداد المعلمين جاهدة ، لتزويد طلابها بأكبر قدر ممكن من المعلومات والخبرات ، التي تساعدهم في انجاح عملهم ؛ وكلما كانت العلاقة بين المعلم والطفل ايجابية ، كلما زاد تعلق الطفل بالمدرسة والدراسة . ولا داعي لذكر أمثلة على ذلك ، فكل واحد منا يصح أن يكون مثلا صادقاً .

ويبين لنا أبو الحسن القابسي في رسالته المفصلة لأحوال المتعلمين ، آراءه واجتهاداته في أسلوب تعامل المعلمين مع الصبيان ، في الكتّاب وأثناء الرعاية لهم ، فيقول : الواجب على المعلم الاجتهاد حتى يوفي ما يجب عليه للصبيان ، فان وفى ذلك يطيب له ما يأخذه على التعليم بشرط . ونظره فيمن التزم النظر لهمن الصبيان رعاية يدخل بها في قول الرسول ﷺ : (كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته) . ومن حسن رعايته لهم ، أن يكون بهم رفيقاً ، وقد قال رسول الله ﷺ : ان الله يحب الرفق في الأمر كله ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء) .

واذا أحسن المعلم القيام ، وعني بالرعاية ، ووضع الأمور مواضعها ، لأنه هو المأخوذ بأدبهم ، والناظر في زجرهم عما لا يصلح لهم ، والقائم باكراههم على مثل منافعهم ، فهو يسوسهم في كل ذلك بما ينفعهم ، ولا يخرجهم ذلك من حسن رفقه بهم ، ولا من رحمته اياهم ، فانما هو لهم عوض آبائهم . فكونه عبوساً أبداً من الفظاظة الممقوتة ، ويستأنس الصبيان ، فيجترئون عليه ... وينبغي له ألا يتبسط اليهم تبسط الاستئناس في غير تقبّض موحش في كل الأحايين ، ولا يضاحك أحداً منهم على حال ، ولا يبتسم في وجهه ، وان أرضاه ولكنه لا يغضب عليه ، فيوحشه اذا كان محسناً .

واذا استأهل الضرب ، فاعلم ان الضرب من واحدة الى ثلاث ، فليستعمل اجتهاده ، لئلا يزيد رتبة فوق استئهالها . وهذا هو أدبه اذا فرط ، فتثاقل عن الاقبال على المعلم ، وتباطأ في حفظه ، أو أكثر الخطأ في حزبه ، أو في كتابة لوحه ، فالتنبيه مرة بعد مرة ، ثم

التقريع بالكلام الذي فيه التواعد من غير شتم ولا سب عرض ؛ وانما تجري الألفاظ القبيحة من لسان التقي لتمكّن الغضب من نفسه ،وليس هذا مكان الغضب ، وليس لمعلم في ذلك شفاء من غضبه ، ولا شيء يريح قلبه من غيظه ، وهذا ليس من العدل ؛ فان اكتسب الصبي جُرماً من أذى ولعب وهروب من الكتّاب ، وادمان البطالة ، فينبغي أن يستشير أباه أو وصيّه ان كان يتيماً ، ويُعلمه بجرمه اذا كان يستأهل من الأدب فوق الثلاث ، فتكون الزيادة على ما يوجبه التقصير في التعليم ،عن اذن من القائم بأمر هذا الصبي ، ثم يزاد على الثلاث ما بينه وبين العشر ، اذا كان الصبي يطيق ذلك • وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم الى التأثير المشنع أو الوهن المضر • وليتجنب أن يضرب رأس الصبي أو وجهه ، فالضرب في الرجلين آمن ، وأحمل للألم في سلامة(٤٢) • ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم ، ولا يفضل بعضهم على بعض وان تفاضلوا في الجعل(٤٣) •

تتلخص آراء القابسي في أسلوب التعامل مع الأطفال بالنقاط التالية :

١ ـ شعور المعلم بمسؤوليته تجاه الصبيان •

٢ ـ حُسن رعايتهم واعتماد الرفق والرحمة بهم أساساً للتعامل معهم •

٣ ـ ألا يكون المعلم عبوساً فظّاً ، ولا متبسطاً ضاحكاً دائماً •

٤ ـ ألا يغضب ولا يغتاظ •

٥ ـ أن يستعمل التدرج في العقاب اذا أخطأ الصبي ، فيبدأ بالتنبيه ثم العزل ، ثم التقريع بغير كلام موحش ، ثم الضرب اذا لزم الأمر •

٦ ـ أن لا يتعدى الضرب حدود الألم الى التأثير المشنع أو المضر •

٧ ـ أن يتشاور مع ولي أمر الصبي اذا كرر الخطأ أو أمعن فيه •

٨ ـ أن يعدل بين الأطفال في التعليم ، ولا يفضل بعضهم على بعض •

كذلك نود أن نشير هنا الى أن القابسي كان يرى ضرورة فصل الذكور عن الاناث في الكتّاب ، ويعتبر هذا الفصل من حسن الرعاية خوفاً على فساد الأناث •

وكأن القابسي بهذا كان يرى أن اختلاط الذكور بالاناث في مكان واحد ولمدة طويلة ، وحيث يمكن أن يصل عمرهم الى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، يرى أن هذا الاختلاط فيه ضرر على الاناث وفساد لهن ،وكأنه يريد أن يقول : ان مرحلة المراهقة تبدأ عند الاناث في مثل هذا العمر ، ولذا فهو يقرر أن من صلاحهم (المعلمين) ومن حسن النظر لهم (الأطفال) ألا يخلط بين الذكران والاناث لأن ذلك فساد لهن(٤٤) •

كما يمكن أن يُفهم من خلال هذا النص ،ان التعليم المختلط في الكتاتيب كان موجوداً ، دونما تحديد لدرجة انتشاره في البلدان الاسلامية في ذلك الوقت •

٢ ـ العطل وأوقات الراحة :

يعتبر القابسي أن عطلة نهاية الأسبوع فرصة جيدة لتجديد نشاط الأطفال والمدرسين على السواء ، ولا يرى بأساً في استمرارها ، خاصة وانها أصبحت عُرفاً وسُنَّة ، جرى عليها الناس ، حتى أضحت حقاً مكتسباً للمعلمين ، والمتعلمين دون أن يعيبها عليهم أحد.

أما مدتها فهي من عصر يوم الخميس حتى صباح يوم السبت ؛ كذلك فان العطل أيام المناسبات والأعياد لا بأس فيها ، لأنها أصبحت عرفاً مشهوراً ، ووافق الناس عليها ٠

ولا يجوز للمعلم تعطيل الدراسة في الكتّاب في غير ما ذكرنا ، الا بموافقة ورضى الآباء. يقول القابسي : وأما بطالة الصبيان يوم الجمعة ، فذلك سُنَّة المعلمين مذ كانوا ، لم يُعَب ذلك عليهم ٠٠٠ وما كان الناس قد عملوا به ، وجروا عليه فهو كالشرط ٠

وأما تخلية الصبيان يوم الخميس من العصر ، فهو به أيضاً يجري عرف الناس ، اذ كان قد عرف ذلك من شأن المعلمين ، فهو كما عرف من شأنهم في يوم الجمعة ... ثم ينصرفون الى يوم السبت ، يبكرون فيه الى معلمهم ، وهذا حسن نافع رفيق بالصبيان وبالمعلمين لا شطط فيه ٠ وكذلك بطالة الأعياد أيضاً ، على العرف المشتهر المتواطأ عليه ٠٠٠ وأما في غير ذلك فلا يجوز الا باذن الآباء(٤٥) ٠

هـ ـ الاشراف والتوجيه :

لم يكن في عصر القابسي ، أي في القرن الرابع الهجري ، ما يسمى بجهاز التوجيه التربوي ، لمتابعة وتقويم وتوجيه عمل المدرسين ٠ لكن مثل هذه المسؤولية لم تكن لتلقى جانباً ، نظراً لأهميتها وارتباطها بتنشئة الجيل ، واعداد المسلم الصالح ٠

فقد قام الفقهاء بمثل هذا الدور ، من حيث محاسبة المعلم على تقصيره في عمله ، حتى وصل الأمر بهم الى منع المعلم من متابعة عمله ، ان كان لا يحسن التعليم ، لأنه بهذا يكون فرّط فيما وليَه من عمل ٠

وقد ترك الفقهاء والعلماء للامام الحاكم مسؤولية انزال العقوبة على المعلم المقصر لتقصيره في عمله ، بدءاً باللوم ، وانتهاء بالفصل من التعليم ، واعتبروا ذلك من صدق عدل الامام ؛ ولهذا يقول القابسي : وان كان(المعلم) لا يحسن ، فقد غرَّر ، ورأى العلماء ان مثل هذا المعلم يستأهل الأدب لتفريطه فيما وليه ، وتهاونه بما التزمه ، وأن يمنع من التعليم ، وهو صواب ، اذا كان شأنه التفريط أو الغرور بتعليمه ، وهو لا يُحسن ٠ ورأى بعضهم أن مثل هذا المعلم لا يستأهل الاكرام ، بل يستأهل اللوم ، والتعنيف ، والغلظة ، والتأنيب من الامام العادل ٠ فان اعتذر المعلم ببله الصبي ، واختبر الصبي فوجد لذلك لا يحفظ ما علّم ، ولا يضبط ما فهّم فلم **يحصل لهذا المعلم الا اجارة** حوزه وتأديبه ، لا اجارة التعليم(٤٦) ٠

ونستنتج مما ذكرناه من آراء وردت في رسالة القابسي المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، ان هذه الرسالة تثبت أن المسلمين ابتكروا في التربية آرا

جديدة لم يأخذوها عن غيرهم ، بل استمدوهـامباشرة من فكرهم الاسلامي الأصيـل ، الذي جاء نتيجة فهمهم العميق والصحيح ، لما جاءبه القـرآن الكـريـم · ولِمَـا ورد عـن رسول الله ﷺ من أحاديث ·

وليس القابسي سوى واحد من الرجـالالذين تركوا لنا تراثاً فكرياً اسلامياً تربويـاً مميزاً ، بثّوه في بطون كتبهم ومصنفاتهم القيمة ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

- ابن مسكويه (ت ٤٢١ ط/١٠٣٠ م) في كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ».
- ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ/١٠٣٧ م) في« كتاب السياسة » ·
- الغـزالي (ت ٥٠٥ هـ/١١١١ م) فيكتبه : « احياء علوم الدين » ، « أيها الولد » ، « ميزان العمـل » ·
- الزرنوجي (ت ٥٧١ هـ/١١٧٣ م)في كتابه : « تعليم المتعلم طرق التعلم » ·
- ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م)في « المقدمة » ·

الغاتمة : دعوة الى التجديد في التربية الاسلامية :

قبل أن نوجه الدعوة الى التجديد في التربية الاسلامية ، نرى لزاماً علينـا الاجابة عـن سؤال يطرح نفسه بنفسـه ، وهو : هل هنـاكتناقض بين الأصالة والتجديد ؟ وهل الدعوة الى التجديد في التربية الاسلامية تتعارض معأصالتهـا ؟

نقول : سبق أن بيَّنا أن اصالة التربيـةالاسلامية مستمدة من اعتمادها المباشر عـلى كتاب الله وسنَّة رسوله ، وان علمـاء المسلمينالذين تكلموا في التربية والتعليم ، لم يخرجوا على الشريعة الاسلامية أو المبادىء والأعرافالسائدة في أي عصر من العصور الاسلاميـة ، طالما لا تتعارض مع المبادىء الاسلامية ، وكانوايجتهدون عـلى الدوام · وها هـو القابسي ، لا يرى مانعاً من دفع الاجارة للمعلمين عـلىتعليم القرآن ، مع أن ذلك لم يكن في العصـر الاسلامي الأول ، ولا سيما ان ليس في الأمـرما يعارض ذلك ، فيقول ، مستخدمـاً قاعـدة فقهية في الاجتهاد وأصوله : (ولا وجه لتضييقمـا لم يأت فيـه ضيق ، ولا ثبت فيـه عـن الرسول عليه السلام ما يدل على التنزيه عنه)(٤٧) ·

فقد جاء القابسي بجديد ، دون أن يكونهذا الجديد مناقضاً أو مخالفاً للأصالة الدينية، بل مؤيداً لها ، لاعتماده على عدم جواز مخالفةالأحكام الشرعية اذا وجـدت ، أكانت هـذه الأحكام قرآنية ، أو ثابتة عن رسول الله ﷺ ·

وعلى هذا الأساس ، جاءت دعوتنا للتجديد في التربية الاسلاميـة ؛ فالتربيـة اليـوم اتخذت لها منهجاً جديداً ، ومبادىء وأصـولااعتمدت فيها على فلسفات وآراء نظرية ، أو تجارب ميدانية ، أو عملية مخبرية ، ووصلتالى نتائج جيدة أحياناً · وكـذلك اعتمـدت التربية الحديثة على علوم أخرى ، ساعدتهـاعلى ارساء قواعدها وتثبيت دعائمها ، كعلـم النفس ، وعلم الاجتماع وغيرهما ·

لذا ندعو علماء التربية المسلمين ، الى فتح باب الاجتهاد ، لاعادة بناء التربية الاسلامية ، ووضع الأسس والمبادىء المستمدة من أصالتها ، والمستفيدة من العلوم الحديثة التي تخدمها ، دون أن تفقدها هذه الاستفادة طابعها وأصالتها ، أو تبعدها عن جذورها الراسخة ٠

★ ★ ★

□ هوامش :

١ ـ راجع : J. Leif : Philosophie de l'éducation

٢ ـ راجع : A. Prost : Histoire de l'enseignement

٣ ـ لمزيد من التفاصيل راجع : د٠ اسماعيل ، صادق جعفر ، مسار الفكر التربوي عبر العصور ٠

٤ ـ بالماد ، غي : مناهج التربية ٠

٥ ـ ابن خلدون : المقدمة ٠

٦ ـ هذا ما نجده لدى القابسي ، والزرنوجي ، والشاطبي ، وكذلك لدى أبي حامد الغزالي ٠

٧ ـ دريفيون ، جان : التوجيه التربوي والمهني ٠

٨ ـ بركات ، محمد خليفة : علم النفس التعليمي ٠

٩ ـ لمزيد من التفاصيل راجع : ابن خلدون ، المقدمة ص ٧٧ ٠

١٠ ـ راجع :
N. Goble et J. Porter l'Evolution du rôle du Maitre.

١١ ـ دريفيون ، جان : التوجيه التربوي والمهني ٠

١٢ ـ وهذا ماخوذ من احاديث نبوية عدة منها قوله ﷺ : « ليس الايمان بالتمني ولكن الايمان ما وقر في القلب وصدقه العمل » ٠ وكذلك ما ورد في الخبر أن الرسول ، ﷺ ، كان يعلـّم الصحابة الآية ، فاذا عملوا بها علـّمهم غيرها ٠
ومن ذلك ايضا قول أهل التصوف : من عمل بما علم ، اورثه الله علم ما لم يعلم ٠
يراجع ايضا كتابات الغزالي (الأحياء ، ميزان العمل ، منهاج العابدين) وكلها تربط بشكل مباشر بين المعرفة والعمل ٠

١٣ ـ الغزالي : أيها الولد ص ١١ ٠

١٤ ـ المصدر السابق ص ٢٧ ٠

١٥ ـ سورة الكهف ، الآية ١١٠ ٠

١٦ ـ سورة النجم الآية ٣٩ ٠

١٧ ـ الغزالي : أيها الولد ص ١٩ ٠

١٨ ـ القابسي : الرسالة المفصلة (الورقة ١١ ألف) ٠

١٩ ـ سورة هود ، الآية ١١٢ ٠

٢٠ ـ لمزيد من المعلومات حول ترجمته انظر ٠
ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/٣٢٠ ٠
ـ ابن العماد : شذرات الذهب ٣/١٦٨ ٠
ـ الذهبي : العبر ٣/٨٥ ٠
ـ الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان ٢١٧
ـ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤/٦١٦ ٠
ـ عبد الرحمن عبد الله : معالم الايمان ٢/١٦٨

٢١ ـ راجع خبر عماه في : نكت الهميان في نكت لصلاح الدين الصفدي ، ٢١٧ ٠

٢٢ ـ نسبة الى قابس ، وهي مدينة في شمالي افريقية ساحل البحر قرب طرابلس الغرب ٠ راجع : البلدان (مادة قابس) ٤/٢٨٩ ٠

٢٣ ـ ملخص بكسر الخاء ، كما ذكره القابسي نفسه ، يريد يلخص المتصل من أحاديث مالك ٠

٢٤ ـ هذه الرسالة هي التي سنعول عليها في بحثنا التربو هذا وتوجد نسخة خطية منها في المكتبة الوطنية ببار تحت رقم ٤٥٩٥ ، ولعلها النسخة الخطية الوحيد العالم حتى الآن، وقد نشرها الدكتور أحمد فؤاد الأهو بالقاهرة عام ١٩٤٥ ٠

٢٥ ـ القابسي : الرسالة المفصلة ، الاوراق من ٢٦ ٣٠ الف ٠

٢٦ ـ المصدر السابق الورقة ٢٣ الف ٠

٢٧ ـ المصدر السابق : الورقة ٢٣ ألف ٠

٢٨ ـ المصدر السابق : الورقة ٨٠ باء ٠

٢٩ ـ المصدر السابق : الورقة ٨١ باء ٠

٣٠ ـ المصدر السابق : الورقة ٧٢ ألف ٠

٣١ ـ المصدر السابق : الورقة ٥٠ باء و ٥١ ألف ٠

٣٢ ـ المصدر السابق : الورقة ٦٣ باء ـ ٦٥ ألف ٠

٣٣ ـ المصدر السابق : الورقة ٦٨ و ٦٩ ألف ٠

٣٤ ـ الديب فتحي ، ومجاور صلاح الدين : المنهج المدر أسسه وتطبيقاته التربوية ٠

٣٥ ـ الرسالة ، الورقة ٤٤ ٠

٣٦ ـ المصدر السابق : الورقة ٣٠ ألف ٠

ـ المصدر السابق : الورقة ٥٨ باء ٠
ـ المصدر السابق : الورقة ٧٠ باء ـ ٧١ باء راجع أيضا بشان هذا الموضوع كتاب التربية وطرق التدريس للدكتور محمد عبد العزيز عيد ٠
ـ راجع : بركات ، محمد خليفة : علم النفس التعليمي وراجع أيضا : عيد ، محمد عبد العزيز : علم النفس التربوي وكذلك :
N. Goble, et J. Porter : L'évolution du rôle du Maître.

٤٠ ـ الرسالة المفصلة ، الورقة ٥٧ ب ٠
٤١ ـ عيد ، محمد عبد العزيز : علم النفس التربوي ٠
٤٢ ـ الرسالة المفصلة ، الورقة ٥٣ الف ـ ٥٦ باء ٠
٤٣ ـ المصدر السابق : الورقة ٥٧ ألف ٠
٤٤ ـ المصدر السابق : الورقة ٥٧ ألف ٠
٤٥ ـ المصدر السابق : الورقة ٦١ ألف باء ٠
٤٦ ـ المصدر السابق : الورقة ٧٢ الف ٠
٤٧ ـ المصدر السابق : الورقة ٣٣ ألف ٠

★ ★ ★

مصادر البحث :

١ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٥٤ هـ ٠
٢ ـ ابن خلدون : المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت (د٠ت) ٠
ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تحقيق د٠ احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠
ـ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٠دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (د٠ ت) ٠
ـ ابن مسكوية : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق (د٠ ت) ٠
٦ ـ اسماعيل ، صادق جعفر : مسار الفكر التربوي عبر العصور ٠ جامعة الكويت ، طبعة ثانية ١٩٧٧ ٠
٧ ـ بالماد ، غي : مناهج التربية ، سلسلة زدني علما منشورات عويدات بيروت ١٩٨١ ٠
٨ ـ بركات ، د٠ محمد خليفة : علم النفس التعليمي ـ دار القلم ، الكويت ١٩٧٤ ٠
٩ ـ الدباغ ، عبد الرحمن بن عبدالله : معالم الايمان في معرفة أهل القيروان تونس ١٣٢٠ هـ ٠
١٠ ـ دريقيون ، جان : التوجيه التربوي والمهني ، سلسلة زدني علما ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٨٢ ٠
١١ ـ الديب ، فتحي ، وصلاح الدين مجاور : المنهج المدرسي. أسسه وتطبيقاته التربوية ، دار القلم ، الكويت ، طبعة رابعة ١٩٧٧ ٠
١٢ ـ الذهبي ، شمس الدين : العبر في خبر من عبر ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ـ الكويت ١٩٦٠
١٣ ـ الزرنوجي : تعليم المتعلم طرق التعليم ، تحقيق د٠ مروان قباني ٠ المكتب الاسلامي ـ بيروت ٠ (د٠ ت) ٠
١٥ ـ الصفدي ، صلاح الدين : نكت الهميان في نكت العميان ، تحقيق أحمد زكي بك ، المطبعة الجمالية ، مصر ١٩١١ ٠
١٦ ـ عبد العزيز ، صالح ، وعبد العزيز عبد المجيد : التربية وطرق التدريس دار المعارف ـ مصر ١٩٧٢ ٠
١٧ ـ عياض ، القاضي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الامام مالك ٠ تحقيق د٠ أحمد بكير محمود ، دار الحياة ، بيروت (د٠ ت) ٠
١٨ ـ عيد ، محمد عبد العزيز : في علم النفس التربوي ، دار البحوث العلمية ، الكويت ١٩٧٥ ٠
١٩ ـ الغزالي ، أبو حامد : احياء علوم الدين ـ دار المعرفة ـ بيروت (د٠ ت) ٠
٢٠ ـ الغزالي ، أبو حامد : أيها الولد ، تحقيق د٠ توفيق الصباغ ـ بيروت (د٠ ت) ٠
٢١ ـ الغزالي ، أبو حامد : ميزان العمل ، تعليق محمد مصطفى أبو العلا مكتبة الجندي ـ القاهرة (د٠ ت) ٠
٢٢ ـ القابسي ، علي بن محمد : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ٠ نسخة خطية موجودة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٤٥٩٥ ٠
٢٣ ـ القابسي ، علي بن محمد ، الرسالة المفصلة ٠٠٠ نسخة مطبوعة بتحقيق أحمد فؤاد الأهواني ـ القاهرة ١٩٤٥ ٠
24 — Antoine Prost : Histoire de l'enseignement en France, 1800-1967, Col. 4, Armand Colin, Paris 1968.
25 — J. Leif : Philosophie de l'éducation Librairie Delagrave, Paris 1974.
26 — Norman Goble et James Porter : L'évolution du rôle du maître, UNESCO, Paris 1977.

كتب تراثية وفكرية

معجم النبات والزراعة

تاليف : الشيخ محمد حسن آل ياسين

يقول المؤلف في المقدمة : « تعد اللغة العربية - كما يعلم المعنيون بها والممارسون لها لغة فريدة بين لغات الأرض ثراء وسعة وقدرة على النمو والتطور . فالمفردات التي أثرت عن العرب أكثر من الكثير وقد استوعبت كل أغراضهم في التعبير عما صغر أو كبر من شؤون الحياة وما دقّ أو جلّ من المرئيات والمحسوسات وباب المجاز - المفتوح على مصراعيه لمن يحسن ويتقن - يمنح المزيد من ذلك كلما اقتضى الأمر ودعت الحاجة فيضيف الى المأثور اللغوي ما يسد النقص ويفي بالمراد . وأوزان الاشتقاق القياسية - وهي من الوفرة وتعدد الأغراض بمكان ترفد المسيرة على الدوام بالجديد من الألفاظ تلبية لما يفرضه تطور الزمن وتقدم العلوم فتزيد اللغة غنى وثروة في الكم والكيف » .

وبعد المقدمة يذكر المؤلفين القدامى الذين عنوا بمصطلحات النبات ويقسم مؤلفاتهم الى ثلاث مجموعات : المجموعة الأولى تضم المؤلفات المعنية بالنبات من المنظور اللغوي ، والثانية تتناول الفصول الخاصة بالنبات الواردة في المعجمات اللغوية المبوبة حسب الموضوعات والثالثة تضم المؤلفات المعنية بعلم الفلاحة وبالحشائش والأدوية النباتية . ويقول انه رجع في اعداد المعجم الى أربعة عشر مصدراً هي العمدة في رواية اللغة ومعرفة المفردات وضبط الألفاظ .

ويضم المعجم أسماء النبات ، وبيان كل نوع من أنواعه أو فصيلة من فصائله بل « كل ما يتعلق بأسماء أعضائه وورقه . أصله وفرعه ، ورده وثمره ، فجه وناضجه رطبه ويابسه » كما يضم كل ما يتعلق بالزراعة والفلاحة من آلات وأدوات ووسائل وأمراض وآفات .

واختار في ترتيب المفردات على الحروف الهجائية ملاحظة آخر الكلمة لا أولها (وان كانت مرتبة على الأول داخل الحرف الواحد) ليسهل الرجوع الى المعجمات الشهيرة التي تعتمد هذا الترتيب اذا شاء المراجع التثبت وزيادة اليقين . ينتهي الجزء الأول بحرف (الظاء) وتتلوه فهارس متنوعة للألفاظ والأماكن واللغات واللهجات ، وهو يقع في ٦٠٧ صفحة من القطع المتوسط وظهر عام ١٤٠٦ هـ الموافق ١٩٨٦م .

لمحات في المكتبة والبحث والمصادر

تأليف : الدكتور محمد عجاج الخطيب

ظهرت الطبعة السابعة من هذا الكتاب عن مؤسسة الرسالة عام ١٩٨٦ والكتاب يقع في فصول ثلاثة :

الفصل الأول يتناول المكتبات الاسلامية: نشأتها ، نظامها ، فهارسها ، القائمين عليها أشهرها فيما مضى ، وأشهر المكتبات في العالم في العصر الحاضر وكنوز المخطوطات العربية ·

الفصل الثاني يعالج البحث : أهميته ،أصوله ، طريقته ، مقومات نجاحه ·

والفصل الثالث يتناول المصادر، وهو عرض دقيق لحركة التأليف عند علماء المسلمين في مختلف علوم الاسلام والعربية مع دراسة أهم المصادر فيها دراسة علمية دقيقة · وقد جعل هذا الفصل في ثلاثة عشر مبحثاً هي :

١ ــ القرآن والتفسير ٢ ــ الحديث وعلومه ٣ ــ السيرة النبوية ٤ ــ العقيدة والفرق ٥ ــ الفقه ٦ ــ أصول الفقه وتاريخ التشريع ٧ ــ التاريخ الاسلامي والتراجم ٨ ــ حضارة الاسلام ٩ ــ حاضر العالم الاسلامي ١٠ ــ اللغة والأدب ١١ ــ كتب جامعة وكتب في دراسات اسلامية ١٢ ــ معاجم البلدان ١٣ ــ مراجع المراجع ·

يقع الكتاب في ٤٠٨ صفحة ·

* * *

ابــن رشــد

شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان حققه وشرحه وقدم له الدكتور عبدالرحمن بدوي، الطبعة الأولى ،الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٤٠٥ هـ ١٩٨٤م (السلسلة التراثية ١٢) ·

لقد تناول ابن رشد كتب أرسطو المنطقية الثمانية على الأنحاء الثلاثة المعهودة عنده في تناول أرسطو أي : الجوامع ، التلخيصات ، التفاسير · بيد أنه لم يصلنا من الأصل العربي لهذه الأنواع الثلاثة غير الجوامع والتلخيصات ولكن منذ بضعة أعوام وصلنا النصف الأول من تفسير كتاب البرهان وهذا الذي ينشره بدوي لأول مرة ·

والفضل الأكبر لابن رشد هو في ايضاح نص أرسطو المترجم الى العربية ووضع تقسيمات وتمييزات تبين مفاصل أقوال أرسطو وهو أمر سيتأثر به فلاسفة العصور الوسطى في أوربة · ويفرد بدوي صفحات كثيرة لذكر تأثير شروح ابن رشد في المنطق في عصر النهضة · ثم يحلل باختصار مضمون كتاب البرهان الذي يدعى أيضاً (التحليلات الثانية) ويخص الفقرة الرابعة من مقدمته بالشروح اليونانية على هذا الكتاب أما الفقرة

الخامسة فتناول الترجمة العربية لكتاب البرهان الواردة في تفسير ابن رشد وقدنشر بدوي الكتاب وفقاً لمخطوط برلين الذي يصفه وصفاً مسهباً مع مراجعة الترجمة اللاتينية في طبعة البندقية .

والكتاب يقع في ٥٠٢ صفحة من القطع المتوسط .

★ ★ ★

الرَّبذة .. صورة للحضارة الاسلامية المبكرة في المملكة العربية السعود

بقلم : الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد

الرياض ـ جامعة الملك سعود

لقد ارتبطت مكة بطرق مواصلات كانت تمتد اليها من مختلف أنحاء العالم الاسلامي. وكان الحجاج يتحملون المشاق في اجتيازهم طرق التجارة القديمة المعروفة قبل الاسلام ثم تحسنت طرق القوافل القديمة وكان أبرزها طريق الكوفة الذي أنشيء في عهد الخليفة أبي العباس السفاح وهو الطريق الذي يدعى بدرب زبيدة تكريماً للسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي عنيت بتزويد الطريق بالمرافق والتسهيلات . وقد تعهد خلفاء بني العباس تخطيط هذا الطريق وتمهيده فكان بهندسته العربية الاسلامية البارعة من بعض الانجازات الكبيرة التي شهدها العالم الاسلامي ولئن كانت الطرق الكبرى في عصر الامبراطور الرومانية تصل رومية بمستعمراتها فان هذا الطريق يصل الخلافة العباسية بمركز الحج الاسلامي الذي هو بمنزلة المؤتمر العالمي للسلام والتعاون زيادة على كونه أحد أركان الاسلام .

وقد ظل هذا الطريق مسلوكاً حتى عهد غير بعيد . والربذة موقع أو مدينة تقع فيه ذكرها الجغرافيون الاسلاميون كابن خرداذبة والحربي وقدامة والهمداني والمقدسي وياقوت الحموي . ولكن بعد ثلاثة قرون من انشاء هذه المدينة اختفت تحت رمال الصحراء الى أن تضافرت الجهود في قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود وقامت بحفريات أثرية وكشفت موقع الربذة جنوب شرقي المدينة المنورة على مسافة مائتي كيلو متر منها . وكان للدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد المختص بالآثار الاسلامية في الجزيرة اليد الطولى في نفض رمال الجهل بهذا الموقع الممتاز ووضع هذا المؤلف الضخم الذي يعتبر احدى صور الحضارة الاسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية . وقد وضعه بالعربية والانكليزية بطبع فاخر مزين بالصور والرسوم . يتناول في الفصل الأول الخلفية التاريخية للموقع والفصل الثاني يبحث آثار منطقة الربذة والفصل الثالث يعالج المنشآت المائية فيها والفصل الرابع يفصل الكشوف الأثرية في الربذة من كتابات وخشب وعاج وأدوات حجرية ومسكوكات وفخار وسواها يقع الكتاب في ١٨٣ صفحة من القطع الكبير وهو على درجة كبيرة من الأهمية .

فاطمة عصام صبري